روايات
عالمية
للفتيان

الادهم الجميل

الكتاب الثاني

تأليف آنا سيويل



ترجمة كاظم سعد الدين

انّا سيويل

الادهم الجميل

ترجمة

كاظم سعدالدين

الادهم الجميل

تأليف : آنا سيويل
ترجمة : كاظم سعد الدين
الطبعة الاولى ١٩٨٩

الناشر : وزارة الثقافة والاعلام ـ دار ثقافة الاطفال
العراق بغداد ـ بريد ٨ شباط ص . ب ٨٠٤١

سلسلة روايات عالمية
تصدر عن دار ثقافة الاطفال
المدير العام : فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة : فاروق يوسف

تقديم

هذا الادهم الجميل

ولدت مؤلفة «الادهم الجميل» ـ بلاك بيوتي ـ انّا سيويل في انكلترا سنة ١٨٢٠ وتوفيت سنة ١٨٧٨. وكانت قد اصيبت في طفولتها بالعرج فقضت حياتها شبه عاجزة. الفت انا سيويل روايتها الوحيدة: الادهم الجميل قبيل وفاتها بسنتين اي في ١٨٧٦، تحث به على العطف والرحمة وحسن معاملة الخيل. «الادهم الجميل» اول رواية في العالم على لسان حيوان، يسرد فيها جواد ادهم قصة حياته بضمير المتكلم ويبين فيها سعود الحياة ونحوسها التي المت به، وبخاصة نحوسها. فبالرغم من كرم محتده «الادهم الجميل» وعراقة اصله وحسن نشأته، فقد نزلت به صروف الزمان في تقلبات متوالية من النكبات والحوادث المؤسفة والحظ العاثر، التي لا تخلو من نفحات من الامل والجمال، حتى بلغ به الامر الى جر عربة أجرة في لندن، بعد ان كان رافلاً في العز، وكان من المحتمل ان يجور به الزمان اكثر فيجر عربة فحم. ولحسن حظه، في النهاية، يستقر به المقام في منزل طيب ويقضي ايامه في راحة.

ويبدو ان الكاتبة مهتمة باداء رسالتها من أجل الرفق بالخيل معززة بامثلة كثيرة تنتظم فصول الرواية، فتحيل كل

فصـــل الى حكاية في نطاق الرواية المتكاملة. غير ان خلود الكتاب لا يتأتى من رسالته - وخصوصاً في حالة مثل هذه الحالة: فقد تغيرت الحال واضحت الرسالة مهجورة لا اهمية عظيمة لها بعد ان حلت السيارة محل الحصان. ويبدو ان خلود «الادهم الجميـل» ناجم، من ناحية، عن الاستدرار الموفق لعاطفة الحنان لدى الاطفال. ومن ناحية اخرى، عما تحمل الرواية في طياتها من ادانة لسوء المعاملة وعدم الرفق لدى بعض القســاة من الناس. وقد اثبتت المؤلفة جرأتها وحريتها الفكرية وخصوصا في الفصول التي تدين الحرب وصيد الثعالب.

«الادهم الجميل» علامة منيرة في دنيا الرواية للاطفال، ولغير الاطفال، على لسان الحيوان، بالرغم من ان الموضوع، عريق عراقة الفكر الانساني، فقد وجدت قصص الحيوان وعـلى لســانــه منذ ايام السومريين والبابليين والآشوريين والعـرب قبـل الاسلام وبعده ولدى المصريين القدماء وفي الهند واليونان وغيرها. نخص بالذكر حكايات ايسوب، مع الشك في نسبتها اليه وان اكثرها منحول اليه، وكذلك امثال لقمان الحكيم، وكليلة ودمنة وحكايات الحيوان في الف ليلة وليلة، وفي رسائل اخوان الصفا وغيرها، غير ان تلك حكايات مفردة او متداخلة مع بعضها وليست رواية طويلة، بطلها حيوان واحد مثل الادهم الجميل يروي معالم حياته وحياة

رفاقه الجياد والسواس والناس، ومعالم متعددة من المجتمع في ثنايا الاحداث.

سار على منوال هذه الرواية الرائدة كتاب مبدعون. فقد الّفت الكاتبة الكندية مركريت مارشال سوندرز روايتها الرائعة «جو الجميل» في سنة ١٨٩٣ عن كلب يروي قصة حياته. وقد نالت هذه الرواية حظوة لدى القراء لا تقل عن «الادهم الجميل»

ويبدو ان كندا احرزت قصب السبق في هذا الميدان منذ عهد مبكر فقد كان ارسنت ثومپسن سيتون (١٨٦٠-١٩٤٦) وجارلز روبرتس (١٨٦٠ ـ ١٩٤٣) رائدين عظيمين من رواد قصص الحيوان الواقعية او سيرة حيوان البراري. تناول سيتون في رواياته مختلف انواع الحيوانات البرية، ونخص بالذكر روايتين «الدب الكبير» ١٩٠٤ و«الثعلب الاحمر» ١٩٠٥.

وفي انكلترا، عودا على بدء، يكتب سير جون فوتسكبو «قصة ظبي احمر» سنة ١٨٩٧، ماتزال تأسر القراء الفتيان ويعاد طبعها. اما في امريكا فيكتب جاك لندن روايات متنوعة عن الحيوانات ابرزها «نداء البراري» ١٩٠٣. ولقصص وروايات رديارد كبلنك مكانة متميزة في قصص الحيوان المكرسة للناشئة.. منها «كتب الاحراش» ١٨٩٥، وقصص موكلي الاخاذة.

انتشرت قصص وروايات الحيوان في انحاء الدنيا، شرقا وغربا. وتظل رواية «الادهم الجميل» تحتل الصدارة في هذا الضرب ومن القصص الفذ بالرغم من تعاقب السنين وتوالي النشر منذ صدورها اول مرة.

كاظم سعد الدين

بغداد

١٩٨٨/٦/١٥

الجزء الاول

١

منزلي الاول



كان المكان الاول الذي اتذكره جيدا مرجا سائغا بهيجا وفسيحاً، فيه غدير ماء رائق، تحنو عليه اشجار وارفة الظلال، وفي الطرف العميق منه ينمو الاسل وزنابق الماء.

وكنا نتطلع من فوق الوشيع ـ اي سياج من نباتات ـ الى حقل محروث في احدى جهاته، او نطل من جهة اخرى فوق بوابة كبيرة الى بيت صاحبنا القائم على جانب الطريق. وفي اعلى المرج اجمة من شجر التنوب، وفي اسفله جدول سريع الجريان من مرتفع شديد الانحدار.

كنت ارضـع حليب امي عنـدمـا كنت صغيرا فلم يكن بوسعي ان اكل العشب. وكنت في النهار اجري الى جانبها، وفي الليل استلقي قريبا منها. واعتدنا ان نقف عند الغدير تحت ظلال الاشجار اذا اشتد الحر، اما في البرد فكنا نأوي الى حظيرة لطيفة، على مقربة من الاشجار يشيع الدفء في ارجائها.

وما ان كبرت وصرت قادرا على اكل العشب، حتى اخذت امي تخرج للعمل نهاراً وتعود مساء.

وكان معي ستة امهار في المرج، هم اكبر مني عمرا، وكان بعضهم يقارب في حجمه الخيول البالغة. اجري معهم واجد في ذلك متعة بالغة، اذ اعتدنا ان نعدو معا حول الحقل مرارا باسرع ما نستـطيع. وكنا احياناً نخشوشن في لعبنا، فقد كانت الامهار الكبيرة يعض بعضها بعضا ويرفسه فضلا عن عدوهم.

تجـاوز الرفس ذات يوم حدوده فصهلت امي تدعوني اليها ثم قالت:

اود ان تنتبه الى ما اقول لك. الامهار التي تعيش هنا امهار ممتازة بيد انها أمهار جر عربات، ولم تتعلم قواعد السلوك الحسن. اما انت فكريم الاصل، مهذب. لابيك شهرة عظيمة في هذه الاصقاع، وقد فاز جدك بالكأس سنتين في سباقات نيوماركت. وكانت جدتك تتحلى باطيب الطباع بين الافراس التي اعرفها. واظن انك لم ترني يوما اعض او ارفس. واني وطيدة الامل انك ستشب مهذبا وطيبا ولن تسلك سبل السوء، وان تؤدي اعمالك برغبة، واذا ماجريت خبباً، ارفع ارجلك جيدا، ولا تعض او ترفس حتى في اللعب.

لم انس نصيحة امي قط. فقد كنت اعرف انها فرس كبيرة، حكيمة. وان صاحبنا يهتم بها كثيرا ويوليها فكره. كان اسمها «دوقة»، غير انه كثيراً ماكان يدعوها «مدللة»..

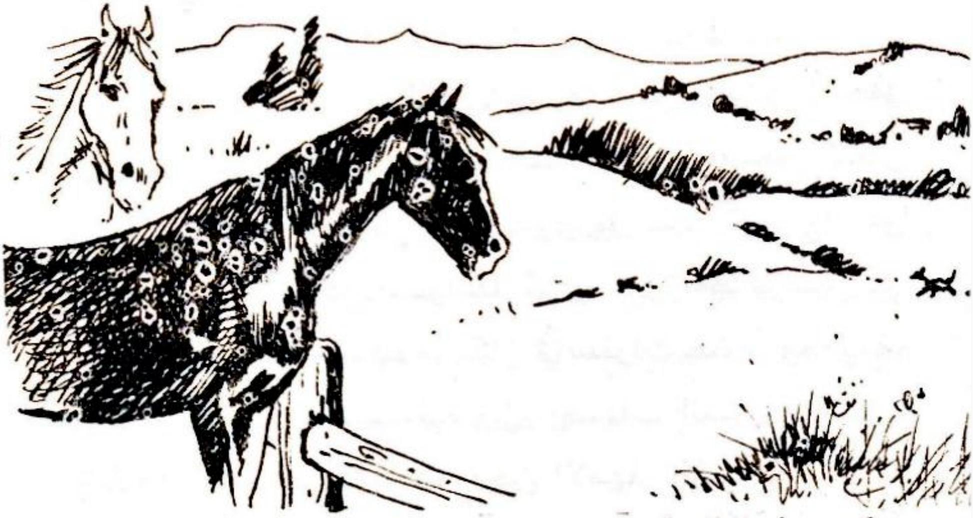
كان صاحبنا رجلا دمثا ودودا. يقدم لنا اطيب طعام ويوفر لنا خير مأوى، ويسمعنا ارق كلام. يشيع من ثنايا كلماته العطف كأنه يلاطف اطفاله الصغار. كنا جميعا مغرمين به، وتحبه امي حباً جماً. فاذا ما رأته لدى الباب، صهلت من فرط بهجتها وجرت اليه خببا. فيربت عليها ويمسدها برفق ويقول لها: «اهلا بالمدللة، كيف حال الاسيود الصغير؟» فقد كنت ادهم اي اربد السواد ولهذا اطلق عليّ «الاسيود» وكان يمنحني قطعة خبز ممتازة ويجلب جزرا لامي احيانا. وتقبل الخيل جميعا نحوه. غير اني اظن

انني وامي كنــا المفضلين لديــه. فقد كانت امي تنقله الى المدينة في يوم السوق في عربة خفيفة ذات عجلتين.

وكــان «دك» فتى من الفــلاحين يأتي الى حقلنا احيانا ليقطف العليق من نبات الاسيجة. واذا ماتناول كل مايريد، راح يمزح مع الامهار، فيرميها بالحجارة والعيدان ليدفعها الى الجري. ولم نكن به نأبه، اذ كنا نعدو مبتعدين عنه، ولكن قد يصيبنا منه حجر يؤذينا.

وكــان ذا يوم سادراً في لعبتــه تلك ولم يكن يدري ان صاحبنا كان في الحقل المجاور يراقب مايجري. فوثب فوق السياج النباتي بسرعة خاطفة ومسك ذراع دك ووجه لكمة الى اذنه جعله يجأر من الالم وهول المفاجأة. وما ان رأينا صاحبنا، حتى عدونا خببا مقتربين لكي يكون وقال له: ياولد السوء! ومن سوئك تطارد الامهار. لن تكون هذه المرة الاولى ولا الثــانية، بل الاخيرة! هاك، خذ نقودك واغرب الى بيتك. لا اريدك بعد هذا في مزرعتي. فلم نر دك مرة اخرى. وكان دانيال العجوز، سائس الخيل، رجلا رقيقا مهذبا مثل صاحبنا، فكنا في سعة، واحسن حال.

٢
الصيد



كنت في الثانية من عمري عندما وقع حادث لن انساه ابدا. كان الربيع في اوائله، عندما نزل ثلج قليل في الليل، وكان ضباب خفيف مايزال عالقا فوق الاجام والمروج، كنت والامهار الاخرى نرعى في الطرف الاسفل من الحقل عندما سمعنا من بعيد مايشبه صياح الكلاب. رفع اكبر الامهار عمرا رأسه ونصب اذنيه وقال: «تلك كلاب الصيد!» وما لبث ان انطلق يخب وتبعناه جميعا الى الطرف الاعلى من الحقل حيث بوسعنا ان نتطلع من فوق السياج النباتي ونرى خلفه حقولا عدة. وكانت امي وفرس ركوب اخرى من افراس صاحبنا واقفتين على مقربة وقد بد انهما تعرفان كل شيء عن ذلك الامر.

قالت امي: وجدوا ارنبا بريا. سنرى الصيد اذا جاءوا بهذا الاتجاه.

وسرعان ما انقضت الكلاب جميعا تشق طريقها في حقل الحنطة الفتية نحو حقلنا. وما سمعت قبلا صخبا كالذي صدر عنها. فلم تكن تنبح ولا تعوي بل ظلت توعوع: عو! عوعو! عو! عوو! باعلى اصواتها، ثم جاء، ورراءها فرسان على صهوات جيادهم، ومنهم من كان في سترات خضر، وجميعهم يعدون باسرع مايستطيعون. وصهلت الفرس المسنة وتطلعت اليهم متلهفة وددنا نحن الامهار الفتية لو اننا كنا نعدو معهم، ولكنهم سرعان ما ابتعدوا في الحقول المنخفضة. ويبدو انهم توقفوا ها هنا. وكفت الكلاب عن النباح، وركضت في كل اتجاه وانوفها الى الارض.

فقالت الفرس العجوز: لقد فقدوا الرائحة. ولربما ينجو الارنب.

فسألتها: اي أرنب؟

فاجابت: لا ادري اي ارنب. لعله واحد من ارانبنا خرج من بين الاشجار، اذ ان اي ارنب يمر يكون صالحاً ان تجري الكلاب والرجال خلفه.

وقبل انقضاء وقت طويل، عاودت الكلاب وعوعتها: عو! عووو! وعادوا جميعا باقصى سرعتهم متجهين الى حقلنا مباشرة حيث يشرف المنحدر وسياج النباتات على الجدول.

وقالت امي: الآن سنرى الارنب وفي تلك اللحظة انطلق بقربنا ارنب شديد الذعر واتجه نحو الاشجار.

ثم اقبلت الكلاب! وانقضت فوق المنحدر، وطفرت الجدول، منطلقة عبر الحقل يتبعها الصيادون، ووثب ستة او ثمانية رجال بخيولهم على اعقاب الكلاب. وحاول الارنب ان يخترق السيـاج ولكنه كان شديد الكثافة فاستدار بصورة حادة ليتجـه نحـو الطريق. ولكن بعد فوات الاوان، فقد صارت الكلاب فوقه وهي تنبح نباحاً وحشيا وسمعنا صرخة واحدة، وبها كانت نهاية الارنب..

واسرع احد الصيادين فطرد الكلاب بالسوط ولولا ذلك لمزقته اربا، فرفع من ساقه ممزقا ينزف دما، وبدا السرور طافحا على وجوه الرجال جميعا.

امـا انا فقد ذهلت كثيرا فلم ار بادىء ذي بدء ماكان يحدث عند الجدول، ولكنني عندما القيت نظري رأيت منظراً مخـزنـا. فقـد كبا جوادان. وكان احـدهما يكافح من أجل النهوض في الجدول، وكان الثاني يئن فوق العشب. وكان احد الفارسين يخرج من الماء وقد علته الاوحال. اما الآخر فظل مستلقياً بلا حراك فقالت امي: كسرت عنقه.

وقال احد الامهار: هو يستحق ذلك.

وايدته في نفسي ولكن امي لم تشاطرنا الرأي.

فقالت امي: كلا، ماكان ينبغي لك ان تقول ذلك. بالرغم من

انني فرس كبيرة العمر وسمعت ورأيت امورا كثيرة، الا انني لا استطيع ان افهم لماذا يغرم الرجال بهذه الرياضة. فهم غالبا مايؤذون انفسهم ويهلكون خيولا اصيلة ويتلفون الحقول من اجل ارنب او ثعلب او غزال يمكنهم الحصول عليه بيسر بوسيلة اخرى. ولكننا لسنا سوى خيول لا نعرف شيئا.

عندما كانت امي تقول ذلك، وقفنا وتطلعنا. رأينا كثيرا من الفرسان يقبلون على الشاب. ولكن صاحبنا الذي كان يراقب مايجري، كان اول من انهضه، غير ان رأسه سقط الى الخلف وتدلت ذراعاه، فبدا الجد على الجميع وانقطعت الضوضاء وهدأت حتى الكلاب وبدت كأنها تعرف ان امرا خطيرا قد وقع. حملوه الى بيت صاحبنا. وسمعت بعد ذلك ان الشاب هو جورج كوردن، ابن صاحب الضيعة الوحيد وهو شاب وسيم طويل، يعد مفخرة عائلته.

وتفرق الفرسان في كل الجهات بحثاً عن الطبيب والبيطري وعن والد الفتى بلا ريب ليقف على خبر ولده. وعند حضر المستر بوند البيطري لالقاء نظرة على الجواد الادهم الذي يئن طريحا على العشب، جسه في كل اجزاء بدنه، وهز رأسه، كانت احدى قوائمه مكسورة، ثم ركض احدهم الى بيت صاحبنا وعاد ببندقية. ودوت على الفور اطلاقة عاليا وتلتها صرخة رهيبة، ثم سكن كل شيء. ولم يعد الجواد الادهم

يتحرك.

وبدت امي شديدة الهم. قالت انها كانت على معرفة بذلك الحصان سنين، وان اسمه «روب روي».. كان حصانا ممتازا وجريئا، لاعيب فيه.

ولم تكن ترغب بعد ذلك في الذهاب الى ذلك المكان من الحقل.

ولم تنقض ايام كثيرة حتى سمعنا الناقوس يدق بانتظام مدةلا طويلة. نظرنا من فوق الباب فرأينا عربة طويلة غريبة سوداء يكسوها قماش اسود وتسحبها خيول سود. وجاءت بعد ذلك عربة اخرى واخرى ثم اخرى، وكانت كلها سود، في الوقت الذي ظل الناقوس يدق ويدق. حملوا الفتى كوردن الى مقبرة الكنيسة ليوارى الثرى. ولن يعود لركوب الخيل ابدا.

اما ماذا فعلوا بروب روي فلست اعلم شيئا. ولكن كل ذلك كان من أجل ارنب صغير.

طفقت أشب عن الطوق وسيما. وغدا اهابي لطيفا ناعما، مشرقا في سواده. وكانت احدى قوائمي محجلة بالبياض، وعلى جبيني غرة بيضاء رائعة كالنجم. ولذا كنت اعد وسيما غاية الوسامة.

ولم يرغب صاحبي في بيعي حتى ابلغ الرابعة من عمري. قال ان الصبيـان ينبغي الا يعملوا كالرجال، وان الامهار ينبغي الا تعمل كالخيول حتى يتم نضجها.

عندما بلغت الرابعة من عمري اتى كوردن ليلقي نظرة علي. وفحص عيني وفمي وقوائمي. وجسها جميعا، وكان علي ان اسير امامه واجري خببا واعدو سريعا. ويبدو انه اعجب بي فقـال: عنـدمـا يروض جيدا، سيكون ممتازا في تلبية الاحتياجات... وقال صاحبي انه سيروضني بنفسه، لانه لا يريدني ان اخاف او اصاب باذى.

ولم يتلكأ في الامر، فقد بدأ في اليوم التالي.

وقد لا يعرف احد ما الترويض، لذا سأصفه فهو يعني تعليم الحصان ان يلبس سرجاً ولجاما وان يحمل على على ظهره رجلا او امرأة او طفلا، وان يذهب في الطريق الذي يرغب فيه راكبه وان يسير هادئا. وعليه، فضلا عن ذلك ان يعتاد لبس

الطوق والتفر، وان يقف ساكنا عند وضعها عليه، وشد عربة خفيفة ذات عجلتين او اربع عجلات خلفه، فلا يستطيع المشي او الجري، دونما سحبها وراءه. وعليه ان يسير سريعا او بطيئا على مشيئة سائقة، وألا يجفل مما يرى، ولا يكلم الخيول الاخرى ولا يعض او يرفس والا تكون له ارادة خاصة به، بل يعمل على حسب ارادة صاحبه، حتى ولو كان متعبا او جائعا. ولانكى من ذلك كله، انه اذا شدت عليه عدته، الا يثب فرحا او يستلقى ضجرا. وبهذا ترى ان الترويض امر عظيم الاهمية.

واعتدت، بطبيعة الحال، منذ امد طويل، على الرسن والعذار، وعلى القيادة في الحقل والدروب بكثير من الهدوء، غير انني الآن يجب ان اتلقى اللجام والشكيمة. وقدم لي صاحبي شيئا من الهرطمان على وفق العادة، وبعد كثير من الملاطفة وضع الشكيمة في فمي وشد اللجام. ولكنها شيء بغيض! ومن يجرب الشكيمة في فمه لا يمكن ان يتصور مدى طعمها الكريه. اذ هي قطعة كبيرة من الفولاذ الصلب البارد بغلظ اصبع الانسان تدس في الفم، بين الاسنان وفوق اللسان! ويخرج طرفاها من زاويتي الفم، وتشد بسيور تمر فوق الرأس وتحت البلعوم وحول الانف وتحت الحنك، بطريقة لا يمكن معها الخلاص من هذا الشيء الصلب البغيض. انها شيء كريه جدا! أجل، شيء كريه جدا! او في

الاقل، هذا هو رأيي في الامر، بيد انني اعلم ان امي تلبس دائما واحدة عندما تخرج، وكذلك تفعل الجياد جميعا عندما تكبر.

وبهذا تعلمت لبس الشكيمة واللجام مقترنين بطعم الهرطمان الطيب وربتات صاحبي وكلماته اللطيفة ومعاملته الرقيقة.

ثم تلى السرج ذلك، ولكنه لم يكن اقل سوء. وضعه صاحبي على ظهري برفق شديد في الوقت الذي مسك دانيال العجوز رأسي، ثم شد حزام السرج تحت بطني، وهو يربت ويحادثني طوال الوقت، ثم اعطاني قليلا من الهرطمان، وقادني وساربي قليلا. وصار يكرر ذلك كل يوم، حتى غدوت ابحث عن الهرطمان والسرج.

واخيرا، اعتلى صاحبي ذات يوم صهوتي ودار بي حول المرج في العشب الناعم. كان شعوري غريبا حقا، ولكن لابد من القول اني شعرت بالفخر لحمل صاحبي، وما لبثت ان اعتدت على ركوبه بعد ان استمر على ذلك كل يوم.

المسألة الاخرى التي لا تبعث على الانشراح هي وضع النعل الحديد. وقد كانت عسيرة جدا ايضا في بادىء الامر. اخذني صاحبي الى دكان الحداد لكي لا اخاف او اصاب بضرر. واخذ الحداد ارجلي واحدة بعد اخرى بيده وقلم شيئا من الحاضر. ولم يؤذني ذلك شيئا لذلك وقفت على ثلاث

قوائم حتى اتمهن جميعا . ثم تناول قطعة من حديد بشكل حافري ودقها وثبتها بمسامير خلال ثقوب في النعل واخترقت الحافر فثبتت النعال بذلك تماما. وشعرت بأرجلي متقبضه وثقيلة، غير انني اعتدت على ذلك بمرور الوقت.

وعندما بلغت هذا الحد. لم ينقطع صاحبي عن ترويضي على امور اخرى جديدة لابد من لبسها. فوضع اولا طوقا ثقيلا صلبا في رقبتي. ولجاما به قطعتان كبيرتان على جانبي عيني اسمهما غمامتان، وبذلك لا استطيع ان ارى جانبي الطريق. الا ماكان امامي مباشرة فقط. ثم وضع بعده سرجا صغيراً به سير صلب بغيض يمر من تحت الذيل، وهذا هو التفر انا اكره التفر - فهو يقحم تحت الذيل ويجعله مرفوعا وذلك امر كريه يكاد يشبه الشكيمة . وهذا ما يدفعني الى الرغبة في الرفس. ولكنني طيبا لا استطيع ان ارفس رجلا طبيعيا مثل صاحبي فاعتدت كل شيء بمرور الزمن واستطعت ان أؤدي عملي مثل امي. ويجب الا أنسى ذكر جانب من تدريبي الذي اعتبره، دائما ذا نفع عظيم. فقد ارسلني صاحبي اسبوعين الى فلاح في مرج مجاور يتاخم سكة حديد من احد اطرافه، حيث كانت ترعى فيه بعض الاغنام والابقار فاطلقني بينها.

ولن انسى مطلقاً القطار الاول الذي مر بنا. كنت ارعى بهدوء قرب سياج الاوتاد الذي يفصل المرج عن سكة

الحديد، عندما سمعت صوتاً غريباً على بعد. وقبل ان اعرف من اين يأتي، مر منطلقا شيء طويل اسود قبل ان استطيع استرداد انفاسي نافثا الدخان وهو يقعقع. فاستدرت وجريت الى الطرف الاقصى من المرج باسرع ما استطيع ووقفت هناك اصهل من الدهشة والرعب. ومر في اثناء ذلك اليوم كثير من القطارات، بعضها اشد بطئاً، ثم تقف في المحطة القريبة، وترسل احياناً صريرا مرعبا وانيناً قبل ان تتوقف اصابني الفزع ولكن الابقار واصلت رعيها بهدوء ولم تكن ترفع رؤوسها عندما مر بنا ذلك الشيء الاسود الرهيب ينفث ويجعجع.

لم اكن في الايام الاولى انعم بهدوء، ولكني عندما وجدت ان ذلك المخلوق الفظيع لم يأت الى الحقل ولم يؤذني بشيء، صرت لا اكترث به. ولم أعد اهتم بقطار عابر الا قليلا كما تفعل الابقار والاغنام.

ومنذ ذلك الحين رأيت كثيرا من الخيل ترتعب جافلة وتشب لدى رؤية او سماع قاطرة بخارية. ولكن بفضل رعاية صاحبي صرت لا اخشى شيئا في محطات القطار كأنني في اصطبلي الخاص. فاذا اراد احد ان يروض حصانا فتيا، تلك هي الطريقة الفضلى.

وكان صاحبي غالبا ما يسوقني في عدة مزدوجة مع امي لانها كانت رابطة الجأش، ثابتة، وتستطيع ان تعلمني السير

افضل مما يفعل حصان غريب. وقالت لي انني كلما احسنت التصرف، تلقيت معاملة افضل، ومن الحكمة ان ابذل قصارى جهدي لارضاء صاحبي.

واردفت قائلة: ولكن الرجال انواع كثيرة فمنهم الطيب، الذي يراعي مشاعر الآخرين مثل صاحبنا، فيعتز اي جواد بخدمته، ومنهم الرجل السيء، القاسي، الذي ينبغي له الا يمتلك حصاناً او كلباً خاصاً به. وثمة، فضلا عن ذلك رجال حمقى، جهلاء، مزهوون، طائشون، لا يكلفون انفسهم عناء التفكير يؤدون الى تدمير خيول اكثر من غيرهم لقلة احساسهم. وهم لا يقصدون ذلك، انما يلقون الامور على عواهنها واتمنى لك ان تقع في ايد طيبة، غير ان الحصان لا يعرف مطلقاً من يبتاعه او من يسوقه. فامرنا متروك للمصادفة المحض، بيد انني اكرر قولي: ابذل قصارى جهدك اينما كنت، وحافظ على سمعتك الطيبة.

٤
متنزه بيرتويك

اعتدت في هذا الوقت المكوث في الاصطبل. وكانوا يحسّون جلدي كل يوم حتى غدا لامعا كجنح الغراب. وجاء في اوائل آيار رجل من لدن سكواير كوردن واخذني الى البهو، اي القصر.

وقال صاحبي: «وداعا يا اسيود. كن حصانا طيبا، وابذل دائما قصارى جهدك»... ولم استطع ان اقول.. وداعا».. لذلك وضعت خطمي (انفي) في يده. فربتني بحنان. وتركت منزلي الاول.

وبما انني عشت بضع سنوات لدى سكواير كوردن، فينبغي لي ان اقول شيئا عن ذلك المكان.

كان متنزه كوردن يتاخم قرية بيرتويك. ويدخل اليه من باب حديد واسع يقوم المأوى الاول قربه، ثم تعدو خببا على طريق ممهدة بين اجام من الاشجار الكبيرة العتيقة، ثم تبلغ مأوى آخر وبابا ثانيا يفضي بك الى الدار والحدائق، ويقع وراءها حقل ترويض الجياد والبستان القديم والاصطبلات. وتتوافر اسباب الراحة لكثير من الخيول وعرباتها، ولكنني ساقتصر على وصف الاصطبل الذي اقيم فيه. فهو فسيح فيه اربعة مرابط جيدة. وينفتح شباك محوري دوار على الفناء، مما جعل المكان لطيفاً، جيد التهوية.

كان المربط الاول مربعا واسعا، يوصد بباب خشبي. وكانت المرابط الاخرى اعتيادية وجيدة ولكنها لا تضاهي المربط الاول في اتساعها. فيه معلف واطيء للتبن ومذود واطيء ايضا للحبوب. وكان يطلق على هذا المربط اسم الحظيرة الطليقة لان الحصان الذي يوضع فيها لا يقيد، بل يترك طليقا يفعل مايشاء. انه لشيء عظيم ان يكون الحصان

في حظيرة طليقة.

وضعني السائس في هذه الحظيرة الفاخرة. كانت نظيفة وجميلة وجيدة التهوية. لم ار حظيرة افضل منها، ولم تكن جوانبها عالية، فكان بوسعي ان ارى كل مايجري من خلال السياج الحديدي الذي في الاعلى.

وقدم لي هرطمان ممتازا، وربتني بلطف وحادثني بحنان ثم ذهب.

وعندما اكلت الهرطمان، تلفت حولي. ورأيت في المربط المجاور مهرا رماديا صغيرا مكتنزا، له عرف وذيل كثيفان، جميل الرأس، مستدق الخطم.

رفعت رأسي الى السياج الحديدي في اعلى حظيرتي وقلت: كيف حالك؟ وما اسمك؟

فاستدار بقدر ماسمح له العنان ورفع راسه وقال: اسمي رشيق..، وانا وسيم جدا. احمل السيدات الشابات على صهوتي، واخرج احيانا بسيدة البيت في عربة واطئة ذات عجلتين. وهم يولونني اهتماما بالغا وكذلك يفعل جيمز. هل ستعيش الى جواري في هذه الحظيرة؟

فقلت: نعم

فقال: حسنا اذن، اتمنى ان تكون دمث الطباع. فاني لا احب من جيراني احدا يعض.

وفي تلك اللحظة، تطلع رأس فرس من فوق الحظيرة

البعيدة. وقد مالت الاذنان الى الخلق وبان سوء الخلف في العينين كانت المتطلعة فرسا بنية ذات رقبة طويلة رشيقة.

تطلعت الى من فوق المهر وقالت: هذا انت اذن من طردني من حظيرتي. امر غريب على مهر مثلك يأتي ويطرد سيدة من مكانها الخاص.

فقلت: استميحك عذرا. انا لم اطرد احدا. الرجل الذي أتى بي وضعني هنا، ولا يد لي في ذلك. اما كوني مهرا فاني قد اكملت الرابعة واصبحت جوادا بالغا. وانا لم اخاصم حصانا او فرسا لحد الآن واتمنى ان اعيش بسلام فقالت: حسنا، سوف نرى. وانا طبعا، لا اريد ان اتشاجر مع شخص صغير مثلك.

ولم اقل شيئا. وعندما خرجت عصر ذلك اليوم، اخبرني «رشيق» بكل شيء عنها.

فقال: حقيقة الامر ان «شهباء» تعض وتنهش. وعندما كانت في الحظيرة، اعتادت ان تنهش كثيرا. وفي يوم من الايام، عضت جيمز في ذراعه وادمته، وكذلك الانسة فلورا والآنسة جسي اللتين صارتا تخشيان دخول الاصطبل. وهما مغرمتان بي. وقد اعتادتا ان تجلبا لي اشياء طيب أكلها. تفاحة مثلا او جزرة او قطعة خبز، ولكنهما لم تجرؤا على الاقتراب عندما حلت «شهباء» في تلك الحظيرة فافتقدتهما كثيرا. واني وطيد الامل انهما ستعودان الي مرة اخرى، اذا

كنت لا تعض ولا تنهش.

فقلت له انـي لا اعض شيئـا سوى العـشب والتبن والحبوب، ولا استطيع ان افهم مدى البهجة التي تجدها «شهباء» في ذلك.

فقال رشيق: انا لا اظن انها تجد في ذلك بهجة، بل هي مجرد عادة سيئة وهي تقول انها لا تجد احدا لطيفا معها فلماذا اذن لا تعض؟ وتلك عادة بغيضة بطبيعة الحال. وانا على يقـين ان كان كل ماتقـول صحيحاً، فانها قد اسيئت معاملتها قبل مجيئها الى هنا. ويحاول جون ان يفعل كل مابـوسعه من اجل ادخال المسرة الى نفسها. وكذلك يفعل جيمز، وصاحبها لا يستعمل السوط اذا ما تصرف الحصان تصرفا حسنا. لذا فاني ارى انها ستكون حسنة الطباع ها هنـا. وها انت ترى اني في الثانية عشرة من عمري، واني اعرف كثيرا، وبوسعي ان اقول لك ان لا مكان افضل للخيل في البلاد قاطبة. من هذا المكان وان جون افضل سائس على قيد الوجود حل هنا منذ اربعة عشر عاما. ولن ترى غلاما اشد رآفة من جيمز، فهي اذن غلطة «شهباء» في عدم مكوثها في تلك الحظيرة.

٥
بداية حسنة

اسم الحوذي جون مانلي. وله زوجة وطفل صغير واحد. وهم يعيشون في كوخ مخصص لهم قريب الى الاصطبلات. اخذني في صباح اليوم التالي الى الفناء وساسني وعني بي خير عناية. وحالما عدت الى حظيرتي بجلدي الناعم البراق، جاء صاحب الضيعة ليلقي نظرة عليّ، وبدا عليه الانشراح.

وقال: جون، نويت ان اجرب الحصان الجديد صباح هذا اليوم، غير اني شغلت بامر اخر. يمكنك الخروج به بعد الافطار. واذهب الى الساحة العامة والغابة العليا ثم عد مارا بالطاحونة المائية والنهر. وسترى بذلك سرعته في السير والعدو.

فقال جون: سافعل ذلك، سيدي. «ثم جاء بعد الافطار وشد اللجام وكان دقيقا في وضع السيور ونزعها مما يلائم رأسي بشكل مريح، ثم جلب السرج ولم يكن عريضا بما يناسب ظهري. فادرك ذلك في الحال وذهب يستبدله بآخر انسب منه. فركب وسار بي الهوينى، ثم خببا، ثم حضرا وعندما بلغنا الساحة العامة مسني مساً خفيفاً بسوط فانطلقت هذبا.

ثم قال وهو يسحب اللجام: اي يا ولدي! اتريد ان تلحق

بكلاب الصيد؟

ولما عدنا مخترقين المتنزه لاقينا السيد كوردن وزوجته يتمشيان. وتوقفا للحديث، فنزل جون.

وسأله: كيف كان ياجون سلوكه؟

فاجـاب جوان: من الطراز الاول ياسيـدي. جريء مفعم بالحيوية. توجهه اخف لمسة من العنان. صادفنا في طرف الساحة العامة احدى عربات السفر مثقلة بالسلال والبسط ومـا شاكلها. وانت تعلم ياسيدي ان كثيراً من الجياد لن تجتاز مثل هذه العربات بهدوء ولكنه القى عليها نظرة ثاقبة ثم مر بها بكل هدوء وراحة. وكانوا يصيدون الارانب قرب الغابة العليا، واطلقت بندقية قريبة فجمح قليلا ثم تطلع ولم يحد عن سبيله خطوة يميناً او شمالاً. ولم افعل شيئا سوى اني مسكت الزمام بقوة وثبات ولم اتعجله، واظن انه لم يكن في طفولته خائفاً او اسيئت معاملته.

فقـال السيد كوردن: هذا شيء حسن. سأجربه بنفسي غداً وجلبت في اليـوم التالي الى صاحبي. وتذكرت نصيحة امي وصـاحبي العجوز الطيب، وحاولت ان اقوم بما يريد مني والفيته فارساً ممتازاً، يقدر مشاعر فرسه ايضا. ولما عاد الى البيت كانت السيدة لدى الباب.

وقالت: حسناً ياعزيزي، كيف وجدته؟

فاجابها: كما قال عنه جون تماماً. بل هو ابدع مخلوق

اود امتطاء صهوته. فماذا نسميه؟

قالت: اتحب اسم «ابنوس» فهو اسود كالابنوس.

قال: لا، ليس ابنوس.

فاقترحت: اتسميه «شحرور» مثل حصان عمك؟

فرد عليها: لا، انه اكثر وسامة من «شحرور» العجوز.

فاجابت: اجل، اجل انه يتمتع بجمال حقيقي، وله وجه يفيض الحسن منه ودماثه الخلق وتشرق عيناه بالذكاء ـ فما رأيك بتسميته» و«الادهم الجميل» فاستحسن اقتراحها قائلا: «الادهم الجميل»؛ اجل، ارى انه اسم بديع. واذا احببته، سيكون اسمه كذلك.

ثم كان كذلك.

وعندما دخل جون الاصطبل، اخبر جيمز ان السيد والسيدة اختارا لي اسما يحمل معنى، وليس اسما مثل مارينكو او بيكاسوس وضحك الاثنان وقال جيمز: لو لم يكن الامر استذكارا للماضي لاسميته «روب روي» لانني لم ار حصانين اكثر شبها منهما.

فقال جون: لا عجب في ذلك. الا تعلم ان «الدوقة» العجوز فرس الفلاح كري هي امهما؟

لم اسمع بذلك قبلا، فقد كان «روب روي» المسكين الذي قتل في حادثة الصيد اخي! ولم اعد يثيرني العجب

للاضطراب الذي اصاب امي كثيرا.

كان جون يبــدو عليــه الفخر والاعتزاز بي. واعتاد ان يرجل عرفي وذيلي ناعمين مثل شعر السيدات. وكان يحادثني كثيرا. وكنت طبعا، لا افهم كل مايقول، ولكني تعلمت شيئا فشيئا ماذا يقصد. وماذا يريد مني ان افعل، وغدوت مغرما به، فقد كان رقيقا ومهذبا ويبدو انه يعرف مشاعر الحصان، وعندما كان ينظفني كان يعرف الاماكن الحساسة والاماكن السريعة التأثر بالدغدغة.

وعنــدما يحسّ رأسي. كان يمر محترسا فوق عيني كأنهما عيناه، ولم يكن يثير فيّ مايكدر طبعي.

امّا جيمز هوارد، صبي الاصطبل، فقد كان رقيقا، لطيفا مثله في تعامله، لذلك كنت انعم في رغد. وثمة رجل آخر يقدم يدا العــون في الاصطبل غير انه لم يكن يعنيه امري وامر «شهباء» كثيرا.

بعد ايام قلائل كان عليّ ان اخرج مع «شهباء» بالعربة. فتسـاءلت في نفسي كيف تسير امورنا معا ولكنها احسنت التصرف، لولا انها ارجعت اذنيها الى الخلف عندما تقدمت نحوها. ادت واجبها بكل امانة واخلاص، وقامت بما عليها خير قيام. ولا ارى زميلا مشاركا في العدة افضل منها. عندما وصلنا الى ربوة، القت بكل ثقلها على الطوق بدلاً من تخفيف سرعتها، وطفقت تسحب صاعدة. كنا متشابهين في جرأتنا في

العمل وكان يغلب على جون ان يكبحنا اكثر مما يحثنا على التسارع. ولم يضطر قط لاستعمال السوط معنا. كانت سرعتنا منسجمة، ووجدت من اليسير مسايرتها في خطوها عند الجري السريع، مما جعل الامر سارا.

وكان ذلك يبهج صاحبنا دائما عندما يتطابق خطونا جيدا، وكذلك يفعل جون. وبعد خروجنا مرتين او ثلاثا توطدت الالفة والود بيننا، مما جعلني اشعر بحريتي كثيراً.

اما «رشيق» فسرعان ما غدونا صديقين حميمين. كان مرحا، مقداماً، طيب الخلق، محبوباً لدى الجميع، وخاصة الانسة جسي والآنسة فلورا، اللتين اعتادتا التنزه عليه في البستان واللعب معه ومع كلبهما الصغير فرسكي «اللعوب».

وكان لدى صاحبنا حصانان اخران يقيمان في اصطبل آخر. احدهما اسمه «صائب» وهو اصهب، قصير القوائم، يستعمل للركوب او لعربات الامتعة. والآخر فرس صيد بني مُسن اسمه سير اوليفر، تجاوز الآن سن العمل، ولكنه كان مفضلاً لدى صاحبنا، فاعطاه حرية التنقل في المتنزه. وكان احيانا يقوم بجر العربات في الضيعة، او ينقل احدى السيدات الفتيات لدى خروجهن مع والدهن، لانه كان رقيقاً، ويمكن ان يعهد اليه بطفل كما يعهد الى «رشيق». وكان الاصهب حصانا قوي البنية، حسن الطباع، وكنا احيانا نتجاذب اطراف الحديث في ميدان التدريب؛ ولكن لم

اكن على علاقة وثيقة به مثل علاقتي بـ(شهباء) التي تقيم معي في لاصطبل نفسه.

٦
الحرية

بلغت غاية السعادة في مكاني الجديد. واذا ما افتقدت شيئا فينبغي الا يظن انني ساخط. فان كل من كانوا يعملون معي طيبين وكنت في اصطبل جيد التهوية واتلقى افضل طعام فماذا ينقصني اذن؟

الحرية! طوال ثلاث سنوات ونصف السنة من حياتي كنت اتمتع بالحرية الكاملة التي يمكن ان اتمناها، ولكنني الآن، اسبوعا بعد اسبوع وشهرا بعد شهر، وسنة بعد سنة دون ادنى ريب لابد ان اظل واقفا في اصطبل ليلا ونهارا الا اذا دعت الحاجة الى طلبي، وعند ذلك يجب ان اكون ثابتا، هادئا مثل اي حصان عجوز امضى عشرين عاما في العمل. سيور هنا وسيور هناك وشكيمة في فمي، وغمامات على عيني، انا لا اشكو الان، لان الامر لابد ان يكون كذلك، وانما اقصد ان اقول ان حصانا فتيا مفعما بالقوة والحيوية والاقدام اعتاد ان يكون في حقل واسع او سهل فسيح حيث بوسعه ان يشمخ براسه ويرفع ذيله ويجري باقصى ما

يستطيع من سرعة، ويدور في المكان ثم يعود ويروح يصهل لرفقائه ـ اقول ان من العسير ان لم يعد يتمتع بشيء يسير من الحرية في عمل ما يشاء. وكنت احيانا اشعر انني مفعم بالحياة والنشاط ان كانت اعمالي اقل من المعتاد، وعندما يخرجني جون لممارسة شيء من التمرين، فانني في الحقيقة لم يكن بوسعي التزام الهدوء. فافعل ما اشاء، كأن اقفز او ارقص او اثب على قائمتي الخلفيتين مرحاً، ولا ريب اني اهجته مرارا وخصوصا في باديء الامر، بيد انه كان دائم الطيبة والصبر.

ويقول... اهدأ، اهدأ ياولدي! انتظر قليلا، وسرعان ما سأطلق لك العنان على الغارب وتزول الدغدغة من ارجلك.. وما ان نخرج من القرية حتى يجعلني اعدو خببا بضعة اميال ثم يمسكني لاعود مرتاحا كالسابق وقد زايلني الضيق، كما يقول. الخيول النشيطة تكون لعوبا، غير مستقرة اذا لم تخرج للتمرين، فيعاقبها بعض السواس. اما جون فلم يفعل ذلك وقد كان يعرف ان ذلك من فرط النشاط.

وهو، فضلا عن ذلك، لديه وسائله في جعل الجياد تفهمه من نبرة صوته او لمسة العنان. واذا كان جادا او شديد العزم فاني كنت اعرف ذلك من صوته، فينفحني ذلك طاقة اضافية اكثر من اي شيء آخر، لانني كنت مولعا به حتى

غاية الوالع.

ولابد ان اقول اننا كنا احيانا نتمتع بحريتنا ساعات قلائل وخصوصا في ايام الاحد الجميلة في فصل الصيف، اذ لم تخرج العربة في ايام الاحد لان الكنيسة لم تكن بعيدة.

ومن حسن المعاملة التي نتلقاها هي ان نطلق في حقل الترويض او في البستان القديمة، حيث كان العشب طريا، لطيف البرودة على ارجلنا، والهواء عذبا، والحرية في عمل مانشاء تبعث البهجة فينا، فنعدو ونستلقي ونتمرغ على ظهورنا، او نقضم العشب اللذيذ برفق. ثم نجد وقتا طيبا لنتجاذب اطراف الحديث ونحن واقفين معا تحت ظل شجرة الكستناء

٧
شهباء

كنت ذات يوم، مع شهباء واقفين في الظل وحيدين وتحدثنا طويلا. ارادت ان تعرف كل شيء عن نشأتي وترويضي، فاخبرتها بذلك.

وقالت: لو اني نشأت كما نشأت انت وتلقيت تربيتك لكنت دمثة الطباع مثلك، ولكنني لا اظن انني سأكون كذلك فسألتها: لماذا؟

فاجابت: لان الأمر معي يختلف تمام الاختلاف. فلم يكن لي من احد، حصانا كان ام انسانا، من يرأف بي، او من اهتم انا من اجل جلب المسرة اليه، لانني اخذت من امي حال فطامي، والقيت مع مجموعة اخرى من الامهار. ولم يكن احد منهم يهتم بي، ولم اهتم باحد منهم. ولم يكن لي صاحب كريم الخلق مثل صاحبك يرعاني ويحادثني ويجلب لي من اطايب الطعام. لم يكن الرجل الموكل برعايتنا يوجه لي كلمة رقيقة طوال حياتي. ولا اقصد انه اساء معاملتي، بل انه لم يفعل لنا شيئا سوى ملاحظ وفرة ما نأكل وايوائنا من العواصف والبرد في أيام الشتاء.

وكان يخترق حقلنا درب للمشاة، وكان الاولاد الكبار الذين يمرون فيه كثيرا ما يرموننا بالحجارة لكي يجعلونا نعدو. ولكنني لم يصبني يوما شيء، غير ان احد الامهار الفتية جرح جرحا خطيرا في وجهه، واظنه سيخلف ندبة دائمة مدى الحياة، ولم نكن نأبه باولئك الصبيان، ولكن امرهم دفعنا ان نكون اكثر وحشية، وقررنا في انفسنا ان الصبيان اعداؤنا.

وكان يطيب لنا ان نلهو في المروج الطلقة الفسيحة، ونعدو فيها ذهابا وايابا من اقصاها الى ادناها يطارد بعضنا بعضا، حول الحقل، ثم نروح ونقف صافنين

تحت ظلال الاشجار. وعندما حان موعد الترويض، كان وقتاً عصيبا بالنسبة اليّ .

قدم بعض الرجال ليمسكوني وعندما اطبقوا اخيرا عليّ في احـدى زوايـا الحقـل، امسـك بي احدهم من ناصيتي، وآخـر من انفي وشـدو قبضته عليّ فلم اكد استـطيع التنفس. وأخذني آخر من تحت الحنك بيده القوية ولوى فمي وفتحه ووضع الشكيمة فيه وشد اللجام.

ثم قادني رجل باللجام وساطني آخر. من الخلف . وكـانت تجـربتي الاولى التي اتلقاها من لطف الرجال وعطفهم . كل شيء بالقوة، ولم يعطوني فرصة كي اعرف ماذا يريـدون. كنت كريمـة المحتـد، مقـدامة، فثارت ثائـرتي، دون ادنى ريب، واحسب اني جشمتهم عناء كبيرا. ولكن كان من الرهيب ان ابقى حبيسة في حظيرة يوما بعد يوم بدلا من التمتع بحريتي، فاصابني القلق والنحول واردت ان يطلق سراحي.

وانت تعلم ان من الخير ان يكون للمرء صاحب ذو حنان ولطف كثير غير اني كنت محرومة من هذا الشيء.

كان صاحبنـا، مستر رايد، رجلا عجوزا، وكان من الممكن ان يخرج بي ويعيدني الى سابق عهدي وبوسعه ان يفعل اي شيء من اجلي، غير انه اسلم المهمة العسيرة

كلها الى ولده والى رجل آخر خبير، لم يكن يأتيني إلا لماما. كان ابنه رجلا قويا، طويلا ، وجريئا ، يطلقون عليه اسم سمســون الذي اعتاد الى يتباهى انه لم يجد حصانا استطاع ان يلقيه من ظهره. كان يخلو من الرقة، التي يتحلى بها ابوه، ولم يكن فيه سوى القسوة والصلابة - في الصــوت والعــين واليد. شعرت منذ البداية ان ما كان يريــده هو استئصــال روح الشجــاعــة والعــزم مني، ويحيلني مجرد فرس ركوب هادئة، ذليلة، مطيعة.

فرس ركوب! اجل هو كل ما كان يدور في خلده.

وضربت شهبــاء الارض برجلها، كأن مجرد التفكير به اغضبها. وواصلت قولها: وان لم افعل مايريد بالضبط، فانــه يخــرجني ويجعلني اجري حول ميدان التدريب والعنان في رأسي حتى يأخذ مني التعب مأخذه وإظن انه كان يشرب كثــيرا. واني لعــلى يقين انه كلما تمادي في الشرب، اساء اليّ كثيراً.

ذات يوم، ارهقني بالعمل بكل ما استطاع الى ذلك سبيلاً، وعند استلقيت كنت منهكة، بائسة، غاضبة. فقد بدا الامــر لا يطاق. وجاء في صباح اليوم التالي مبكرا، واركضني حول الحلبــة طويــلا، ولم اكد ارتاح ساعة، حتى جاء كرَّة اخــرى يحمل سرجا ولجاما وشكيمة من نوع جديد.

وعندما كنت استذكر الامر، لم اكن اعرف كيف حدث فما ان امتطى صهوتي في ميدان التدريب، حتى اخرجه شيء عن طوره فشد العنان وكبحني، وكانت الشكيمة الجديدة مؤلمة فشببت بغتة، مما زاد في غيضه، وراح يسوطني. وشعرت بنفسي تتحداه، فشرعت ارفس واثب واشب كما لم افعل من قبل، وصرنا في معركة حامية.

التصق بالسرج طويلا.. وعاقبني بقسوة بسوطه والمهمازين ففارت دمائي، ولم يعد يهمني شيء مما يفعل سوى انني كنت اود القاءه عني.

واخيرا، وبعد صراع رهيب، طرحته الى الخلف وسمعته يقع ثقيلا على الارض، وجريت سريعا، دون ان انظر خلفي، الى الطرف الآخر من الحقل. فاستدرت ورأيت مضطهدي ينهض ببطء من الارض ويدخل الاصطبل. وقفت تحت شجرة بلوط ورحت اراقب ولكن لم يأت احد ليمسكني ويعيدني.

ومضى الوقت واشتدت حرارة الشمس وتكاثرت أسراب الذباب حولي وحطت حولي على خاصرتي النازفتين حيث اخترقهما المهمازان. وشعرت بالجوع لانني لم اذق شيئا منذ الصباح الباكر، ولكن لم يكن في المرج من العشب ما يكفي اوزة واحدة. واردت ان استلقي وارتاح ولكن السرج المشدود بالسيور يمنع الراحة، ولم تكن ثمة قطرة

وانقضى العصر ثقيلا، ومالت الشمس. ورأيت أمهارا اخرى تقاد وعرفت انها ستطعم جيدا.

واخيرا، عندما غربت الشمس، رأيت صاحبنا العجوز يخرج وبيده منخل، كان رجلا ابيض الشعر، لطيفا، وكنت اعرفه من صوته بين الف. فلم يكن عاليا ولا خافتا، وانما ممتلئا، صافيا، حنونا، وكان، عندما يصدر امره، راسخاً عازماً فيعرف الجميع، خيلا وبشراً، انه مطاع. اقبل يمشي الهوينى، ويهز الهرطمان في الغربال بين حين وآخر، وهو يكلمني برقة وبهجة.

«هيا يافتاتي، تعالي يا حبيبتي الصغيرة. هيا، هيا تعالى!» وظللت واقفة لا اريم، فجاء اليّ. وقدم لي الهرطمان وبدأت اكل دون خوف، فقد ازال صوته عني كل خوف. ووقف بجانبي وطفق يربتني ويمسدني وانا آكل. ولما رأى الدم المتخثر على جنبي اغتاظ كثيرا. وقال: «يافتاتي المسكينة! انه عمل سيء، عمل بغيض!» ثم تناول العنان بلطف وقادني الى الاصطبل. وكان سمسون واقفا لدى الباب. فالقيت اذني الى الخلف وحاولت نهشه، فقال ابوه: ارجع! وابعد عن طريقها. لقد اقترفت اليوم عملا بغيضا بحق هذه المهرة وراح يتذمر من هذا الفعل الشرس وقال اسمع ياهذا! من كان سيء الطبع لن يصنع

حصانا حصانا دمث الخلق. انت لم تتقن صنعتك بعد، ياسمسون.

ثم قادني الى حظيرتي، وخلع السرج واللجام بيديه، وربطني. وطلب دلوا من ماء دافئ واسفنجة. وخلع معطفه، وبينما كان عامل الاصطبل يرفع الدلو له، راح يمسح جنبي بالاسفنجة فترة طيبة وبحنان كثير ايقنت انه عرف مدى الالم والكدمات التي اصبت بها، وقال: «قفي يا حسناني! اهدئي وقفي ساكنة!» واشاع صوته الاطمئنان في نفسي، وكان الاستحمام مريحا تمام الراحة.

كان الجلد ممزقا عند زاويتي فمي، فلم يكن بوسعي اكل التبن والمني القش. وامعن النظر فيه وهز رأسه أسفا وطلب من الرجل ان يجلب لي جريش حنطة جيد ويخلطه بشيء من النخالة والدقيق. ما اطيب ذلك الجريش! كان ناعما وشافياً لفمي. وظل واقفا الى جانبي، طالما كنت اتناول طعامي، يمسدني ويتحدث الى الرجل. وقال: اذا لم يكن في الوسع ترويض مثل هذه المخلوقة الراقية الخلق بطريقة حسنة، فانها لن تكون صالحة لاي شيء.

وصار بعد ذلك يكثر المجيء لرؤيتي، وعندما شفي فمي، قام المروض الآخر المدعو أيوب بمواصلة ترويضي.

كان رصينـا، هادئا، يراعي مشاعر الآخرين. وسرعان ماتعملت مايريد.

٨
تتمة قصة شهباء

عندما التقيت شهباء مرة اخرى في ميدان التدريب اخبرتني من مكانها الاول.

قالت: بعـد ترويضي اشتـراني تاجر لاكون شريكه حصان كستنائي وراح يسوقنا. معا بضعة اسابيع، ثم باعنا الى رجل ممن يحرص على الزي السائد وارسلنا الى لندن. وضعنا في لجام مشترك، وكنت اكره ذلك اكثر من اي شيء آخر، غير انه شدد على لجامنا معا، فقد اعتقد الحـوذي وسيـده اننـا كنـا بذلك نبدو اقرب الى الزي الحديث . وغالبا ماكنا نخرج في المتنزه واماكن حديثة اخرى. انت الذي لم تضع اللجام المشترك قط، لا تعرف ماهو، ولكنني اقول لك انه رهيب. فانا احب ان اهز رأسي، وارفعه عاليا شأن اي حصان، ولكن تصور نفسك الآن، اذا هززت رأسك عالياً وكنت مجبراً على ابقائه في محله ساعـات طويلة مع حصان اخر غير قادر على تحريكه مطلقـاً الا بهزة اعنف ولكنها مكبوحة فان عنقك تؤلمك

حتى لا تدري كيف تتحمل ذلك. وفضلا عن ذلك، توضع في فمك شكيمتان بدلا من واحدة. وكانت شكيمتي حادة، تؤلم لساني وفكي، ويصبغ الدم من لساني الزبد المتطاير من شفتي، وهو يحتك ويتقرح من الشكيمتين واللجام. والانكى من ذلك الوقوف ساعات بانتظار سيدتنا في حفلة انس بهيج او تسلية. واذا ما اغتظت او ضربت الارض بارجلي متضايقة فان السوط ينهال علي. وذلك مما يدفع الشخص الى الجنون.

فقلت لها: الم يفكر بك سيدك؟

اجابتني: لا، لم يكن يهمه سوى امتلاك عربة وجيادها على اخر طراز، كما يطلقون عليها. واظن انه لايعرف الا قليلاً عن الخيل. فترك الامر لحوذيه الذي اخبره انني حادة المزاج سريعة الانفعال. وانني لم اروض جيدا للجام مزدوج، وانني سرعان ما ساعتاده ولكن لم يكن الرجل الذي سيفعل ذلك، لانني عندما اكون في الاصطبل بائسة، شقية، غاضبة، فانني لااتلقى منه سوى الكلمات الفظة والضرب بدلا من التخفيف عني وتهدئتي بلطفه وعطفه. فلو كان رقيقاً مهذباً لحاولت احتمال الامر. فقد كنت راغبة في العمل ومستعدة لبذل جهدي في الاعمال الشاقة ايضاً، اما ان اتلقى العذاب لمجرد خيالات تافهة، فان ذلك يغضبني. فبأي حق

يجعلونني اقاسي مثل هذا العذاب؟ وفضلاً عن الوجع في فمي والالم في رقبتي فاني اشعر بالضيق في المجاري التنفسية، واذا مكثت هناك مدة اطول فان تنفسي يزداد سوء، ولهذا غدوت اقل راحة واكثر انفعالا وانزعاجا، فلا مفر لي من ذلك. وصرت انهش وارفس كل من يأتي اليَّ لشدة الغدة واللجام، ولذلك فان السائس يضربني. وفي يوم من الايام، عندما ربطونا الى العربة وراحوا يشدون العنان في رآسي، اخذت اشب وآرفس بكل مالدي من قوة، فقطعت الاعنة والعدة، وقاومت كثيراً حتى كان اخر عهدي في ذلك المكان.

وبعد ذلك ارسلت للبيع في تارترسول. ولم ابرّأ طبعاً من العيوب، غير ان وسامة مظهري وسيري الرشيق جلبا انتباه رجل فتقدم ليدفع ثمني وهكذا اشتراني تاجر اخر. وجرب معي كل صنوف المعاملة ومختلف الشكائم وما لبث ان وجد ما كان بوسعي تحمله. وصار اخيراً يسوقني دونما ان يشدني مع غيري، ثم باعني باعتباري فرساً هادئة الى رجل في الريف. كان شخصاً طيباً، وسارت اموري على مايرام، بيد ان سائسه العجوز تركه وحل سائس جديد محله. كان هذا الرجل عصبي المزاج قاسيا مثل سمسون. كان يتكلم دائما بصوت خشن، نافد الصبر وان لم اتحرك في حظيرتي حالما يطلبني، فانه

يضربني فوق عراقيبي بمكنسة الاصطبل او بالمذراة او اي شيء يقع في يده. كل ماكان يقوم به، يتسم بالخشونة، وسرعان ماكرهته كان يريد ان يبث الخوف في نفسي ولكن كانت معنويتي قوية وهمتي عالية. وجاء ذات يوم ليثير غضبي اكثر مما اعتاد ان يفعل فعضضته، مما ادى، بطبيعة الحال، الى اتقاد غيظه وطفق يضربني على رأسي بالسوط. ولم يجرؤ بعد ذلك ان يدخل حظيرتي مرة اخرى. فقد كانت حوافري واسناني متاهبة له، وهو يعرف ذلك، ولكنني كنت شديدة الهدوء مع صاحبي غير انه كان يستمع طبعا الى مايقول الرجل له، فجرى بيعي مرة اخرى.

وسمع التاجر نفسه بامري وقال انه يعرف مكانا يليق بي:

«مما يؤسف له ان يسوء الحال بفرس اصيلة مثلها اذ لم تواتها فرصة جيدة حقا.» وانتهى الامر بمجييء الى هنا قبل وقت قصير من مجيئك، ولكنني قررت في فكري واصدرت حكمي على ان الرجال هم اعدائي الطبيعيون، وعليّ ان ادافع عن نفسي. ولكن الامر ههنا يختلف بطبيعة الحال، ومن يعلم كم سيطول الوضع؟ ليتني استطيع ان افكر بالامور كما تفعل، ولكن ذلك ليس في طوقي بعد ان عانيت ما عانيت.

فقلت لها: ولكن من الخزي حقاً ان تعضي او ترفسي جون أو جيمز:

فاجابت: انا لاانوي فعل ذلك، مادامـا طيبين معي. عضضت جيمز فعلا عضة قوية، ولكن جون قال له «عاملها بالحسنى. وبدلاً من ان يعاقبني جيمز كما توقعت منه، جاءني وذراعه ملفوفة وجلب لي جريشا وراح يمسدني. ولم انهشه منذ ذلك الحين، ولن افعل ابداً.»

اسفت على «شهباء». وقد كنت قليل المعرفة انذاك، وكنت اظن انها مشاكسة وانها تسيء التصرف. وعلى اية حال. وجدت انها كلما مرت الايام ازدادت رقة ومرحا. وغابت النظرة الحذرة المتحدبة التي تقابل بها كل شخص غريب يقترب منها. وقال جيمز ذات يوم: اعتقد ان تلك المهرة صارت تودني. فقد صهلت ورائي بعدما مسحت لها جبينها.

فقالت جون: اي، نعم ياجيم، ان ذلك بفعل حبوب بيرتوبك. ستكون طيبة مثل الادهم الجميل تدريجا. العطف والحنان هو كل ماتحتاج اليه من علاج، هذه الفرس المسكينة!

ولاحظ صاحبنا مدى التغير فيها ايضا، ونزل يوما من العربة وجاء يكلمنا كما كان يفعل في غالب الاحيان. ومسد عنقها الجميلة.

وقال: حسن ياحسنائي، حسن! كيف تجري امورك الآن؟ اراك اكثر سعادة مما جئت الينا.

ورفعت خطمها اليه بطريقة تنم عن الود والثقة. في الوقت الذي راح يمسده بلطف وقال: سنشفيها ياجون.

فأجاب جون: اجل سيدي، فقد كان تحسنها رائعا، ولم تعد ذلك المخلوق الذي عهدنا، انها حبوب بيرتويك، ياسيدي..

وهي نكتة صغيرة من نكات جون التي اعتاد ان يطلقها عن دورة منتظمة من حبوب خيل بيرتويك التي يمكن ان تشفي اي فرس شموس. قال ان هذه الحبوب تتكون من الصبر والملاطفة والحزم والرقة. تخلط واحدة منها بشيء من الذوق السليم وتقدم الى الفرس كل يوم.

٩
رشيق

كان للسيد باومفيلد القس عائلة كبيرة من البنين والبنات. اعتادوا احيانا ان يأتوا ولعبوا مع الآنسة جسي والآنسة فلورا. كانت احدى البنات بعمر الآنسة جسي. وولدان اكبر منها، اما الآخرون فصغار. كان «رشيق» ينهمك بعمل كثير عندما يأتون لانهم لا يسرهم شي مثل

ركـوبــه بالتنـاوب ويـدورون عليه في البستان وميدان التدريب. ويظلون يفعلون ذلك ساعات.

في عصر احد الايام، خرجوا به مدة طويلة. وعندما جاء به جيمز والبسه اللجام قال له: ياهذا ايها الحرون، تذكر ان تكون لطيفا، مؤدبا، والا سببت لنا المتاعب.

فسألته: وماذا كنت تفعل يارشيق؟!.

فاجـاب وهـو يهز رأسه الصغير: اوه! لم اكن افعل شيئا سوى تلقين هؤلاء الصغار درسا. فهم لا يعرفون متى يكتفـون ولايقـدرون انني تعبت فاقـذف به الى الخلف! وهذا هو الشيء الوحيد الذي يفهمون.

فقلت له: ماذا؟ اتلقي بالاطفـال؟ ظننت انـك تفعل افضل من ذلك! وهل القيت الانسة جسي او الانسة فلورا؟

فبدا مغتاظا وقال: لم افعل ذلك طبعا،. ولن اقوم بمثل هذا الشيء من أجـل الهرطمان الجيد الذي يقوم لي في الاصطبل. فانا حريص على الانسات الصغيرات شأن صاحبنـا، اما بالنسبة الى الصغار، فانا الذي اعلمهم الركوب. واذا ماخافوا او لم يستقروا على ظهري فاني اسير وئيدا هادئا مثل القطة العجوز التي تقتفي طيرا. واذا ماكانوا على مايرام، فاني اواصل سيري اسرع، لكي اعودهم على ذلك. فلا تكلف نفسك عناء موعظتي، لاني

خير صديق وخير مايمتطي هؤلاء الاطفال. ليس هؤلاء الصغـار، بل الاولاد. الاولاد ـ قال ذلك ونفض عرفه ـ يخـتـلفـون عنهم تمـام الاختـلاف. هم الذين يجب ترويضهم، كما روضونا عندما كنا امهارا ويتعلمون الاصول.

ركب الصغـار قرابـة ساعتـين، واعتقد الاولاد ان نوبتهم جاءت للركـوب، وهـذا ماحصل. وكنت راضيا. وركبـوا بالتنـاوب وجـريت بهم من ادنى الحقـول الى اقصاها ودرت بهم في البستان ساعة بكاملها واقتطع كل منهم عصـا غليـظة من شجـرة البنـدق بدل السـوط، وضربـوني بقسـوة ولكنني تغـاضيت عن ذلك وتقبلتـه برحـابـة صدر، حتى رأيت اخيرا اننا اكتفينا فتوقفت مرتـين او ثلاثـا تلميحـا لهم. ولكن الاولاد كما تعرف، يعتقدون الحصان او المهر مثل قاطرة بخارية او ماكنة لدراسة الحنطة يمكنها ان تسير الى مايشاءون وبالسرعة التي يرغبون. ولا يفكرون مطلقا ان المهر يمكن ان يتعب او ان له اية مشاعر. ولهذا فان الولد الذي يضربني ولا يفهم ذلك، كنت اشب على قائمتي الخلفيتـين واجعله ينزلق الى الخلف ـ وهذا كل ما في الامر. فيعود الى الركوب مرة اخرى، واكرر به الامر نفسه. ثم يركب الولد الآخر، وحـالما يبدأ باستعمال عصاه، كنت القيه على العشب،

وهكـذا حتى صاروا قادرين على الفهم، وهذا كل مافي الامر. انهم ليسوا اولادا سيئين ولا يريدون ان يكونوا قساة. وانا احبهم كثيرا، ولكن، كما تعلم، يجب ان القنهم درسا. وعندما جلبوني الى جيمز واخبروه اظنه غضب لما رأى مثـل تلك العصي الغليظة. وقال انها لا تصلح الا لتجار الماشية او الغجر، وليس للصغار المهذبين.

فقـالت شـهبـاء: لو كنت في مكـانـك لرفست اولئك الصغار رفسة ممتازة، وبهذا القنهم درسا.

فقال «رشيق»: لا ريب انك تفعلين ذلك، ولكنني لست بهذه الحماقة، وارجو منك المعذرة فاثير غضب صاحبنا او احـرج جيمز واخجله. وفضلا عن ذلك، فان هؤلاء الاطفال تحت مسؤوليتي عندما يركبون. اقول لك انهم في عهـدتي. وقد سمعت قبل اول امس صاحبنا يقول للسيـدة بلومفيلد: «سيـدتي العزيزة، لا تقلقي بشأن الاطفـال. سيلقون رعاية من رشيق كما يلقون منك او مني. واوكد لك انني لن ابيع ذلك المهر باي ثمن، فهو دمث الطباع جدير بالثقة.» فهل تظنين انني بهيمة ناكر للجميل انسى طيب المعاملة التي تلقيتها هنا طوال خمس سنوات، والثقة التي اولوني، فانقلب شرسا لان اثنين من جهلة الاولاد اساءوا معاملتي! كلا، ثم كلا! فلن يطيب لك مقام حيثما تلقيت الرفق. وانت لا تعلمين، واني آسف

عليك، ولكن بوسعي ان اخبرك: ان الامكنة الطيبة تصنع الخيل الطيبة. انا لن اكدر اهلنا مهما كان السبب. فاني احبهم، اجل احبهم - قال رشيق ذلك، واطلق صوتا واطئا «هـو، هو، هو... من انفه كما يفعل عند الصباح لدى سماع وقع اقدام جيمز قرب الباب.

وواصل قوله: واني اذا اعتدت الرفس، فاين اكون؟ وما مصيري؟ ساباع فورا وافقد سمعتي ولعلي اجد نفسي مستعبدا لدى صبي جزار، او اشتغل حتى الموت في مكان على ساحل البحر حيث لا يأبه بي احد ولا يهمه من امري شيء سوى انه يود ان يعرف مدى سرعتي، او ان اضرب بالسياط لاجر عربة تقل ثلاثة رجال او اربعة ضخاما خارجين يوم الاحد الى وليمة شرب صاخبة، كما رأيت منهم في المكان الذي عشت فيه قبل قدومي الى هنا وقال وهو يهز رأسه: كلا، ارجو الا ابلغ ذلك الوضع.

١٠
حديث في البستان

لم نكن انا وشهباء من نسل خيول جر العربات الطويلة، بل كانت تجري في عروقنا دماء السباق. فارتفاعنا يبلغ خمس عشرة قبضة ونصف القبضة. لذلك

كنا نصلح للركوب كما نصلح لقيادة العربات. واعتاد صاحبنا ان يقول انه يمقت كلا من الانسان والحيوان الذي لايسعه الا القيام بعمل واحد، وبما انه لم يكن يريد الاستعراض في متنزهات لندن، فانه كان يفضل حصانا من النوع النشيط النافع.

اما نحن فقد كانت بهجتنا العظمى عندما نسرج للذهاب الى نزهة، صاحبنا على شهباء والسيدة علي والآنسات الصغيرات على سير اوليفر وعلى رشيق. ومن دواعي مسرتنا ان نعدو معا خببا وحضرا فيبث في انفسنا النشوة الغامرة. وكان لي من ذلك النصيب الاوفر لانني احمل السيدة دائما. كانت خفيفة الوزن حلوة الصوت رقيقة اليد على العنان.

الا ليت الناس يعلمون مدى الراحة التي تبعثها اليد الرقيقة في الخيل، والى اي مدى تحفظ الافواه طيبة والامزجة معتدلة، فلن يعودوا يكبحونها او يرخون الاعنة او يسحبونها، كما كانوا في الغالب يفعلون. فتكون افواهنا بالغة الحساسية في المواضع التي لم تفسدها سوء المعاملة او الجهل او تحيلها صلبة، فتشعر باوهى حركة من يد السائق، ونعرف على الفور ما يطلب منا. فمي لم يصبه التلف قط، واحسب ان ذلك سبب تفضيل السيدة لي على شسهباء، بالرغم من ان خطاها لا ريب

تضــاهي خطاي في براعتها. وكثيرا ماكانت تحسدني، وتقــول ان سبب ذلك كله نتيجــة الخــطأ في الترويض والشكيمة التي قيدتها في لندن، فلم يكن فمها صحيحا مثل فمي.

ثم يخــاطبها سير اوليفر بقوله: ياهذه، اسمعي! لا تكـدري نفسك، فانت تحظين، باعظم شرف. لان فرسا تستطيع ان تحمل رجلا طويلا في مثل وزن صاحبنا وهي مفعمة بالحيوية والمرح، لاحاجة بها ان تطاطىء رأسها لانها تحمل السيدة.

علينا نحن معشر الخيل ان نتقبل الامور على ماهي عليه، وان ننعم بالقنــاعــة والرغبــة في العمل عن طيب خاطر مادموا يعاملوننا بالحسنى.

وكثــيرا ما ساءلت نفسي كيف صار ذيل سير اوليفر قصيرا جدا. فقد كان طوله في الحقيقة ست او سبع عقد، تتدلى منه خصلة شعر. في احدى عطلنا التي امضيناها في البستان تجرأت فسألته عن الحادثة التي فقد فيها ذيله، فنخر ورمقني بنظرة ضارية وقال: حادثة! لم تكن حادثة! انما كانت عملا قاسيا، مخزيا متعمدا! عندما كنت فتيــا، اخذوني الى حيث تقترف مثل هذه الافعال القــاسيــة. فربــطوني واوثقــوني بقوة لا استطيع معها حراكا، ثم جاءوا وبتروا ذيلي الطويل الجميل من اللحم

والعظم واخذوه.

فذهلت: ما افظعه!

«فظيع! اجل! فظيع. ولم يكن ذلك الالم وحده بالرغم من انه كان رهيبا ودام مدة طويلة؛ لم يكن الفعل المهين في حرماني ابهى زينتي، بالرغم من كونه كريها، بغيضا، ولكن الامر هو اني كيف يكون بوسعي ان انش الذباب عن جنبي وساقي الخلفيتين بعد ذلك؟ انتم الذين تمتلكون ذيولا تطردون الذباب بخفة دونما ادنى تفكير بذلك، ولا تعرفون العذاب الذي يسببه عندما يحط عليكم ويشبعكم لسعا ولا تمتلكون شيئا تذودونه عنكم. اقول لك انه ضيم يظل مدى العمر، خسارة تدوم مدى الحياة! ولكن حمدا لله لم يعودوا يفعلون ذلك.

فقالت شهباء! ولماذا فعلوا ذلك؟

فقال الحصان المسن وهو يضرب الارض برجله: من اجل الزي السائد! الزي السائد! اذا كنت ماذا يعني ذلك! لم يكن في زماني حصان فتي اصيل لم يحرم من ذنبه بتلك الطريقة المعيبة، كأن الله العلي الحميد الذي سوانا لا يعلم مانريد ولا كيف نبدو في احسن تقويم.

فقالت شهباء! اظن ان الزي ايضا يدفعهم الى ان يلجموا رؤوسنا بتلك الشكائم المروعة التي عذبت بها في لندن فرد عليها قائلا: طبعا، هذا هو الصحيح. وفي رأيي

ان الزي واحد من ابشع الامور في الدنيا. انظري، مثلا، الى طريقتهم في معاملة الكلاب اذ يقطعون اذنابها لتبدو مبتورة حتى توهم بالشجاعة، ويقصوزن اذانها الجميلة الصغيرة يشكل يجعلها حادة. كان لدي ذات مرة صديقة عزيزة، من كلاب الصيد الصغيرة البنية، يطلقون عليها «سكاي». كانت تحبني كثيرا فلم تكن تنام خارج حظيرتي وجعلت منامها تحت المذود، وولدت فيه خمسة جراء صغيرة جميلة، ولم يتخلصوا من اي واحد منها لانها كانت من النوع الثمين. وكانت امهم بهم فرحة! وعندما تفتحت عيونهم راحوا يدبون، وكان منظرهم جميلا حقا، ولكن جاء ذات يوم رجل اخذهم جميعا. وحسبت انه كان يخشى عليهم ان اطأهم، ولكن الامر لم يكن كذلك. ففي المساء عادت بهم امهم «سكاي» تحملهم واحد اثر آخر بفمها، ولم يكونوا اولئك الصغار الجميلين السعيداء، بل كانوا ينزفون دما وهم يصرخون صراخا يفطر القلب. فقد قطعت اذنابهم جميعا، وقصت صواوين آذانهم الصغيرة الجميلة.

وما اكثر ما لعقتهم امهم المسكينة وما اشد همها عليهم! ولم انس ذلك قط. ولكنهم شفوا بمرور الوقت ونسوا الالم، غير ان صواوين اذانهم اللطيفة التي تحمى الاجزاء الحساسة من اذانهم من الاتربة والاذى،

قد صلمت الى الابـد. فلماذا لا يبترون اذان اطفالهم لتبـدو حادة؟ ولمـاذا لا يجـدعون انوفهم لتبدوا عليهم امـارات البسـالة؟ فهـذا الامر مقنع كذلك وبأي حق يعذبون مخلوقات الله ويشوهونها؟

وبـالرغم من كون سير اوليفر، رقيقا فقد كان سريع الغضب وما قاله كان جديدا بالنسبة اليّ ومروعاً فشعرت شعورا مرا تجاه الرجال يمور في نفسي كما لم اعهد ذلك من قبل. كانت شهباء؛ طبعا، شديدة الانفعال، فالقت رأسها الى الوراء بقوة، وعيناها تبعثان شررا، ومنخراها ينفثان غضبا مؤكدة ان بني البشر همج حمقى.

«من ذا الذي يتحدث عن الحمقى؟» قال رشيق الذي جاء توا من شجرة التفاح العتيقة حيث كان يحك نفسه بغصن واطيء من اغصانها «من ذا الذي يتحدث عن الحمقى؟ اعتقد ان هذه من الكلمات الرديئة.

فقـالت له شهبـاء: وجـدت الكلمات السيئة للامور السيئة. ثم حدثته بما قال سير اوليفر.

فقـال رشيق مكتئبـا: هذا شيء صحيح. رأيت ذلك يقتـرف بحق الكلاب مرارا في المكان الاول الذي كنت اقطن فيه. ولكن لن نتحدث عن ذلك في هذا المقام. فانتم تعلمـون ان صاحبنـا وجـون وجيمز طيبون معنا على الدوام، وان الكلام على الناس في مثل هذا المجال يخلو

من الذوق والكيـاسـة وعرفان الجميل. وتعلمون ايضا بوجـود اصحـاب خيـول وسـواس طيبـين فضلا عن جماعتنا، ولكن جماعتنا، افضلهم، طبعا.

كلام رشيق الطيب هذا الذي يتسم بالحكمة والذي نعلم صدقه، اثلج صدورنا، وبخاصة سير اوليفر الذي كان شديـد الولع بصاحبه. ولكي اغير الموضوع قلت: ايمكن ان يخبرني احد فائدة الغمامات؟

فقال سير اوليفر بايجاز: انها غير ذات نفع مهما يكن.

فعقب صائب بطريقتـه الهادئة: يفترض فيها ان تمنع الخيل من الجفول والنفور والارتعاب مما يؤدي الى وقوع الحوادث.

فسألت: لماذا اذن لا يضعونها لخيل الركوب وخصوصا خيل السيدات؟

فقـال بهدوء: ليس ثمة من سبب ابدا سوى اتباع الزي الحـديث فيقـال ان الحصـان يرتعب لدى رؤية عجلات عربته تعدو خلفه فيجري مسرعا، بالرغم من انه اذا كان مركوبا، يراها حوله ان كانت الشوارع مكتظة. واعتـرف انهـا تقتـرب احيانا قربا شديدا لا يبعث في النفس الرضـا، ولكننا لانفر منها، اذ اننا اعتدنا ذلك وفهمناه، واذا لم نلبس غمامات قط فاننا لن نحتاج اليها

ابدا. فنرى كل شيء ونفهم ماهو ونكون اقل خوفا مما نرى جزء من الاشياء التي لا يسعنا فهمها.

قد يوجـد، طبعـا، بعض الخيـول العصبيـة التي اصابها الاذى او الخوف حين كانت صغيرة، ولعل هذا انسب لها، وبما انني لم اكن عصبيا، فانني لا استطيع ان اصدر حكما بهذا الشأن.

قال سير اوليفر: ارى ان الغمامات خطرة في الليل فنحن الخيل بوسعنا ان نرى في الليل افضل من بني الانسان، ولو اتيح للخيل استعمال كامل طاقاتها لعيونها، لما وقع كثير من الحوادث. واتذكر قبل سنوات عربة موتى يجرها حصانان عائدة ذات ليلة وعند بيت الفلاح سپارو، حيث كانت البركة قريبة من الطريق مرت عجلاتها قريبًا من الحافة فانقلبت في الماء. وغرق الحصانان ونجا الحوذي بصعـوبة، فوضعوا بعد هذه الحادثة عارضة حديدية قوية بيضاء يمكن رؤيتها بسهولة، ولولا تلك الغمامات لابتعـدت الخيل بانفسها عن الحافة ولم تقع الحادثة وعندما انقلبت عربة صاحبنا، قبل مجيئك الى هنا، قيل لولم ينـطفـء المصباح على الجبهة اليسرى لرأى جون الحفرة الكبيرة التي تركها عمال الطريق وتلافى الحادث. ولو لم يكن على عيني الحصـان العجوز كولن غمامات لرآها، سواء أكان المصباح أم لم يكن لانه، يعرف كيف

يتجنب الخطر. ولما وقع المحظور اصيب اصابة بالغة، وتحطمت العربة ولا يعلم احد كيف نجا جون.

فقالت شهباء وهي تعقص منخريها: اقول ان من الاولى لهؤلاء الناس العقلاء ان يأمروا ان تولد الامهار في المستقبل وعيونها في وسط جباهها بدلا من الجانبين. فهم يعتقدون دوما ان بوسعهم تطوير الطبيعة واصلاح ماخلق الله.

وعاد الامر مؤلما عندما رفع «رشيق» رأسه الصغير العارف وقال: اقول لكم سرا. فاني ان جون لا يستحسن الغمامات سمعته يتحدث الى صاحبنا عن ذلك يوما. فقال صاحبنا ان الخيل اذا اعتادت استعمالها، فقد يكون من الخطورة في بعض الاحوال تركها، فرد عليه جون انه يعتقد من الخير ترويض جميع الامهار من دون غمامات، كما يحدث في بعض البلدان الاجنبية فلنبتهج ونجري الى الطرف الآخر من البستان. واعتقد ان الريح نفضت بعض التفاح والقته على الارض، ويمكننا ايضا ان نأكله كالبزاقات.

ولم يكن يوسع رشيق ان يعارض، فقطعنا حديثنا واستعدنا نشوتنا بمضغ بعض التفاح الحلو المتناثر على العشب.

١١
كلام صريح



كلما طال عيشي في بيرتويك، ازداد شعوري بالسعادة واعتزازي بمثل هذا المكان. فقد كان سيدنا وسيدتنا يحظيان بالاحترام والمحبة من كل من يعرفهما. كانا طيبين رحيمين بكل انسان وبكل شيء، ليس الرجال والنساء وحدهم، بل الخيل والحمير والكلاب والقطط والماشية والطير ايضا. ليس فيهم مضطهد او من اسيئت معاملته من لم يكن لهم فيهما صديق، وسار خدمهما على نهجهما. واذا علما ان احدا من اطفال القرية اساءوا معاملة اي مخلوق، فانهما سرعان مايسمعان خبر ذلك من البهو. اشتغل صاحب الضيعة والفلاح «كري» معا، كما يقال، اكثر من عشرين سنة للتخلص من استعمال

اللجام المرفوع في خيل العربات وانك لا تراه في منطقتنا الا نادرا، واذا رأت السيدة فرسا مثقلا بالاحمال ورأسه متوترا الى الاعلى وقد حرن فانها توقف العربة وتخرج وتحـاول اقناع صاحبه بصوتها الحلو الجاد، وتبين له مدى الحماقة والقسوة في ذلك.

لا اظن ان بوسع احد ان يقاوم سيدتنا. واتمنى لو كانت جميع السيدات مثلها واعتاد صاحبنا ايضا ان يغضب ويـوبـخ المخـطئـين بعنف. فاني اتذكره راكبا باتجاه البيت ذات صباح، عندما رأينا رجلا قويا يسوق نحـونـا عربـة خفيفة يجرها مهر صغير، جميل، كميت رشيق القوائم، اصيل الوجه والرأس، دقيق الملامح. وما ان وصـل المهـر الصغير الى باب المتنزه حتى استدار نحـوه. ولكن الرجل لوى رأس الحيوان، دونما كلمة او تنبيه، بكل قوة وفجأة فكاد يلقيه على عجزه. ولما استعاد وضعه وواصل سيره صار الرجل يضربه بالسوط ضربا مبـرحا، فجمح المهر منطلقا غير ان اليد القوية الثقيلة كبحت المخلوق الجميل بقوة كادت تحطم فكه، والسوط مازال يهوي عليه شديدا. كان المنظر بالنسبة اليّ رهيبا. لانني اعـرف مدى الالم الفظيع الذي اصاب ذلك الفم الصغير الحسـاس. واوعز لي صاحبي فصرنا الى جواره في الحال.

وصاح بصوت صارم: سوير ! أليس المهر من لحم ودم؟ فقال: من لحم ودم ومزاج. انه يفعل ذلك على حسب هواه وإرادته، وليس على هواي.

قال الرجل ذلك منفعلاً وقد كان بناء ، كثيرا ما يذهب الى المتنزه في امور تخص العمل.

فسـأله صاحبي بعزم وصرامة: وهل تظن ان مثل تلك المعاملة تجعله يحبك؟ فرد الرجل ردا خشنا: لا مصلحة له باتخاذ ذلك السبيل. فقد كان طريقه مستقيما.

فاجابه صاحبي: كثيرا ماجئت تسوق ذلك المهر الى ناحيتي. وهـذا يدل على ذاكـرة هذا الحيـوان وذكائه. فكيف يعرف انك لم تكن ذاهبا الى هناك هذه المرة؟ ولكن لابـأس، ولابـد لي ان اقـول لك يامستر سوير ان تلك المعاملة الوحشية المجردة من الرجولة لمهر صغير يؤلمني ان اشـاهـدهـا. واذا ما استسلمت انت الى مثل هذا المسلك فانك تضر شخصك كما تضر حصانك بل اكثر. تذكـر اننا جميعا سنحاسب على اعمالنا، سواء أكانت تجاه البشر ام البهائم.

وسار صاحبي بي الهوينى، وكان بوسعي ان اعرف كم احزنه ذلك الامر. كان صريحا في حديثه مع الناس من كل الفئـات. صادفنـا يوم آخر النقيب لانكلي وهو من اصدقاء صاحبي. كان يسوق زوجين اثنين من الجياد

الرمـاديـة في عربـة مكشوفة ذات اربع عجلات. وبعد حديث قصـير سأل النقيب: مارأيـك سيدي. بجيادي الجديدة؟ انت تعلم، انك الحكم في امور الخيل في هذه النواحي. واني اود معرفة رأيك.

فارجعني صاحبي قليـلا لكي يتمكن من رؤيتهمـا جيدا، وقال: انهما زوجان رائعان حقا. واذا ماكانا طيبين اصيلين مثل ما يظهران، فانا على يقين انك لست بحاجة ان تتمني افضل منهما. ولكني ارى انك شددتهما في تلك العدة التي تعذب خيلك وترهقها وتقلل من طاقتها.

فسـأله الرجل: ماذا تقصد؟ اللجام المرفوع ؟ اوه! عرفت ان هذه هي هوايتـك. اني في الحقيقة اود رؤية جيادي رافعة الرأس.

فقال صاحبي: واني ليعجبني ذلك ايضا مثل أي انسان اخر. ولكني لا احب ان اراها مرفوعة الرأس غصبا، فان ذلك يفقدها كل رونقها. وانت يا لانكلي رجل عسكري ولا ريب انـك تحب ان ترى كتيبتك في احسن مظهر اثناء العـرض «رأسك عاليا!» وهذا كل مافي الامر. ولكنك لن تقـدر تمـرينـك تقديرا يستحق الثقة اذا ماكان جميع جنـدك مشـدودي الرؤوس الى الوراء! ولعـل ذلك لن يؤذيهم اثناء العرض. الا انه يزعجهم ويرهقهم، ولكن كيف يكـون الامـر اثنـاء طعن العدو بالحراب. عندما

تتحتم الحرية في استعمال جميع العضلات والقاء كل قوتهم الى الامـام، واني لا ارى لديهم فرصة كبيرة في النصر، وكذلك الامر في ما يخص الخيل: فانت تغيظها وتعكر طباعها وتضعف طاقتها؛ ولا تدعها تلقى ثقلها على عملها، لذلك يضطر الى ارهاق مفاصلها وعضلاتها، مما يؤدي طبعا الى سرعة انهاكها.

ويمكنك ان تثق بقولي ان الخيول قصد بها ان تكون رؤوسها طليقة مثل بني البشر، واذا ما تصرفنا على وفق الذوق السليم اكثر مما على الزي الحديث، فاننا سنجد كثيرا الامور ايسر عملا. وفضلا عن ذلك، انت تعلم كما اعلم، ان الحصان اذا خطا خطوة خاطئة، فانه لن يجد فرصة مواتية الى العودة الى سابق عهده اذا ما كان رأسه وعنقه مشدودين الى الوراء ثم اضاف وهو يضحك، والآن اطلقت حصـاني الصغـير يعدو على هواه بعيدا. افلا تستطيع ان تعقد العزم ان تمتطيه ايضا، ايها النقيب؟ فانك ستكون قدوة في كل مكان.

فاجـابـه: اعتقد انك صائب في رآيك، ولكنها ضربة قاسية في مايخص الجنود، غير انني سافكر في الامر..

وهكذا افترق الاثنان.

١٢
يوم عاصف

في يوم من ايام اواخر الخريف خرج صاحبي برحلة عمل طويلة، وضعت الى عربة ذات عجلتين وذهب جون مع سيده وكان يعجبني الخروج دوما بمثل تلك العربة، فقد كانت خفيفة، وعجلتاها العاليتان تسيران بيسر. كان المطر غزيرا والريح عاتية تذرو الاوراق الجافة عبر الطريق مع وابل المطر. ومضينا جذلين حتى وصلنا نقطة تحصيل المكوس، والقنطرة الخشبية الواطئة. وكانت ضفتا النهر عاليتين، وظل الجسر مستويا بدلا من ارتفاعه مع الماء فكاد الماء يبلغ الاخشاب والالواح في منتصفه، ولكن وجود قضبان متينة على الجانبين، جعل الناس لا يأبهون.

قال الرجل الواقف عند بوابة التحصيل ان النهر كان يرتفع بسرعة وانه يخشى علينا من ليلة غاضبة، وقد غمرت المياه كثيرا من المروج وبلغ الماء الركب في احد اجزاء الطريق المنخفضة. وكان قاع الطريق جيدا فساق صاحبنا بلطف. ولم يحدث شيء.

ولما وصلنا المدينة نلت علفا جيدا، ولكن صاحبنا انشغل بعمله طويلا. ولم نبدأ رحلة العودة إلا في أواخر

العصر. وكانت الريح اعتى، وسمعت صاحبي يخبر لجون انه لم يسبق له ان خرج في مثل هذه العاصفة، ولذا اخذت افكر ونحن نمر باطراف غابة حيث كانت الاغصان العظيمة تهتز كالاغصان الصغيرة وكان هزيز الريح رهيبا.

قال صاحبي: ليتنا خرجنا من هذه الغابة.

فقال جون: اجل، سيدي، فلعل من الخطورة ان يسقط احد هذه الاغصان علينا.

وما كاد يتفوه بتلك الكلمات حتى سمعنا صريرا وتصدعا وتقصفا، وتمزقا وانتزاعا، وارتطاما بين الاشجار الاخرى عندما اجتثت شجرة بلوط من جذورها. سقطت امامنا فسدت علينا الطريق. ولا اقول انني لم ارتعب، لانني وقفت ساكنا واظن اني كنت ارتعش، ولكنني لم استدر وافر، لانني ما ربيت على ذلك. وقفز جون من العربة وصار فورا عند رأسي.

وقال صاحبي: كادت تصيبنا. فماذا نفعل الآن؟

اجابه جون: سيدي، ليس بوسعنا اجتياز هذه الشجرة بالعربة ولا الاستدارة حولها. وليس امامنا سوى العودة الى مفرق الطرق وسنسير ستة اميال قبل وصولنا الى الجسر الخشبي مرة اخرى. وهذا سيأخرنا ولكت الحصان مايزال نشيطا.

فرجعنا القهقرى واستدرنا من المفرق، وكاد الظلام يحل عندما وصلنا الجسر. واستطعنا ان نرى ان الماء ارتفع فوق وسطه ولكن صاحبي لم يتوقف. وسرنا بسرعة لابـأس بها، ولكن ما ان وطئت ارجلي الجزء الاول من الجسر، حتى شعرت بوجود خلل ولم اجرؤ على التقدم، فتوقفت في الحال. وقال صاحبي: «تقدم ياجميل» ولسني بالسـوط ولكني لم اجـرؤ على الحركة. فضربني ضربة قوية. وثبت على اثرها ولم اجرؤ ايضا على التقدم.

فقال جون: هناك خلل، ياسيدي.

ثم قفز من العربة واتى الى رأسي ونظر حوله وحاول ان يقودني الى الامام.

وقال: هيا ياجميل تقدم. ما الامر؟

ولم استطيع ان اخبره طبعا، ولكني كنت اعرف جيدا ان الجسر لم يكن مأمونا. وعندئذ جاء الرجل عند باب المكوس في الجنب الآخر راكضا.. وهو يلوح بمصباح كالمجنون وصاح: هي ، هي، قف!

فهتف صاحبي: ماذا دهاك؟

فرد عليه: الجسر مقطوع في الوسط، وقد جرف جزء منه. اذا تقدمتم ستغرقون في النهر.

فقال صاحبي: الحمد لله!

وقال جون: «انت ياجميل» ثم اخذ اللجام وادارني

بلطف الى يمين الطريق على ضفة النهر.

غربت الشمس قبل برهة، وبدا ان الريح هدأت بعد هبوبها العاصف الذي اقتلع الشجرة. واشتد الظلام وزادت حلوكته، وحل الهدوء وساد كل شيء، وسرت الهوينى، ولم تكد العجلات يسمع لها صوت في الطريق اللينة. ولم يتكلم صاحبي ولا جون بشيء فترة من الزمن، ثم شرع صاحبي يتحدث بصوت جاد. ولم استطع ان افهم كثيرا مما تحدثا به، ولكني عرفت انهما قالا. لو انني مشيت وتقدمت كما اراد مني صاحبي، لانهار الجسر تحتنا وتحت الحصان والعربة وصاحبها والرجل وسقطنا في النهر. وبما ان التيار قوي والظلام حالك ولا احد قريب يمد يد العون، فمن المحتمل ان نكون قد غرقنا. وقال صاحبي ان الله حبا الانسان عقلا يستطيع به معرفة الاشياء بنفسه ولكنه منح الحيوان معرفة لا تعتمد على العقل ولكنها اكثر يقظة واكتمالا في تصرفها وكثيرما انقذت حياة البشر. وقص جون حكايات كثيرة عن الكلاب والخيول والاشياء العجيبة التي قامت بها. وهو يعتقد ان الناس لا يقدرون حيواناتهم حق قدرها ولا يعقدون الصداقة معها كما يتحتم عليهم. واني على ثقة انها تعقد الصداأقة مع الانسان اذا مافعل هو ذلك.

واخيرا وصلنا باب المتنزه والفينا البستاني يتطلع الى

قدومنا. وقال ان السيدة اصابها هلع شديد منذ ان هبط الظلام خشية وقوع حادث، وانها ارسلت جيمز. على «صائب» الحصان الكميت نحو الجسر الخشبي ليستطيع الامر.

رأينا نورا في باب القصر الذي يدعى البهو والنوافذ العليا، ولما اقتربنا ركضت السيدة وهي تقول: هل انت سالم حقا ياعزيزي؟ لقد اصابني القلق، وقد خطرت ببالي كل انواع الاوهام. الم تحصل لكم حادثة؟

فاجابها: كلا ياعزيزتي، ولولا حكمة جوادك «الادهم الجميل» اكثر منا لجرفنا النهر عند الجسر الخشبي.

ولم اسمع بعد ذلك من الحديث شيئا فقد دخلا البيت، واخذني جوني الى الاصطبل. وياللعشاء اللذيذ الذي قدمه لي تلك الليلة. جريش حنطة ممتازة وجريش باقلاء مع الهرطمان - وفراش وثير مريح من القش الكثيف.

وفرحت بذلك كثيرا فقد كنت متعبا.

علامة الشيطان ١٣

خرجنا ذات يوم، انا وجون. في مهمة من أجل سيدنا وكنـا عائـدين في طريق طويل مستقيم، فرأينا على بعد صبيا يحاول ان يثب بمهر فوق باب، ولكن المهر لا يريد الوثوب، فضربه الصبي بالسوط، غير انه استدار الى احد الجوانب فضربه بالسوط مرة اخرى فاستدار الى الجهة الاخرى، ثم نزل الصبي وضربه ضربا مبرحا وقرعه على رأسه بالعصا، وركبه وحاول ان يجعله يثب فوق الباب. وهو يرفسه طوال الوقت، رفسا شديدا ليكرهه على ذلك، غير ان المهر ظل يرفض الوثوب.

وعنـدما اقتربنا من المكان خفض المهر رأسه ورفع قائمتيـه الخلفيتين والقى الصبي فوق سياج الزعرور البري العريض.

وجرى باقصى سرعته الى البيت والعنان متدليا من رأسه.

ضحك جون عاليا وقال مقهقها: يستحق ذلك وصاح الصبي « اوه! اوه! اوه!» وراح يحاول جاهدا الخروج من الاشواك: اقول لك ياهذا: تعال واخرجني.

فقال جون: شكرا لك. ارى انك في المكان المناسب. ولعل شيئا من الخدوش تعلمك ان لا تقسر حصانا ليثب

فوق باب اعلى مما يستطيع.

ثم تركه ومضى. وقال: لعل ذلك الصبي كذاب كما انه قاس. سنمر ببيت الفلاح بوشباي، ياجميل. واذا اراد احد ان يعرف شيئا استطعنا ان نخبره.

فاستدرنا نحو اليمين وما لبثنا ان وصلنا فناء الحظائر وصرنا على مقربة من الدار. وكان الفلاح قد خرج مسرعا في الطريق وزوجته واقفة لدى الباب تعصر يديها وتبدو مرتعبة.

وقال مستر بوشباي ونحن نقترب منه: هل رأيت ولدي؟ خرج قبل ساعة على مهره الادهم وعاد وحده بدون راكبه.

فقال جون: اظن ياسيدي ان من الخير له ان يكون بدون راكب مالم يكن ركوبه مناسبا.

فقال الفلاح: ماذا تقصد؟

اجابه: رأيت ابنك يضرب المهر الصغير بالسوط ويرفسه ويقرعه ليجبره على الوثوب فوق باب اعلى من قدرته. وتصرف المهر تصرفا حسنا، ياسيدي، ولم يكن متجنيا، فقد رفع قائمتيه الخلفيتين والقى الصبي في سياج الاشواك. وطلب مني ان اساعده في الخروج، ولكن ارجو ان تعذرني، ياسيدي، فاني لم يكن يعجبني [illegible] تكن عظامه قد كسرت، ياسيدي بل ذال

قليلا من الخدوش. انا احب الخيل ويغيظني ان اراها تساء معاملتها. ومن الخطأ ان يثار حيوان حتى يضطر الى استعمـال قوائمـه الخلفيـة. المرة الاولى لن تكون الاخيرة دائما.

وبدأت الام اثناء ذلك بالبكاء قائلة! آه ياولديَ بيل، يجب ان اذهب لاراك، لابد انه اصيب باذى.

فقال الفلاح: خير لك ان تدخلي البيت ايتها الزوجة. بيل بحاجة الى درس في هذا الشأن، ولابد ان ارى انه تعلم ذلك. ليست هذه المرة الاولى ولا الثانية التي يسيء فيها معاملة المهر، وسوف اضع حدا لذلك . انا شاكر لك فضلك، يامانلي . طاب مساؤك.

واستأنفنا مسيرنا، وكان جون يقهقه طوال الطريق الى البيت ثم اخبر جيمز بالحكاية. فضحك وقال: يستحق ذلك. كنت اعرف هذا الولد في المدرسة. كان يضفي على نفســه شيئا كثيرا من الكبرياء لانه ابن مزارع. وكان يختال في مشيه ويضطهد الاولاد الصغار.

وكنا نحن الكبار لا نسمح طبعا بشيء من تلك التفاهات، ونجعله يعـرف ان في المـدرسـة وسـاحـة اللعب اولاد الفلاحين واولاد العمال سواسية. اتذكر يوما قبل دوام العصر في المـدرسـة وجدته لدى الشباك الكبير يمسك فراشـات وينـزع اجنحتها. لم يرني، ولكمته على اذنه

وطرحته ارضا. وكما كنت غاضبا صرت خائفا من صراخه وجئيره المؤلم.

وانطلق الاولاد من الساحة وركض المدرس من الطريق ليرى ماذا حدث. واعترفت بصراحة بما فعلت ولماذا. وعرضت على المدرس الفراشات المسكينة التي حطم بعضها وراح بعضها الآخر يزحف كسيرا وأريته الاجنحة على عتبة الشباك. ولم يسبق لي ان أراه غاضبا كاليوم. ولكن بيل كان مايزال يعوي وينتحب كالجبان، وهو جبان حقا. ولم يعاقبه المدرس بشيء من هذا القبيل، انما اجلسه على كرسي طوال فترة العصر وامره الا يخرج للعب في الفرص مابقي من الاسبوع.

ثم تحدث الى الاولاد عن القسوة قائلا ان من غلظة الفؤاد والجبن ايقاع الاذى بالضعفاء العاجزين. وان ماعلق في ذهني هو قوله ان القسوة علامة الشيطان، واذا رأينا احدا يجد الراحة والتسلية في القسوة فيمكننا ان نعرف الى من ينتسب، لان الشيطان كان قائلا منذ البداية ومعذبا حتى النهاية. ولكن اذا رأينا، في الناحية الاخرى، اناسا يحبون جيرانهم ويرأفون بالانسان والحيوان، فيمكننا ان نعرف انه علامة الله لان الله هو المحبة.

فقال جون: لم يعلمكم معلمكم شيئا اصدق من هذا.

فلا دين يخلو من المحبة، وقد يتكلم الناس مايحلو لهم ولكن اذا لم يعلمهم ذلك ان يكونوا اخيارا، رحماء ببني الانســان والحيوان، فان حديثهم كله زيف ـ كله زيف ياجيمــز، وانــه لن يصمــد اذا ماكشفت بواطن الامور وبانت حقيقتها.

. .

١٤
جيمز هوارد

ذات صباح في اوائل شهر كانون الاول قادني جون الى حظيرتي بعد التمرين اليومي وراح يشد اللباد على ظهري بالسيور. وجاء جيمز من حجرة الحبوب بشيء من الهرطمان، فدخل صاحبنا الاصطبل. وكانت تبدو عليه علائم الجد ويحمل في يده رسالة مفتوحة. اوصد جون باب الحظيرة، ولمس قبعته، وراح ينتظر الاوامر.

قال صاحبنا: صباح الخير ياجون. اود ان أعرف ان كانت لديك شكوى من جيمز.

فقال: شكوى، سيدي؟ لا، سيدي.

فسأله: وهل هو مجد في عمله، ويحترمك؟

فاجاب: اجل، سيدي، دائما.

وعاد يسأله: ولم يتهاون في عمله اذا مادرت ظهرك؟

فرد عليه: ابدا، سيدي.

فقال: هذا شيء حسن. ولكن اوجه لك سؤالا آخر: هل يخامرك الشك انه عندما يخرج بالخيل لتمرينها او لاداء رسالة انه يتوقف للحديث مع معارفه او يدخل بيوتا لا عمل له فيها، تاركا الخيل في الخارج؟

فاجـابه: لا، سيدي، ابدا دون ادنى ريب، واذا ماقال احد ذلك عن جيمز، فانني لا اصدق ذلك، ولن اصدق ما لم يثبت بالعدل امام شهود. وليس من شأني ان اقول من الذي يحاول تشويه سمعة جيمز، ولكنني اقول هذا ياسيدي انني لم أجدْ شابا في هذا الاصطبل من هو اكثر مثابرة ودماثة وامانة وبراعة منه. اني اثق بكلامه بعمله. فهو رقيق وذكي في تعامله مع الخيل، وافضل ان تكون في عهدته على ان تكون في عهدة نصف الشباب من ذوي القبعـات المـزينـة بالاشرطة والبزات المميزة. ومن يرد بسمعـة جيمز سوءً ـ قال جون وهو يهز رأسه واثقا ـ فليأت الى جون مانلي.

كان صاحبنا واقفا طوال الوقت، وقورا منتبها، غير ان جون ختم كلامـه بابتسـامة عريضة كانت على محياه جميعا. ونظر صاحبنا نظرة كلها لطف الى جيمز الذي ظل واقفـا طوال الوقت ساكنـا لدى الباب وقال له: جيمز، ياولدي، ضع الهرطمان وتعال الى هنا. اني مسرور ان

اجد رأي جون باخلاقك مطابقا لرأيي تماما. جون رجل متحفظ ـ قال ذلك وعلى وجهه ابتسامة مازحة ـ وليس من اليسير استخلاص رأيه بالناس. لذلك فكرت انني اذا اتيت الاجمة من هذه الجهة، طارت الطيور منها، وساعرف ماذا اريد ان اعرف في الحال.

والآن نأتي الى العمل. تلقيت رسالة من صهري، سير كليفورد وليمز. يريدني ان اجد له سائسا شاباً جديرا بالثقة يعرف مهنته. فقد اصاب الوهن حوذيه العجوز الذي عاش معه عشرين سنة، ويريد رجلا يشتغل لديه ويتعلم طرائقه ويكون قادرا ان يحل محله، عند احالة الرجل المسن الى التقاعد. وسوف يتقاضى ثمانية عشر شلنا في الاسبوع في اول الامر، وبدلة للاصطبل، وبدلة للسياقة، وغرفة نوم فوق مرأب العربات، وصبيا يعاونه. سير كليفورد رجل طيب. واذا ماتوفقت بالحصول على المكان، فانها بداية جيدة بالنسبة اليك. انا لا اريد التفريط بك. واذا ماتركتنا فاني اعرف ان جون سيفقد يده اليمنى.

فقال جون: هذا صحيح، ياسيدي، سافقده، ولكنني لا اقف في سبيل تقدمه في هذه الدنيا.

فقال صاحبنا: ماعمرك ياجيمز؟

فاجابه جيمز: تسعة عشر عاما في ايار المقبل

ياسيدي.

فقال: هذا صغير. مارأيك ياجون؟

فقال جون: عمره صغير ياسيدي، ولكنه رجل مثابر وقوي وناضج، وبالرغم من انه لا يمتلك خبرة كثيرة في السياقة، فان له يدا خفيفة، حازمة، وعينا ثاقبة. وهو شديد الحرص، واني لعلى ثقة انه لن يدع حصانا لديه يصاب بالضرر لقلة العناية بحوافره ونعاله.

فقال صاحبنا: وسوف تتحقق كلمتك اكثر يا جون، لان سير كليفورد يضيف ملاحظة: « واذا وجدت رجلا دربه جون، فاني افضله على غيره.» لذا يا ولدي جيمز، فكر في الامر مليا، وشاور امك في الامر عند الغداء، ثم دعني اعرف ماذا تشاء.

بعد ايام قلائل من هذا الحديث، استقر الرأي ان يذهب جيمز الى كليفورد هول بعد شهر او ستة اسابيع، كما يروق لصاحبه، وان يتلقى في الوقت نفسه التمرين الكامل في السياقة الذي يمكن تلقيه. ولم ار العربة الكبيرة تخرج سابقا بمثل هذه الكثرة. فعندما لم تخرج السيدة بها، كان السيد ام يسوق بنفسه عربة ذات عجلتين: اما الآن، فسواء أكان السيد ان الآنسات الصغيرات ام اداء رسالة، فقد كنت انا وشهباء نشد الى العربة الكبيرة، ويسوقنا جيمز. وكان جون، في اول الامر،

يركب معه على مقعد السياقة، ويقول له هذا وذاك، وبعد ذلك صار جيمز يسوق وحيدا.

ومـا اكثـر الامـاكن التي صار صاحبنا يرتادها في المـدينـة في يوم السبت، وما اغرب الشولرع التي كان يســوق فيها. وكان، بلا ريب، يذهب الى محطة السكة الحـديـد حالمـا يصــل القطار. وكانت مركبات الاجرة والعـربـات ذوات العجلتـين او ذوات الاربــع عجلات والحافلات العمومية تحاول جميعا صعود الجسر معا. وكان ذلك الجسر يتطلب خيلا ممتازة وسائقين ممتازين عندما كان جرس السكة الحديد يدق، لانه كان ضيقا، وكـان ثمـة منعطف حاد في الاعلى الى المحطة حيث لا يستبعد ابدا ان تصطدم واحدة بالاخرى اذا لم ينتبهوا ويكونوا بارعين في تصريف امورهم طوال الوقت.

١٥
السائس العجوز

بعد ذلك قرر صاحبنا وزوجته اداء الزيارة الى بعض الاصـدقـاء القاطنين على بعد، ستة واربعين ميلا من بيننـا، وكـان جيمز هو الذي سيسوق. قطعنا في اليوم اثنين وثلاثين ميلا. وقد كان في الطريق تلال طويلة وعرة،

ولكن جيمز كان حريصا في سياقته ونابها لذلك لم يرهقنا قط. ولم ينس مطلقاً استعمال الكابحة لدى هبوطنا التل، او يرفعها في المكان المناسب. وكان يجعلنا نسير على افضل جزء ممهد من الطريق، واذا كان صعود التل طويلا فانه يجعل عجلات العربة تسير بالعرض قليلا في الطريق لئلا تتراجع، ويعطينا متنفسا .هذه الامور الصغيرة كلها تساعد الفرس وخصوصاً اذا تلقى كلمات لطيفة ايضا.

توقفنا مرتين في الطريق او ثلاثاً، وحالما مالت الشمس الى المغيب، وصلنا المدينة. حيث سنمضي ليلتنا. توقفنا عند الفندق الرئيس في منطقة السوق. وكان كبيراً جداً. ومررنا تحت طاق الى فناء طويل، في طرفه الابعد تقع الاصطبلات مرأب العربات. وحضر سائسان لاخذنا. كان السائس الاكبر رجلا ضئيل الجسم، نشيطا، دمثاً، ملتوي الساق، يلبس صدرة صفراء مقلمة. لم أر رجلا يفك العدة بسرعته قط، وقادني، وهو يربتني ويكلمني كلاما طيبا، الى اصطبل طويل فيه ست او ثماني حظائر، ليس فيها سوى حصانين او ثلاثة. واخذ الرجل الثاني «شهباء» ووقف جيمز جانبا عندما اخذوا يحسّوننا وينظفوننا.

لم ينظفني احد بمثل هذه الخفة والسرعة التي قام

بهـا الرجل العجوز الضئيل. وعندما انتهى من عمله، تقدم جيمز وتحسسني كأنه ظن انني لم انظف جيدا، ولكنه وجد جلدي نظيفاً وناعما كالحرير.

وقـال: ظننت نفسي خفيفا وسريعا وان جون اسرع مني، ولكنك تفوقت على كل من اعرف بسرعتك واتقانك في الوقت نفسه.

فقال السائس الاعرج: الممارسة تؤدي الى الكمال. وسيكـون شيئـا مؤسفا ان لم استطع ممارسة العمل اربعـين من دون كمـال ها، ها! هذا امر مؤسف! اما بالنسبة الى السرعة. بارك الله فيك! فهي مسألة عادة. فاذا اعتـدت السرعة فان الامر يكون سهلاً كما تكون بطيئـا - بل اسهـل، ان التثاقل، في الحقيقة، لا يوافق صحتي، بارك الله فيك! اني لن استطيع حتى التصفيق لو انني كنت ادب بطيئا في عملي كما يفعل بعض الناس!

وترى انني اشتغلت مع الخيل منذ ان كنت في الثانية عشرة من عمـري في اصـطبـلات الصيد، واصطبلات السباق. ولكوني صغير الجسم، كما ترى، فقد اشتغلت فارسا في السباقات سنوات عدة. ولكن في كودوود، كما تعلم، كان العشب زلقا فسقط حصاني المسكين وكسرت ركبتي، واصبحت، طبعا، بلا نفع في هذا المجال، ولكنني لم يكن بوسعي ان اعيش بعيـدا عن الخيل، طبعا لم

استطع، فلجأت الى الفنادق، ويمكن ان اقول لك انها لغـايـة البهجـة ان تسوس حصانا مثل هذا الاصيل، المهذب، المعتنى به. بارك الله فيك!

ويمكنني ان ابين لك كيف تلقى الحصان المعاملة. فاذا ماجعلتني اسوس حصانا عشرين دقيقة. اخبرتك اي نوع من السواس كان يتعهده. انظر الى هذا: دمث، هاديء، يدور كما تريد منه، يرفع رجله لكي تنظف. او اي شيء تشـاء. وتجـد غيره شكسـاً قلقـاً، لا يتحـرك بالطريقة الصحيحة، او ينطلق في الحظيرة او يهز رأسه حالمـا تقترب منه، ويرجع اذنيه، ويبدو خائفاً منك، او يتلقـاهـا بالرفس بقوائمه الخلفية. مخلوقات مسكينة! اعرف اي نوع من المعاملة كانت تتلقاها. فاذا كان جباناً فانه يجفل او يتراجع، واذا كان حاد الطبع فانه يكون شرساً او خطرا. تتكون طباعها عموماً وهي فتية.

بارك الله فيك! انها كالاطفال! دربها كما يجب عليها، فانها لن تحيد عن ذلك اذا ماكبرت هذا اذا واتتها الفرصة.

فقـال جيمـز: يعجبني سمـاع كلامـك. فهـذه هي الطريقة التي نتبعها في البيت، في بيت سيدنا.

فسـألـه: ومن سيـدك. ايهـا الشـاب؟ اذا سمحت بالسؤال. اني اوكد انه رجل طيب مما رأيت.

فاجـاب جيمـز: هو سكـواير كوردن صاحب متنزه بيرتويك، في الطرف الآخر من تلال بيكن.

فقال : آه صحيح، صحيح، سمعت كلاما كثيرا عنه. حكم ممتاز في الخيول، اليس كذلك؟ وافضل فارس في المقاطعة؟

فقـال جيمـز: اعتقد ذلك. ولكنه صار يركب قليلا هذه الايام منذ ان مات ولده الشاب.

قال: ياله من مسكين! قرأت ذلك في الصحف في حينه ومات حصان اصيل ايضا، أليس كذلك؟

فقال جيمز: نعم، كان حصانا رائعا، شقيق هذا وشهبيهه

فقـال العجوز: اسفاه! اسفاه! كان مكانا .لا يصلح للوثـوب، على ما اتـذكر. سياج رفيع في الاعلى، وضفة شديـدة الانحـدار نحـو الجدول، اليس كذلك؟ لايجد الفرس فرصة لرؤية طريقه. انا مع الركوب الجريء كأي شخص آخر ولكن هناك وثبات لا يصح ان يقوم بها غير فارس صيد محنك. حياة الانسان وحياة الحيوان اغلى من ذنب ثعلب. وهذا في الاقل ما ينبغي ان يكون.

وانتهى، في اثناء ذلك، الرجل الآخر من شهباء وجلب لنا حبوبنا، وغادر جيمز والعجوز الاصطبل.

الحريق ١٦



جلب السائس الثاني بعد ذلك في المساء حصان مسافر آخر، وعندما كان ينظفه دخل شاب في فمه غليون ليقضي وقته بالقيل والقال.

فقال له السائس: اقول لك يا تاولر اصعد السلم الى الطبقة العليا وضع شيئا من التبن في معلف هذا الحصان، ارجوك. ولكن اطفىء غليونك.

فقال الآخر «حسنا» وصعد من الباب الذي في السقف. وسمعته يمشي فوقنا ويلقي التبن. وجاء جيمز ليلقي علينا آخر نظرة، ثم اوصد الباب.

لا ادري مقدار ما نمت وكم كانت الساعة في الليل، ولكنني استيقظت متضايقا جدا، ولست اعلم سبب ذلك.

كان الهـواء يبدو كثيفا خانقا. وسمعت شهباء تسعل، واحد الخيول يتحرك في مكانه ضجرا. كان الظلام حالكا، ولم استطع ان ارى، ولكن الاصطبل كان مليئا بالدخان ولا ادري كيف اتنفس.

ترك باب السقف مفتوحا وظننت ان الدخان ياتي منه. اصغيت فسمعت صوتـا خافتا مندفعا، وقرقعة خفيفة ونقصفـا لم اعـرف ماهـو، غير ان شيئا غريبا في ذلك الصـوت جعلني ارتعش في كل بدني. وكـانت الخيول الاخرى جميعا مستيقظة آنذاك، وكان بعضها يسحب الاعنة، وبعضها الآخر يضرب الارض.

سمعت اخيرا وقع اقدام في الخارج، واندفع السائس الذي جلب حصـانـا المسـافـر ودخل الاصطبل ومعه مصباح وراح يفك الخيول ويحاول اخراجها، وكان يبدو على عجلة من امره وخائفا، فبث الرعب في نفسي. ولم يقبل الحصـان الاول ان يذهب معـه، وحـاول مع الثـاني والثالث، ولكنهما لم يريدا ان يتحركا ايضا، ثم تقدم اليّ وحاول ان يسحبني الى خارج الحظيرة بالقوة، ولكن دون جدوى فخرج من الاصطبل.

لا ريب انها حماقة منا، ولكن الخطر كان يحيط بنا، ولم يكن احد نعرفه ونثق به، وكان كل شيء غريبا ومريبا.

وجعل الهواء النقي المتدفق من الباب المفتوح التنفس يسيرا ، ونظرت الى الاعلى خلال قضبان المعلف الخالي، فرأيت ضوء أحمر يخفت على الجدار، ثم سمعت صيحة «حـريق» في الخـارج، ودخـل السائس العجوز بهدوء وسرعة. واخرج احد الخيول وتحول الى آخر، ولكن اللعب كان يتلاعب حول باب السقف، وكانت معمعة اللعب في الطبقة العليا، رهيبة. وكان الشيء الذي سمعته بعد ذلك هو صوت جيمز، هادئا، مطمئنا، كما عهدناه

وقال : هيا ياجمالي، حان موعد انصرافنا، فاستيقظ وتعال معي.

كنت قريبا من الباب فجاءني اولا وربتني وهو يدخل .

وقال: هيا ياجميل، البس اللجام، ياولدي. لن نلبث ان نخرج من هذا الدخان الكثيف الخانق.

ولم يستغرق ذلك طويلا، ثم خلع اللفاف من رقبته وربطه باحكام حول عيني، وراح يربت ويلاطف، وقادني الى خارج الاصطبل. ووصلت سليما الى الفناء، ونزع اللفاف عن عيني وهتف:

ليأت احد الي! خذوا هذا الحصان لاعود الى الآخر. وتقدم رجل طويل عريض المنكبين واخذني منه، وانطلق جيمز عائدا الى الاصطبل، واطلق صهيلا حادا عندما

رأيته يذهب. قالت لي «شهباء» في ما بعد ان ذلك الصهيل كان افضل شيء يمكن ان اقوم به من اجلها، فلو لم تسمعني في الخارج لما واتتها الشجاعة ان تخرج.

وحدث اضطراب كثير في الفناء. فقد اخرجت الخيول من الاصطبلات الاخرى، وسحبت العربات الكبيرة والصغيرة من مرائبها وسقائفها خشية انتشار النار اليها. في الطرف الآخر من الفناء، فتحت نوافذ وراح الناس يطلقون كل انواع الصراخ. ولكنني ركزت نظري على باب الاصطبل، حيث صار الدخان يتدفق اكثف من ذي قبل، واستطعت ان ارى وميضا من نور احمر. وسمعت فورا فوق الضجيج والجلبة صوتا عاليا واضحا، عرفت انه صوت صاحبنا.

جيمز هوارد! جيمز هوارد! هل انت هناك؟

ولم يتلق جوابا، ولكنني سمعت صوت شيء يتهشم في الاصطبل، ثم اطلقت في الحال صهيلا فرحا عاليا لانني رأيت جيمز يخرج من خلال الدخان وهو يقود «شهباء». كانت تسعل بعنف ولم يكن جيمز قادرا على الكلام.

فقال صاحبنا: «ياولدي الباسل!» ووضع يده على كتفه هل تأذيت؟»

فهز جيمز رأسه لانه لم يستطع الكلام.

وقال الرجل الضخم الذي يمسكني! اجل انه صبي

شجاع بلا ريب وقال صاحبنا :«والآن ياجيمز، بعد ان ترتاح، سنغادر هذا المكان باسرع ما نستطيع.
ثم سرنا باتجاه المدخل عندما تناهى الينا من منطقة السوق صوت وقع حوافر خيل تعدو وقعقعة عجلات عالية.

فصاح اثنان او ثلاثة: «عربة الاطفاء! انها عربة الاطفاء! تراجعوا، افسحوا لها في المجال!» وانطلق الى الفناء حصانان يسحبان العربة الثقيلة وكان لها دوي وقرقعة على الحصى. ووثب رجال الاطفاء الى الارض،. ولم تكن بهم حاجة الى السؤال عن مكان الحريق ـ فكانت السنة اللهب تتوهج عاليا من السقف.

خرجنا باسرع ما استطعنا الى ساحة السوق العريضة الهادئة، وكانت النجوم مشرقة، وكان كل شيء هادئا ما عدا الصخب الذي وراءنا. وسار صاحبنا في المقدمة متجها الى فندق فخم في الجهة الاخرى. وما ان جاء السائس، حتى قال صاحبنا: جيمز، يجب ان اسرع الى سيدتك. واعهد بالخيل اليك اطلب ماتراه ضروريا لهما.
ثم ذهب ولم يركض، غير انني لم ار رجلا في حياتي يمشي مسرعا مثله، في تلك الليلة.

وسمعنا صوتا رهيبا قبل دخولنا الحظائر: انه صوت

تلك الخيول المسكينة التي تركت تحترق حتى الموت في الاصطبل شيء رهيب! مما جعلني وشهباء يشعر بسوء الحال. على اننا دخلنا واجري اللازم لنا.

وفي صباح اليوم التالي حضر صاحبنا ليرى وضعنا وحالنا ويتكلم الى جيمز . لم اسمع كثيرا مما قالا لأن السائس كان يحسني ولكنني استطعت ان ارى جيمز يبدو فرحا جدا وظننت ان صاحبنا كان فخوراً به. ارتعبت سيدتنا في تلك الليلة فتأجلت الرحلة حتى العصر. فذهب جيمز في ذلك الصباح الى الفندق ليرى امر العربة وامر عدتنا، ثم ذهب ليستطلع نتيجة الحريق.

وعندما عاد، سمعناه يخبر السائس بذلك. لم يعرف احد في بادىء الامر كيف حصل الحريق، ولكن رجلا قال بعد ذلك انه رأى دك تاولر يدخل الاصطبل وفي فمه غليون، وعندما خرج لم يكن الغليون معه فذهب الى الحانة من أجل غليون آخر، ثم قال السائس الصغير انه طلب من دك ان يصعد السلم ليلقي بعض التبن، واخبره الى يطفيء الغليون اولا. وانكر «دك» ادخال الغليون معه، ولكن لم يصدقه احد. واتذكر قاعدة جون ماني بهذا الخصوص: لا يسمح بادخال غليون الى الاصطبل، ويعتقد انها قاعدة ينبغي ان تطبق في كل اصطبل.

وقال جيمز انهار السقف والارضية، ولم يبق قائما الا

الجدران السود، ودفن الحصانان المسكينان اللذان لم يستطيعا الخروج تحت الاخشاب والقرميد.

١٧
حديث جون مانلي

مابقي من سفـرتنا كان هينا، ووصلنا بيت صديق صاحبي بعد الغروب بقليل. واخذونا الى اصطبل نظيف دافيء حسن البنـاء، وقـد هيـأ لنا حوذي ودود وسائل الراحة، ويبدو انه اهتم كثيرا بجيمز لدى سماعه بالحريق.

فقال: ثمة شيء واحد شديد الوضوح، ايها الشاب. خيولك تعرف بمن تثق. ومن اشد الامور عسرا في هذه الدنيا ان تخرج خيولا من اصطبل عند نشوب حريق او مداهمة فيضان. ولست ادري لماذا لا تخرج، وهي لن تخرج - حتى واحد من عشرين.

امضينا يومين او ثلاثة ايام في هذا المكان ثم عدنا الى البيت وقد سارات الامور على مايرام في رحلتنا. وسررنا بعودتنا الى اصطبلنا، وفرح جون برؤيتنا.

قال جيمز قبل ان يتركنا هو وجون في تلك الليلة: عجبا من سيحل محلي؟

فقال جون: جو كرين الصغير في الكوخ لدى الباب.

فتعجب قائلا: جو كرين الصغير! ولكنه طفل!

فقال جون: عمره اربعة عشر عاما ونصف العام.

قال جيمز: ولكنه ولد صغير حقا.

اجـابه جون بقوله: اجل، هو صغير ولكنه ذكي وواع، ورقيق الفؤاد ايضا، وراغب في المجيء، وابوه يحب له ذلك. وانا اعرف ان سيدنا يود ان يتيح له الفرصة. وقال لي ان كنت اعتقد انه لا يصلح للعمل، فانه سيبحث عن ولد اكبر منه، ولكنني قلت انني موافق على تجربته ستة اسابيع.

فقـال جيمـز: ستـة اسابيع! ولكنه يحتاج الى ستة شهور لكي يكون ذا نفع كثير. وهذا سيلقي على عاتقك عبئا كبيرا من العمل ياجون.

فقال جون ضاحكا: انا والعمل صديقان حميمان، لم اخش العمل يوما.

فقال جيمز: انت رجل طيب، ليتني كنت مثلك.

فقال جيمز: انا لا اتكلم عن نفسي كثيرا. ولكن بما انك ستفـارقنا لتشق طريقك في هذا العالم الفسيح وتتدبر امرك بنفسك، فاني اقول لك كيف انظر الى هذه الامور. كنت بعمـر جوزيف عنـدما توفي ابي وامي بالحمى في غضـون عشرة ايام، وتركاني مع اختي الكسيحة نيلي

وحيـــدين في هذه الدنيـا بلا قريب يمكن ان نلجـأ الى مساعدته كنت صبي مزارع لا اكسب ما يكفيني، فكيف يكفينا نحن الاثنين، وكان لابد من التحاقها بالمشغل لولا سيـدتنا التي تدعوها نيلي «ملاكي». ولها كل الحق في ذلك. فقـد ذهبت واستـأجـرت غرفة لنيلي لدى الارملة العجوز موليت، واعطتها لوازم الحياكة والخياطة عندما اصبحت قادرة على القيام بذلك. وعندما مرضت صارت ترسل لها طعامها واشياء اخرى مريحة لطيفة، وكانت كالام. ثم اخذنا السيد الى الاصطبل لاعمل مع نورمان الحـوذي العجـوز لديهم. وكان يعطيني ملابسي وثلاثة شلنـات في الاسبـوع فكنت استـطيـع مساعدة نيلي. نورمـان هذا، كان من الممكن ان يتخـذ موقفـا جديدا ويقول انه في مثل عمره لا يسعه ان يعاني من صبي غر، قليـل التجـربـة، من ابناء الريف، بيد انه كان كالأب بالنسبـة الي، وعـانى بشـأني من الالام ما لا يحصى. وعنـدمـا توفي العجوز بعد سنوات قليلة، حللت محله، وصرت الآن اتقاضى اعلى الاجور مما يمكن ادخارها لايام العسر او ايــام اليسر، وغـدت نيــلي كالطائـر ترفـل في السعـادة. وهكذا ترى ياجيمز لست ذلك الرجل الذي يترفع على ولد صغير ويغيض سيدا طيبا رحيم القلب لا، لا ياجيمـز، سافتقـدك كثيرا، ويجب ان نجتاز المرحلة

بسلام، ولا شيء افضل من عمل الخير اذا تيسر لك ذلك، واني ليسعدني ان يكونَ بوسعي عمل ذلك.

فقـال جيمز: اذن انت لا تقر هذا القول: كل يرعى نفسه ولا يهمه الا ذاته بالدرجة الاولى.

فقال جون: كلا، ابدا، فاين يكون مصيرنا انا ونيلي لو ان السيد والسيدة ونورمان العجوز لم يهمهم الا ذواتهم بالدرجـة الاولى؟ نيلي في المشغل وانا استخرج اللفت! واين يكون الادهم الجميل وشهباء لو انك فكرت بنفسك فقـط؟ يحتـرقان حتى الموت! كلا ياجم، كلا هذا قول اناني، لا يستعمله الا الهمجي، والشخص الذي يعتقد انه لا يملك سوى الاهتمام بالذات، وهذا شيء مؤسف وانه سيغرق مثل جرو او قطيطة قبل ان تتفتح عيناه، هذا ما اعتقد فيه.

وضحـك جيمز على ذلك، وكان في صوته بحة عندما قال: انت افضل صديق لي بعد امي. وارجو الا تنسني.

فقال جون: لا ياولدي لا! وانا ايضا ارجو الا تنسني.

وحضر جو في اليـوم التالي الى الاصطبل ليتعلم كل مايستطيع تعلمه قبل مغادرة جيمز: تعلم كنس الاصطبل وجلب التبن والقش، وبـدأ بتنـظيف العدة وساعده في غسل العربة. ولما كان قصيرا لم يستطع ان يسوسني ويسوس شهباء فعلمه جيمز على «رشيق» لانه سيكون

مسؤولا عنه تمام المسؤولية وتحت اشراف جون. كان شخصا صغيرا لطيفا ذكيا، لامعاً ويأتي الى عمله وهو يصفر.

وكان «رشيق» قد انزعج كثيرا من «المعاملة الخشنة التي يتلقاها من صبي لا يعرف شيئا» كما يقول. ولكنه قال لي في نهاية الاسبوع الثاني بشيء من الثقة ان الصبي سيثبت جدارته في النهاية.

واخيرا حان موعد مغادرة جيمز لنا. وبالرغم من انه كان شخصا مرحا مبتهجا، غير انه كان حزينا في ذلك اليوم.

فقال لجون: انت ترى اني سافارق كثيرين: امي وبيتسي وانت وسيدي وسيدتي الطيبين، والخيول وبخاصة «رشيق»: لا اعرف احدا في المكان الجديد. لولا اني سأنال وظيفة اعلى لكي اكون قادرا على توفير وضع افضل لامي، لما عقدت العزم على اتخاذها. انها مأزق حقيقي ياجون.

فقال جون: اجل ياولدي جيمز انها كذلك، ولكنني لا اخشى عليك كثيرا، اذا كنت قادرا على ترك البيت اول مرة ولا تشعر بذلك فلا تبتئس سيكون لك اصدقاء هناك، واذا سارت امورك على مايرام ـ واني لواثق من ذلك ـ فان امك ستفرح بك وستفخر بانك نلت وظيفة جيدة مثل تلك

الوظيفة.

فشجعه جون بذلك وازال الغم عن فؤاده، ولكن اسف الجميع على فراق جيمز. اما «رشيق» فقد اضناه الشوق ايـامـا الى جيمز. وفقد شهيته تماما، لذلك صار جون يخرج به في الصباح يقوده من عنانه عندما كان يدربني، فيعـدو الى جانبي مما اعاد السرور الى نفسه وسرعان ماتحسن حاله.

وكان والد جو كثيرا مايآتي ويمد له يد العون فقد كان يعـرف طبيعة العمل، وكان جو نفسه يعاني كثيرا لكي يتعلم المهنة، اما جون فقد كان واثقا منه تمام الثقة.

١٨

استدعاء الطبيب

في ليلة من الليالي بعد آيام قليلة من مغادرة جيمز، تنـاولت التبن واستلقيت على القش واستغـرقت في نوم عميق وايقظني فجآة رنين جرس الاصطبل العالي جدا. سمعت باب بيت جون يفتح، ووقع اقدامه وهو يركض صاعدا الى البهو. ثم عاد مسرعا في لمح البصر، وفتح باب الاصطبل ودخل وهو ينادي: «استيقظ ياجميل، يجب ان تتـآهب الآن فورا كمـا عهـدتك» وقبل ان افكر، وضع

السرج على ظهري واللجام في رأسي. وجرى ليأخذ معطفه ثم اخذني في خبب سريع الى باب البهو - وكان صاحبنا واقفا.

وقال: والآن ياجون، انطلق من أجل حياتك، اقصد من اجـل حياة سيدتك! علينا الا نضيع لحظة واحدة! اعـط هذه الورقـة الى دكتـور وايت. وارح حصانك في الفندق، ثم عد باسرع ما تستطيع.

فقـال جون: «نعم، سيـدي» ثم امتطى صهوتي فورا، وسمع البستاني الساكن في الكوخ عند الباب، الجرس يدق وتأهب ففتح الباب. وخرجنا مخترقين المتنزه والقرية ونزلنا التل حتى بلغنا باب المكوس. ونادى جون بصوت عال وطرق البـاب بقـوة. واسرع الرجل بالخروج وفتح الباب بعنف.

وقال جون: ارجوك ان تبقي الباب مفتوحاً للطبيب. هاك النقود ثم انطلقنا مرة اخرى في قطعة منبسطة من طريق مستـوٍ على ضفـة النهـر. وقال لي جون: «والآن ياجميل، ابذل جهدك!» وفعلت ما أراد ولم اكن بحاجة الى سوط او مهماز، وطفقت أجري ميلين باسرع ما تستطيع قوائمي ان تنهب الارض نهبا، ولا اعتقد ان جدي الذي فاز في سبـاق نيوماركت يستطيع ان يجري اسرع من هذا وعنـدما وصلنا الجسر، سحب جون العنان قليلاً

وربت على عنقي وقال: «احسنت ياجميل! ياصديقي القديم!» وسمح لي ان اسير ابطأ ولكن حماستي كانت ملتهبة، فعدت الى الانطلاق سريعا كالسابق. وكان الهواء بارداً جداً كالصقيع، والقمر ساطعاً، وكل شيء يبعث البهجة في النفس. اخترقنا القرية، وغابة مظلمة، ثم رقينا تلا ونزلناه حتى بلغنا المدينة بعد ثمانية اميال من الجري، واخترقنا شوارعها حتى وصلنا السوق. وكان كل شيء هادئا ماعدا قعقعة ارجلي على الحصى. وكان الجميع نائمين. ودقت ساعة الكنيسة الثانية عندما اقتربنا من باب الدكتور وايت. دق جون الجرس مرتين، ثم طرق الباب بعنف كالرعد. وانفتح شباك واطل دكتور وايت وعلى رأسه طاقية الليل، وسأل: ماذا تريد؟

فقال جون: السيدة كوردن مريضة جدا، ياسيدي. وسيدي يطلب حضورك في الحال! وهو يعتقد انها ستموت، اذا لم تحضر ـ هذه ورقة منه.

فقال: انتظر، سأجيء.

واغلق النافذة، ومالبث ان وصل الباب وقال : يالسوء الحال فان حصاني خرج اليوم طوال النهار وهو مرهق تماما، وقد اخذ ابني الحصان الآخر في مهمة ارسل من اجلها. فما العمل ؟

هل يمكن ان اخذ حصانك؟

فقــال جون: جاء الى هنــا يجــري باقصى سرعته طوال الطريق يا سيدي، وكنت اريد اراحته هنا. ولكني اظن ان سيدي لا يمانع اذا كنت تريد ذلك ياسيدي.

فقال الطبيب: حسنا اذن، سأكون متأهبا على الفور.

ووقــف جون الى جانبي ومســـد عنقي، وكنت شديــد الحرارة. وخرج الطبيب ومعه سوط ركوب.

فقال جون: لا حاجة الى اخذ ذلك ياسيدي .فان «الادهم الجميل» يظل يجري حتى يتهاوى فاهتم به ياسيدي اذا استطعت. فلا اود ان يصيبه مكروه.

فقل الطبيب: لا، لا ياجون، ارجو ان لا يصيبه شيء ثم مالبثنا ان تركنا جون بعيدا وراءن ا. ولن اتحدث عن طريق عودتنا. كان الطبيب اثقل من جون ولا يضاهيه في الفروسية، ولكنني بذلت جهدي. وكان الرجل قد فتح باب المكوس. وعندما وصلنا التل صار الطبيب يسحبني الى الاعلى. وقال: هيا يا صديقي الطبيب خذ نفسا.» وسررت بذلك، لانني كنت منهمكا، وقد ساعدني ذلك التمهل في مواصلة المسير اذ سرعان ماوصلنا المتنزه. وكان جو لدى باب الكوخ. وصاحبنا لدى باب البهو، لانه سمع قدومنا، ولم ينطق بكلمة ودخل الطبيب البيت معه، وقادني جو الى الاصطبل.

وسررت بعــودتي الى البيت. وراحت قوائمي ترتعش

تحتي ولم استطع الا الوقوف واللهاث. ولم تبق شعرة جافة على جسدي، وسأل العرق من جميع اجزاء بدني ونزل على قوائمي - واعتاد جو ان يقول - مثل قدر على نار. مسكين جو! كان صغير الجسم والعمر ولذلك قليل المعرفة، اما ابوه الذي كان يساعده، فقد ارسل الى القرية المجاورة، غير انني متأكد انه بذل اقصى مايعرف. ومسح قوائمي وصدري، ولكنه لم ودثاري على ظهري، فقد ظن انني شديد الحرارة فلا اريد ذلك، ثم اعطاني دلوا من الماء لا شرب. كان باردا وطيبا جدا فشربته جميعا، ثم قدح لي شيئا من التبن وبعض الحبوب، وذهب بعد ان ظن انه قد ادى كل شيء على خير وجه.

وسرعان ما اخذت ارتعش وارتجف وشعرت ببرد قاتل تألمت قوائمي، وتألمت خاصرتاي، وتألم صدري، شعرت بالالم في كل مكان. اوه! ما اعظم اشتياقي لدثاري الدفيء وانا واقف ارتعش! وما اشد لهفتي الى جون، ولكن عليه ان يمشي ثمانية اميال، لذا استلقيت على القش وحاولت ان انام. وسمعت جون لدى الباب بعد مدة طويلة. واطلقت انينا خافتا، لانني كنت اعاني من ألم عظيم. فصار الى جانبي بعد لحظة، وانحنى علي - لم استطع ان اخبره بما اعاني غير انه بدا يعرف كل شيء فغطاني بدثارين او ثلاثة دافئة ثم ركض الى البيت

ليجلب ماءً حاراً. وصنع لي عصيدة دافئة احتسيتها، واحسبني نمت بعد ذلك.

ويبدو ان جون انزعج كثيرا فسمعته يقول لنفسه ويكرره مرارا: «ولدي غبي! بلا دثار على ظهره، واظن ان الماء كان باردا ايضا، الاولاد لا ينفعون» ولكن جو صار ولدا صالحا نافعا برغم كل شيء.

اشتد مرضي فقد اصبت بالتهاب حاد في الرئتين، ولم استطع سحب انفاسي بلا الم. وراح جون يمرضني ليل نهار، وينهض مرتين او ثلاث مرات في الليلة الواحدة لكي يراني. وكثيراً ماجاء صاحبي ليراني ايضا.

وقال ذات يوم: مسكين ياجميل! ياحصاني الممتاز! انت انقذت حياة سيدتك! انقذت حياتها.

اسعدني كثيرا سماع ذلك، لانه يبدو ان الطبيب قال لو اننا تأخرنا قليلا لفات الاوان. وقال جون لسيده انه لم ير في حياته حصانا يجري بسرعته - يبدو كأن الحصان يعرف الامر. طبعا، كنت اعرف، بالرغم من ان جون لا يعتقد بذلك كنت في الاقل اعرف ان عليّ وعلى جون ان نسرع باقصى سرعتنا وذلك من أجل السيدة.

١٩
مجرد جهل

لست ادري كم بقيت مريضا. فقد كان مستر بوند الطبيب البيطري يأتي كل يوم. وفصدني ذات يوم، وقد مسك جون دلوا للدم المفصود . شعرت بوهن شديد بعد ذلك وظننت انني ساموت، واعتقد انهم جميعا ظنوا ذلك ايضـا. ونقل «رشيق» و«شهباء» الى اصطبل آخر لكي اتمتـع بالهـدوء لان الحمى ارهفت سمعي، وبـدا لي اضعف صوت عاليا.

كنت اعرف بكل مايجري، ذات ليلة كان على جون ان يسقيني جرعة دواء فجاء توماس كرين لمساعدته. وبعد ان تناولتها جعلني جون مرتاحاً بكل ما وسعه ذلك، وقال انـه سيبقى نصف ساعـة ليرى مفعـول الدواء. وقال تومـاس انـه سيمكث معه، فذهب الاثنان وجلسا على مصطبة جلبت الى حظيرة «رشيق». ووضعا الفانوس عند اقدامهما لئلا يزعجني الضوء.

وجلس الاثنان صامتين برهة ثم قال توم كرين بصوت خفيض:

اتمنى ياجـون ان تقـول كلمة طيبة لجو. فالولد كسير الفؤاد من الاسى، وغدا لا يستطيع أكل طعامه، اختفت الابتسامة عن وجهه يقول انه يدري ان ذلك كله بسبب

غلطتــه، بالرغم من انــه لم يفعـل شيئـا سوى افضل مايعرف، ويقول: «اذا مات الجميل، فانه لن يكلمه مرة اخـرى. وان سمــاع ذلك منه يؤذيني كثيرا. اظن انك ستخصه بكلمة، فهو ليس ولداً طالحا.

وبعد صمت قصير قال جون متمهلا: يجب الا تكون قاسيا جدا عليّ ياتوم. فانا اعرف انه لم يقصد الاساءة. وانا لم اقل انه فعل ذلك . اعرف انه ليس ولدا سيئا، ولكنـك ترى انني نفسي متــألم. فهذا الحصان موضع اعتزازي، ناهيك عن انه الاثير لدى السيد والسيدة. وان التفكـير بان حيـاتــه ستضيــع بهذا الشكل لاكثر مما استطيع احتماله. واذا ظننت انني قسوت على الصبي، فاني سأحاول ان اكلمه غدا بكلمة طيبة ـ اي اقصد اذا تحسن جميل.

فقال توم: شكراً لك ياجون! انا ادري انك لا تريد ان تكون قاسيا جدا، واني مسرور انك ترى انه مجرد جهل.

كاد صوت جون يجفلني عند ما اجابه:

«مجرد جهل! مجرد جهل! كيف يمكنك ان تقول مجرد جهـل؟ الست تعلم ان ذلك اسـوأ شيء في الدنيـا بعد الخبث؟ ولا يعلم الا الله مدى الاذى الذي يوقعه. واذا قال النــاس: «اوه! لم اكن اعلم، ولم اقصد اي اذى» فانهم يعتقـدون ان ذلك مبرر حسن. واعتقد ان مارثا

مولوش لم تقصد قتل الطفل عندما اعطته جرعة من دواء وشراب مهدىء. ولكنها قتلته فعلاً، وحوكمت بتهمة القتل غير العمد.

فقال توم: تستحق ذلك. فالمرأة يجب الا تتعهد تمريض طفل صغير رقيق يتطلب عناية بالغة مالم تعرف مايصلح له وما لا يصلح.

وواصل جون حديثه: بيلي ستاركي لم يقصد اخافته الى حد الاصابة بنوبات، عندما لبس ثيابا كالشبح وركض وراءه في ضوء القمر. غير انه فعل ذلك، ذلك الانسان الرقيق الوسيم الذكي، الذي يمكن ان يكون فخر اي ام وزهو فؤادها، لم يعد افضل من معتوه ولن يكون حتى ولو بلغ الثمانين من عمره. وانت نفسك غضبت كثيرا قبل اسبوعين ياتوم عندما تركت تلك الفتيات باب المستنبت الزجاجي مفتوحا، فدخلت ريح الشرق الباردة جدا كالصقيع، وقلت انها قتلت كثيرا من نباتاتك.

فقال توم: كثيرا جدا! لم تنج شتلة واحدة من النباتات من البرد القارس. ويجب علي ان أبدأ كل شيء من جديد، ولكن الانكى من ذلك اني لا اعرف من أين احصل على شتلات جديدة.

فقال جون: ومع ذلك فانني متأكد ان الفتيات لم يكن

يقصدن ذلك. انه مجرد جهل.

ولم اسمع بقية الحديث لان الدواء سرى مفعوله فنمت، وفي الصباح شعرت بتحسن كثير. وغالبا ماكنت افكر بكلمات جون كلما ازددت معرفة بالعالم.

٢٠
جو كرين

سار جو كرين سيرا حسنا، فتعلم بسرعة . وكان نابها حريصا جدا مما دعا جون ان يثق به في امور كثيرة. وكما اسلفت القول فقد كان لما يزل صغيراً، ونادراً ماكان يسمح له بتدريبي او تدريب «شهباء»، ولكن حدث ذات صباح ان جون كان خارجا مع «صائب» بعربة الامتعة، واراد صاحبنا ايصال رسالة مستعجلة الى بيت رجل على بعد ثلاثة اميال تقريبا. فارسل اوامره الى «جو» لكي يسرجني ويأخذ الرسالة واوصاه ان يركب باحتراس شديد.

سلمت الرسالة وعدنا بهدوء حتى وصلنا الى حقل صناعة الطابوق حيث رأينا عربة مثقلة بالطابوق وقد غاصت عجلاتها في اخاديد من الطين القوي، وكان سائق العربة يصيح ويضرب الحصانين بالسوط دونما رحمة.

فتوقف جو. كان منظراً كئيباً فقد كان الحصانان يجهدان نفسيهما ويناضلان بكل طاقتهما لكي يسحبا العربة ويخرجاها، غير انهما لم يستطيعا تحريكها. وراح العرق يجري من قوائمهما وجنوبهما، وصارت خصورهما تعلو وتهبط، وتوترت كل عضلة من عضلاتهما، في الوقت الذي كان يسحب رأسي الحصانين ويسب ويضرب بالسوط ضربا وحشيا.

فقال جو: توقف! ولا تضرب الحصانين هذا الضرب المبرح! فان العجلات غائصة جدا، ولا يمكنهما تحريك العربة.

ولم يأبه به الرجل بل واصل الضرب بالسوط.

فقال جو: توقف! ارجوك تتوقف. ساساعدك في تخفيف العربة. فهما لا يستطيعان تحريكها هكذا.

فرد عليه الرجل: اهتم بشؤونك ايها الوغد الصغير، الوقح وسأهتم انا بشؤوني.

كان الرجل في قمة انفعاله وسكره الشديد. ثم عاد الى استعمال السوط وادار جو رأسي، وانطلقنا في الحال نعدو نحو بيت صاحب صناعة الطابوق. ولا ادري هل يمكن ان يستحسن جون سرعتنا تلك، غير اني وجو كنا متفقين وغاضبين فلم نكن نستطيع الجري ابطأ من ذلك.

كان البيت الى جانب الطريق، فطرق جو الباب

وصاح: يا اهل الدار! هل مستر كلي في البيت؟

وفتح الباب وخرج مستر كلي نفسه وقال: اهلا بالشاب! يبدو انك على عجل. هل من اوامر من سيدك هذا الصباح؟

فاجابه: لا يامستر كلي، ولكن هناك شخص في حقل الطابوق يضرب حصانين بالسوط حتى الموت. طلبت اليه ان يكف عن ذلك ولكنه لم يوافق، قلت له ساساعدك في تخفيف العربة، فلم يوافق. لذلك جئت اخبرك! ارجوك، سيدي، ان تذهب.

وكان صوت جو يرتعش من الانفعال.

فقال الرجل «شكرا لك ياولدي» وركض ليجلب قبعته، ثم توقف لحظة وسأل: هل تشهد بما رأيت اذا ما اخذت الرجل امام القاضي؟

فقال جو: سافعل ذلك، بكل سرور.

ذهب الرجل وعدنا في طريقنا نعدو عدواً لطيفاً الى البيت ووثب جو من السرج ونزل في الاصطبل.

فقال جون: ماذا دهاك ياجو؟ تبدو غاضبا في كل جوارحك.

فقال الصبي: اجل اقول لك: غاضب في كل جوارحي. ثم اخبره بكلمات منفعله عجلى كل ماحدث. كان جو في العادة شخصا هادئا، مهذبا فكان مما يثير الدهشة

رؤيته ميستثاراً.

فقال له جون: خيرا ياجو! خيرا فعلت يا ولدي، سواء استدعي الرجل ام لم يستدع. لعل كثيراً من الناس مروا به وقالوا: ليس من شأننا ان نتدخل. ولكني اقول ان من واجب الجميع التدخل في امور القسوة والاضطهاد. فعلت خيرا، ياولدي.

كان جو قد هدأ روعه، وابتهجت نفسه لاستحسان جون فعله. وطفق ينظف ارجلي ويمسح بدني بيد اقوى من ذي قبل.

وكان الاثنان على وشك الذهاب الى البيت لتناول الغداء عندما جاء الخادم الى الاصطبل ليقول ان جو مطلوب في الحال حضوره في غرفة السيد الخاصة، حيث جلب رجل لاساءته معاملة خيول، وطلبت شهادة جو في هذا الامر، وتضرج وجه الصبي حتى جبينه، والتمعت عيناه.

وقال: سيسمعونها.

فقال له جون عدّل قامتك» ثم سحب ربطة عنقه قليلا وشد سترته، وخرج فوراً. كان صاحبنا احد قضاة المقاطعة، وغالبا ماتجلب القضايا اليه ليبت فيها، او يبين مايجب اتخاذه، ولم نسمع في الاصطبل شيئا، فترة من الوقت، اذ كان ذلك موعد غداء الرجل، ولكن عندما عاد

جو الى الاصطبل رأيته مبتهجا. وربتني ربتة ودية وقال: لن نرى مثـل تلك الامور تقترف بعد هذا، اليس كذلك ياصديقي القديم؟

وسمعنا بعد ذلك انه ادلى بشهادته بشكل واضح، فقد كانت الخيـل في حالة من الانهمـاك وتبدو عليها علائم المعـاملة الهمجيـة، فتقـرر ان يحال سائق العربة الى المحاكمة ولعله يحكم بالسجن شهرين او ثلاثة شهور.

وما اشد العجب في التغير الذي حصل لجو. ضحك جون وقال ان جو طال عقدة واحدة في ذلك الاسبوع، واعتقد انه طال حقاً. وظل ذلك الانسان الرقيق المهذب كعهده سابقا، ولكن كان في كل ما يعمل تصميم واصرار اكثر من ذي قبل ـ كأنه قفز في الحال من صبي الى رجل.

٣١
الفراق

عشت في هذا المكـان السعيـد ثلاث سنـين، ولكن تغيرات محزنة ستحل بنا، اذ كنا نسمع بين حين وآخر ان سيدتنا مريضة. وغالبا ما يزورها الطبيب في البيت. وبدا سيدنا مهموماً، قلقاً، ثم سمعنا انها يجب ان تترك بيتها في الحال وتذهب الى بلد دافىء سنتين او ثلاث سنين. وقع

الخبر على اهل البيت كقرع ناقوس الموتى. وحزن الجميع. وبدأ سيدنا مباشرة بوضع ترتيبات لانهاء اعماله وترك انكلترة. سمعناهم يتحدثون عن ذلك في اصطبلنا.

وباشر جون عمله حزيناً، صامتا، ونادراً ماكان جو يصفر. وكثرت حركة الرواح والمجيء. وانشغلت انا وشهباء بعمل كثير.

كان اول من غادر من الجماعة الانسة جسي والانسة فلورا ومربيتهما. وحضرتا لتوديعنا. واحتضنتا، «رشيق» المسكين مثل صديق قديم، وكان فعلا كذلك. ثم سمعنا ماتم من ترتيب في امرنا. فقد باع صاحبنا «شهباء» وباعني ايضا الى لورد و ــ لانه يعتقد اننا سنكون في خير مكان لديه. واعطى «رشيق» الى القس الذي اراد مهراً من أجل السيدة بلومفيلد ولكن بشرط الا يباع مطلقا، واذا ماتجاوز سن العمل فيجب ان يطلق عليه الرصاص ويدفن. وعهد الى «جو» برعايته والمساعدة في امور البيت، وانا اعتقد ان «رشيق» سيكون في احسن حال.

وتلقى جون عروضا في عدة اماكن جيدة، غير انه قال انه يجب ان ينتظر قليلاً ليتدبر امره.

جاء صاحبنا الى الاصطبل في المساء قبل ان يغادروا لاعطاء بعض التوجهات، ويربت خيوله مودعا. كان يبدو

منقبض الصدر محزونا. وقد عرفت ذلك من صوته. اذ اننا نحن الخيل نستطيع ان نعرف من الصوت اكثر مما يستطيع كثير من الناس.

وسأل جون: هل قررت ماذا تعمل، ياجون؟

فاجابه: لا ياسيدي، لقد عقدت العزم انني اذا استطعت الحصول على وظيفة مروض امهار ومدرب خيول بالدرجة الاولى فان ذلك هو أنسب الامور اليّ. فان كثيرا من الحيوانات الصغيرة يصيبها الخوف ويفسد تدريبها لسوء المعاملة التي لا حاجة ان تتمع لو أن الرجل المناسب اخذها بيده. واني ليعجبني دائما العمل مع الخيل وانجح في ذلك، ولو استطعت مد يد المساعدة الى بعضها لتبدأ بداية حسنة، لشعرت كأنني قدمت عملا صالحا. فما رأيك بذلك ياسيدي؟

فقال: انا لا اعرف رجلاً في اي مكان اعتقد انه انسب لذلك منك. فانت تفهم الخيول وهي تفهمك، وانك ستتوطد امورك بمرور الزمن. ولا ارى انك تجيد شيئا افضل من هذا. واذا كان بوسعي ان اساعدك، فاكتب لي، سوف اخبر وكيلي في لندن واترك اسمك لديه.

واعطى صاحبنا الاسم والعنوان الى جون، ثم شكره على خدمته الطويلة والمخلصة. فتأثر جون بذلك كثيراً.

وقال: ارجوك ياسيدي لا تفعل، فاني لا استطيع

احتمال ذلك. انت وسيدتي العزيزة قدمتما لي كثيرا مما اعجز عن رده، غير اننا لن ننساكم ياسيدي، وان شاء الله سنرى السيدة يوما عائدة في احسن حال. وعلينا الا نفقد الامل ياسيدى.

ومـد السيـد يده جون، ولم يتكلم، وغـادر الاثنان الاصطبل وحان يوم الحزن الاخير. وكان الخادم قد رحل بالمتاع الثقيل قبل يوم، ولم يبق سوى السيد والسيدة وخـادمتها. واتينا انا وشهباء بالعربة حتى البهو آخر مرة. واخرج الخدم وسائد وبسطاً واشياء اخرى كثيرة. وعندما تم ترتيب كل شيء، نزال السيد الدرجات حاملا السيدة بين ذراعيه. (كنت في الجهة القريبة الى البيت فرأيت كل ماكان يجري.) ووضعها برفق قي العربة، في الوقت الذي وقف خدم البيت حولهما يبكون.

فقال: وداعاً، مرة اخرى. لن ننسى احداً منكم ـ وركب ـ هيا ياجون، قد العربة.

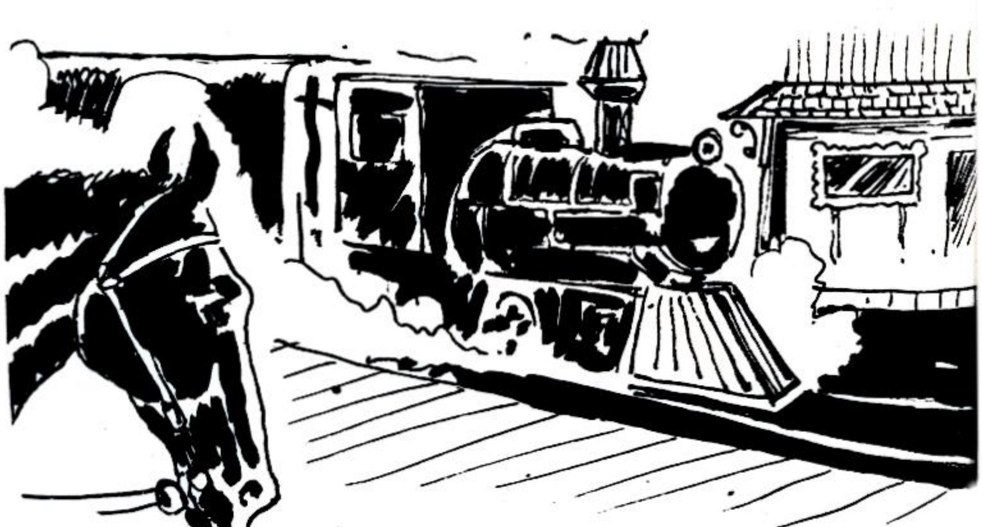
ووثب جو ايضا. ورحنا نعدو الهوينى خلال المتنزه وخلال القرية حيث كان الناس واقفين في ابوابهم ليلقوا آخر نظرة ويقولوا: بارك الله فيهم.

وعندما وصلنا محطة القطار، اظن ان السيدة سارت من العـربة الى غرفة الانتظار. وسمعتها تقول بصوتها الحلو: «وداعا ياجون. بارك الله فيك».. وشعرت باللجام

يرتعش، ولكن جون لم يجب لعله لم يستطيع الكلام. وما ان انـزل جو الامتعة من العربة، حتى ناداه جون ان يقف بجـانب الخيـل الى حين ذهابه الى الرصيف. جو المسكين. وقف قريبا من رأسينا ليخفي دموعه. وسرعان ما اتى القطار ينفث في المحطة، ولبث دقيقتين او ثلاث دقـائق واصـطفقت الابواب، وصفر الحارس، وانساب القطار مبتعدا، ولم يترك خلفه سوى سحب من الدخان الابيض وبعض القلوب المثقلة بالحزن.

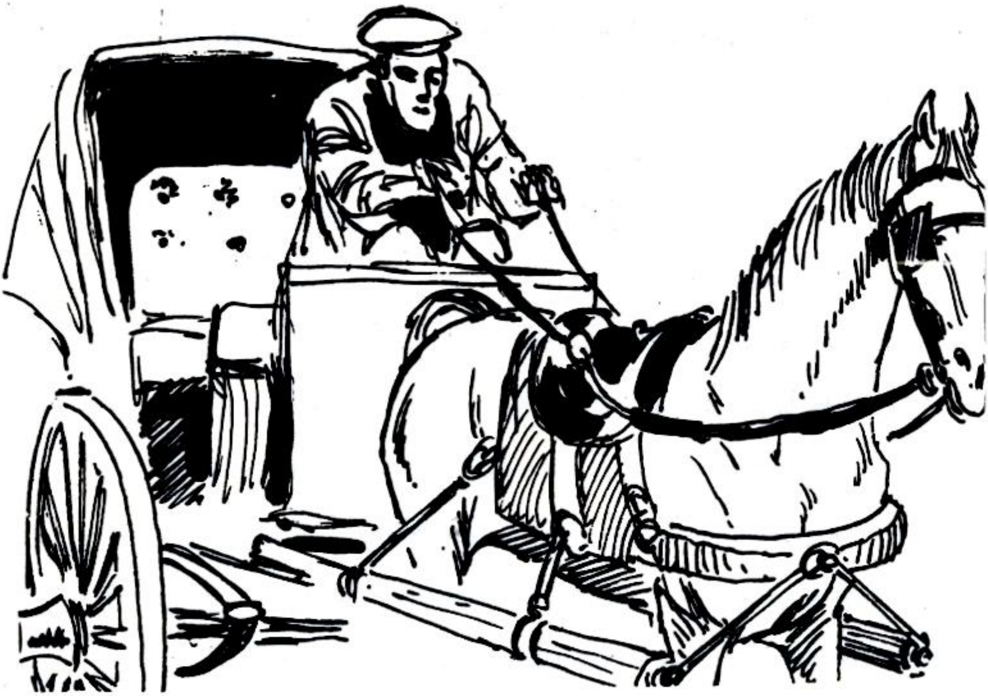
وعندما اختفى عن الانظار تماما، عاد جون وقال: «لن نراهـا ابـدا.. ابـدا» وتناول العنان، وصعد على كرسي القيادة مع جو وعدنا الى البيت على مهل.

ولكنه لم يعُد بيتنا الآن



الجزء الثاني

٣٢
بهو اللورذات



في صباح اليوم التالي، بعد الافطار، شد جو «الرشيق». الى عربة السيدة الخفيفة ليأخذه الى الابرشية اي منزل القس. جاء الينا وودعنا اولا، وصهل

«رشيق» الينـا من الفنـاء، ثم اسرج جون «الشهباء» والبسني عناناً، وجرى بنا عبر الريف حوالي خمسة عشر ميلا الى متنزه بهو اللوردات، حيث يسكن اللورد و ــــ.

كان البيت رائعا وفيه اصطبلات كثيرة. دخلنا الفناء من مدخـل حجري، وسأل جون عن مستر يورك الذي جاء بعد وقت قصير. كان كهلا وسيما. ويدل صوته على إنـه مطاع الكلمة كان ودوداً، شديد الادب مع جون. وبعد ان القى علينا نظرة عابرة نادى سائسا لكي يأخذنا الى حظائرنا. ودعا جون الى تناول شيء من الشراب المنعش.

اخذنا الى اصطبل حسن الاضاءة والتهوية، ووضعنا في حظيرتين متجاورتين. وحس ابداننا وقدم لنا الطعام. وبعد نصف ساعة دخل جون ومستر يورك الذي سيكون حوذينا الجديد قال الرجل بعد تأملنا مليا: مستر جون مانلي، لا ارى فيهما عيبا، ولكننا نعرف جميعا ان للخيل مزايـا خاصــة كالبشر، وانها تحتاج احيانا الى معاملة مختلفة. واود ان اعرف ان كان في اي منهما شيء غريب. فقـال جون: لا اعتقد ان في هذه البلاد فرسين افضل منهمـا، واني ليحــزنني حقـا فراقهمـا، ولكنهمـا غير متشـابهـين. للادهم مزاج بالغ حد الكمـال. واظنه لم يسمع في حياته كلمة قاسية او تلقى ضربة منذ ان كان

مهراً، ويبدو ان منتهى بهجته هو أداء ما ترغب فيه.. اما الشهباء فاظن انها تلقت معاملة سيئة وسمعنا مثل ذلك من البائع . فجاءت الينا وهي ترتاب في كل شيء وتعض، ولكنها عندما تعرفت على مكاننا جيدا، زال عنها ذلك تدريجيا، ولم ار فيها طوال ثلاث سنين شيئا من سوء الطبع، وهي اذا ما احسنت معاملتها فلا فرس افضل منها ولا اكثر استجابة ولكنها اكثر نزقاً وانفعالا من الجواد الادهم، فالذباب يضايقها اكثر منه، ويغيظها اي خطأ في العدة، واذا ما اسيئت معاملتها او استعمالها فمن المحتمل جدا ان تثأر، ضربة بضربة وانت تعلم ان كثيرا من الخيل الاصيلة تفعل ذلك احيانا.

فقال يورك: طبعاً، اني افهم ذلك، ولكنك تعلم انه ليس من السهل في مثل هذه الاصطبلات ان تجعل السواس كما يجب ان يكونوا. واني لابذل مافي وسعي وسأظل كذلك. وسوف اتذكر ماقلت لي عن الفرس.

وتوقف جون وقال وهما خارجان من الاصطبل: يحسن بي ان اذكر لك اننا لم نستعمل اللجام المزدوج لاي من هذين الفرسين. وخصوصا الجواد الادهم، وقد قال البائع ان الشكيمة المرفوعة هي التي افسدت مزاج الفرس الاخرى.

فقال يورك: يجب ان يوضعا في اللجام المرفوع، ما

داما هنا ولكنني افضل اللجام الطليق المنفصل. اما اللورد فانه معتدل، صائب التفكير بشأن الخيل، غير ان سيدتي - مسألة اخرى فانها تساير الزي الحديث. فهي لا تنظر الى خيل عربتها ان لم تكن مرفوعة الرؤوس بقوة. واني اعارض دائما استعمال الشكيمة المرفوعة. وسأظل كذلك، ولكن لا مفر من استعمالها عندما تركب سيدتي!

فقال جون: يؤسفني ذلك، اسفا شديدا. وعلي ان اذهب الآن والا فاتني القطار.

وعاد الينا وربتنا وكلمنا آخر مرة وقد بدا صوته حزينا ووضعت وجهي قريبا اليه، وذلك كل ما استطعت ان افعله لاقول له وداعا، ثم غادرنا ولم اره بعد ذلك قط.

جاء لورد و - في اليوم التالي ليلقي نظرة علينا، وبدا مسرورا بمظهرنا. وقال: لي ثقة عظيمة بهذين الفرسين مما حدثني به صديقي مستر كوردن عنهما. وهما ليسا متماثلين في اللون طبعا، غير انني ارى انهما يصلحان للعربة اثناء وجودنا في الريف. وقبل أن اذهب الى لندن يجب ان احاول ايجاد فرس مماثل للبارون.

«اعتقد ان الجواد الادهم ممتاز في الركوب».

فاخبره يورك بما قال جون عنا. فقال: حسن اذن، يجب ان تهتم بالفرس، وتيسر لها اللجام المرفوع. واظن انهما سيسيران سيرا حسنا بشيء قليل من المداراة في

بداية الامر. وسأذكر ذلك اليوم لسيادتها.

في عصر ذلك اليوم شدت العدة وربطنا الى العربة، وعندما دقت ساعة الاصطبل الثالثة، اخرجنا امام البيت، كان ضخما جدا، واكبر من البيت القديم في بيرتويك ثلاث او اربع مرات، ولكن ليس بمثل بهجته، اذا كان للفرس ان يبدي رأيه. ووقف خادمان متأهبين لابسين بزتين رماديتين وسراويل حمرا وجوارب بيضا. وسمعنا في الحال حفيف ثياب حرير عندما نزلت درجات السلم الحجري. ودارت حولنا لتلقي نظرة الينا. كانت طويلة متغطرسة، ولم تكن تبدو راضية عن شيء، غير انها لم تقل شيئا، وركبت العربة. كانت تلك اول مرة لي البس فيها اللجام المرفوع، ولابد ان اقول انه بالرغم من الازعاج الاكيد لعدم القدرة على تحريك رأسي الى الاسفل بين حين وآخر، فانه لم يسحب رأسي اعلى مما اعتدت عليه. شعرت بالقلق بشأن شهباء ولكنها بدت هادئة راضية.

اذهب الآن والا فاتني القطار.

وعاد الينا وربتنا وكلمنا آخر مرة وقد بدا صوته حزينا ووضعت وجهي قريبا اليه، وذلك كل ما استطعت ان افعله لاقول له وداعا، ثم غادرنا ولم اره بعد ذلك قط.

جاء لورد و ـ في اليوم التالي ليلقي نظرة علينا، وبـ

مسرورا بمظهرنا. وقال: لي ثقة عظيمة بهذين الفرسين مما حدثني به صديقي مستر كوردن عنهما. وهما ليسا متماثلين في اللون طبعا، غير انني ارى انهما يصلحان للعربة اثناء وجودنا في الريف. وقبل ان اذهب الى لندن يجب ان احاول ايجاد فرس مماثل للبارون.

«اعتقد ان الجواد الادهم ممتاز في الركوب».

فاخبره يورك بما قال جون عنا. فقال: حسن اذن، يجب ان تهتم بالفرس، وتيسر لها اللجام المرفوع . واظن انهما سيسيران سيرا حسنا بشيء قليل من المداراة في بداية الامر. وسأذكر ذلك اليومْ لسيادتها.

في عصر ذلك اليوم شدت العدة وربطنا الى العربة، وعندما دقت ساعة الاصطبل الثالثة، اخرجنا امام البيت، كان ضخما جدا، واكبر من البيت القديم في بيرتويك ثلاث او اربع مرات، ولكن ليس بمثل بهجته، اذا كان للفرس ان يبدي رأيه. ووقف خادمان متأهبين لابسين بزتين رماديتين وسراويل حمرا وجوارب بيضا. وسمعنا في الحال حفيف ثياب حرير عندما نزلت درجات السلم الحجري. ودارت حولنا لتلقي نظرة الينا. كانت طويلة متغطرسة، ولم تكن تبدو راضية عن شيء، غير انها لم تقل شيئا، وركبت العربة. كانت تلك اول مرة لي البس فيها اللجام المرفوع، ولابد ان اقول انه بالرغم من

الازعاج الاكيد لعدم القدرة على تحريك رأسي الى الاسفل بين حين وآخر، فانه لم يسحب رأسي اعلى مما اعتدت عليه. شعرت بالقلق بشأن شهباء ولكنها بدت هادئة راضية.

في الساعة الثالثة من اليوم التالي اتينا مرة اخرى لدى الباب، ووقف الخادمان كالسابق. وسمعنا حفيف الثوب بالحرير، ونزلت السيدة الدرجات وقالت بصوت متغطرس: يورك، يجب ان ترفع رأسي الحصانين اعلى! لا يمكن ان اراهما هكذا.

نزل يورك وقال بكثير من التبجيل: ارجو عفوك سيدتي، ولكن هذين الفرسين لم يوضعا في شكيمة منذ ثلاث سنين، ويقول سيدي اللورد من الاسلم تعويدهما عليها بالتدريج. ولكن اذا شئت سيادتك رفعتهما قليلا. فقال: افعل ذلك

وجاء يورك الى رؤوسنا وقصر العنان بنفسه قليلا وفي هذا القليل فرق، سواء خيرا او شرا. وكان علينا في ذلك اليوم ان نرقى تلا. ثم بدأت افهم ماسمعت عنه. اردت ان ادفع رأسي الى الامام واسحب العربة الى الاعلى بعزم، كما اعتدنا ان نفعل، ولكن بلا جدوى، فقد كان عليّ ان اسحب ورأسي مرفوع، مما سلبني كل حيويتي، فتحول الشد على ظهري وقوائمي. وعندما رجعنا قالت شهباء

والآن عرفت ذلك! ومع ذلك فهو ليس سيئا، واذا لم تتدهور الامور اكثر من هذا، فانني لن اقول شيئا، لان معاملتنا حسنة هاهنا، غير انهم اذا احكموا الشد اعلى من هذا، فليحذروا! فانا لا استطيع الاحتمال، ولن احتمل.

وصار اللجام يقصر قليلا يوما بعد يوم. وبدلا من التطلع بسرور الى لبس العدة، كما اعتدت ذلك، فانني شرعت اخشاها. وبدت شهباء ايضا ضجرة، بالرغم من انها تحدثت قليلا. وظننت، اخيرا، ان سوء الحال قد انتهى، اذ لم يعد تقصير العنان يتم اياما عدة، وعقدت العزم ان ابذل غاية جهدي بالرغم من المصاعب والمضايقة المستمرة بدلا من المسرة، ولكن الاسوأ لن يحدث.

٢٣
صراع من أجل الحرية

جاءت سيدتي ذات يوم متأخرة اكثر من المعتاد، ولثوبها الحرير حفيف اعلى من ذي قبل.

وقالت: الى بيت الدوقة بـــ. «وتوقفت قليلا ثم قالت:» يورك ألن ترفع رؤوس هذه الخيل اعلى؟ ارفعها في الحال،

ولا اريد لها شيئا من هذه المداراة والسفاسف.

تقـدم مع رك اليّ اولا وقد وقف السائس عند رأس شهبـاء. رفع رأسي الى الوراء وشد العنان بقوة لاتكاد تطاق، ثم تحول الى «شهباء» التي كانت تهز رأسها نافدة الصبر الى الاعلى والاسفل. على وفق عادتها الآن. كانت تعرف جيداً ماذا سيحدث وما ان مرر العنان من الحلقة لكي يقصره، حتى انتهزت الفرصة وشبت فجأة، فضربت انف يورك بقوة، وطارت قبعته. وكاد السائس يقع على الارض. وهبّ الاثنان فورا الى رأسها. ولكنها كانت ندا لهما وراحت تثب وتشب وترفس بطريقة يائسة. واخيرا رفست عريش العـربـة وسقطت، بعد ان ضربتني على رجلي القريبة اليها.

ولا يعرف مدى الاذى الذي كانت ستجترحه، لولا جلوس يورك فورا على رأسها لئلا تقاوم، ونداؤه في الوقت نفسه: حل الحصان الاسود! اركض الى الرافعة وفك العريش. وقص السير من هنا، اذا لم تستطيع ان تحله.

ركض احد الخادمين الى الرافعة وجلب الآخر سكينا من البيت. واطلقني السائس فورا من شهباء ومن العربة وقـادني الى حظيرتي، ووضعني فيها وعاد راكضا الى يورك. تأثرت كثيراً بما حدث، ولو انني اعتدت الرفس او التشب لما ترددت في فعلهما انذاك. غير انني لم افعل شيئا

فوقفت هناك غاضبا متألما في ساقي، ورأسي مايزال مشدودا عاليا بالحلقة على السرج، ولا قوة لي في خفضة. كنت شديد البؤس، وشعرت برغبة عارمة في رفس اول من يقترب مني، ولكن قبل مضي وقت طويل اقتاد شهباء سائسان الى الاصطبل وهي مصابة بضربات وكدمات كثيرة. وجاء يورك معها واصدر اوامره، ثم اتى لالقاء نظرة علي. وفك رأسي في الحال.

وقال لنفسه: اللعنة على هذه الاعنة المرفوعة. ظننت اننا سنصاب بشيء من الضرر في الحال - وسوف يغتاظ سيدي كثيرا.

ولكن اذا لم يستطع زوج امرأة ان يتحكم فيها، فان الخادم طبعا لا يستطيع عمل شيء، لذلك فانا اغسل يدي من الامر، واذا كانت لا تستطيع الوصول الى حفلة حديقة الدوقة، فليس في يدي حيلة.

لم يقل يورك ذلك امام الرجال، فقد كان يتكلم باحترام دائما لدى حضورهم. وراح يتحسسني في جميع اجزاء بدني، وما لبث ان وجد مكان الرفسة فوق العرقوب. كان متورما ومؤلما. فامر ان يدلك بالاسفنجة والماء، ثم يوضع عليه شيء من المرهم.

وانزعج لورد و كثيرا عندما علم بما حدث. وانحى باللامة على يورك لا نصياعه الى زوجته، فاجابه انه في

المستقبل يفضل ان يتلقى اوامره من سيادته فقط، ولكني اظن انه لم يتحقق شيء من ذلك، لان الامور سارت كسابق عهدها. واظن ان يورك قد وقف في نصرة خيله، ولعلي لست حكما خبيرا.

ولم تشد «شهباء» بعد ذلك الى العربة قط، ولكنها عندما شفيت من كدماتها قال احد ابناء اللورد و— انها يمكن ان تكون صالحة للصيد. اما انا فقد بقيت مقيدا للخدمة في العربة، وصار لي شريك جديد اسمه ماكس اعتاد العنان المشدود بقوة. وسألته كيف يتحمل ذلك.

فاجاب بقوله: اتحمله لانه واجب، ولكنه يقصر حياتي، ويقصر حياتك ايضا.

فسألته: اتظن ان اصحابنا يعرفون سوء العاقبة علينا؟

فرد قائلا: لا ادري، ولكن التجار والاطباء البيطريين يعرفون ذلك جيدا. كنت ذات مرة لدى تاجر كان يدربني مع حصان آخر لنسير معا. وقد رفع رؤوسنا، كما قال، كل يوم درجة. فسأله رجل حاضر لماذا فعل ذلك. فقال: لان الناس لا يرغبون في الشراء مالم نفعل ذلك. فاهل لندن يريدون خيلهم دائما مرفوعة الرؤوس، وان تخطو خطوات عالية. وان ذلك يضر بالخيول طبعا، ولكنه ينفع في التجارة، وسرعان مايصيب الخيل بالانهاك او المرض،

فيتحولون الى زوجين آخرين. هذا ما قاله على مسمعي، وتستطيع ان تحكم بنفسك.

ومن الصعوبة الى اصف ما عانيت من العنان الاشهر الاربعة في عربة سيدتي. واني لواثق تمام الثقة لو ان الامر دام مدة اطول لانهارت صحتي او مزاجي. كنت قبل ذلك لا اعرف ما معنى الزبد في الفم، ولكن فعل الشكيمة الحادة في فمي الآن، على لساني وفكي، والوضع المقيد لرأسي ورقبتي كثيرا ما جعل فمي يرغي تقريبا. ويظن بعض الناس ان ذلك منظر جميل ويقولون: «يالها من مخلوقات رائعة مفعمة بالحيوية!» ولكنه امر غير طبيعي للخيول كما للبشر ان تزبد افواهها، وهو دليل على عدم الراحة، فيتحتم ان يولي الامر شيئا من الرعاية. وفضلا عن ذلك فقد تسلط ضغط على قصبتي الهوائية الذي جعل تنفسي غير مريح. وعندما كنت اعود من عملي كانت رقبتي وصدري متوترين واشعر بالانهاك والوهن.

كنت في بيتي القديم اعرف دائما ان جون وصاحبي صديقين حميمين لي، اما هنا فليس لي من صديق بالرغم من حسن المعاملة في كثير من الامور ولعل يورك يعلم، ويقينا هو يعلم، مدى الضيق الذي يسببه لي ذلك العنان.

ولكني اظن انه اعتبر الامر طبيعيا، لامفر منه. وعلى اي حال، لم يتم اي شيء في سبيل التخفيف عني.

٢٤
ليدي ان أو الحصان الهارب

في أوائل الربيع ذهب لورد و— وجزء من عائلته الى لندن واخذوا معهم يورك. وتركوني وشهباء وبعض الخيول الاخرى لاداء اعمال البيت. وتركوا رئيس السواس مسؤولا عن ذلك.

وكانت ليدي هارييت شديدة العجز. فبقيت في البهو ولم تخرج في العربة قط، اما ليدي آن فقد كانت تفضل امتطاء صهوات الجياد مع اخيها او اولاد عمومتها. كانت فارسة ممتازة، مرحة ومهذبة كما كانت جميلة اختارتني فرسا لها واسمتني «الصارم الاسود». كنت استمتع بتلك النزهات كثيرا في الجو الرائق، البارد، مع «شهباء» احيانا، ومع «لزي» احيانا اخرى. كانت لزي هذه فرساً كميتا مشرقة، اصيلة، اثيرة لدى الرجال لسلوكها الرائع وحيويتها الجمة؛ غير ان شهباء قالت لي انها كانت عصبية المزاج نوعاً ما.

كان رجل اسمه بلانتاير ممن يمكثون في البهو، يكثر ركوب لزي ويثني عليها، فامرت ليدي آن بوضع السرج الجانبي على لزي والسرج الآخر عليّ. وعندما اتينا الى الباب، بدا الرجل غير مرتاح.

فقال: ماهذا؟ هل تعبت من «الصارم الاسود» الطيب.

فاجابت: لا، ابدا. ولكني وددت ان تمتطيه مرة، وسأحاول امتطاء لزي الساحرة. وعليك ان تعترف انها في حجمها ومظهرها اشبه بحصان سيدة مما عليه حصاني الاثير.

فقال: انصحك الا تركبيها. انها مخلوقة ساحرة، ولكنها عصبية المزاج بالنسبة الى امرأة. واوكد لك انها ليست امينة تمام الامان. فاني التمسك ان تبدلي السرج.

فقالت ليدي آن ضاحكة: يا ابن عمي العزيز! ارجو الا تقلق فكرك الطيب الحريص بشأني. فقد كنت فارسة منذ طفولتي الباكرة، كثيراً ماتبعت كلاب الصيد، بالرغم من انني اعرف انك لا تستسيغ صيد السيدات. ومع كل هذا فانها هي الحقيقة واني مزمعة ان اجرب ركوب لزي التي تعجبكم انتم معشر الرجال. فارجو ان تساعدني في اعتلاء صهوتها كصديق صدوق كما عهدتك.

- ولم يبق مايقال. فوضعها بحرص على السرج، ونظر

الى الشكيمة واللجام، واعطاها العنان بلطف بيدها، ثم ركبني. وما ان شرعنا بالمسير، حتى خرج خادم وبيده قصاصة ورق ورسالة من ليدي هارييت: ايمكن ان يسألا دكتور آشلي من اجلها ويجلبا الجواب؟

كانت القرية على مبعدة ميل تقريبا وكان بيت الطبيب آخر البيوت فيها. انطلقنا مبتهجين حتى بلغنا بابه الذي يفضي الى طريق خاصة قصيرة تصل الدار بين اشجار سامقة دائمة الخضرة.

وترجل بلانتاير لدى الباب وتوجه لفتحه امام ليدي آن ولكنها قالت: سأنتظرك هنا، ويمكنك تعليق اللجام على الباب.

ونظر اليها مرتابا وقال: لن ابقى خمس دقائق.

فقالت: لا تستعجل، فلن نهرب منك انا ولزي.

وعلق اللجام على احد المسامير الحديدية السائبة، وسرعان ما اختفى بين الاشجار وظلت لزي واقفة الى جانب الطريق على بعد بضع خطوات وظهرها اليّ. وكانت سيدتي الشابة جالسة مرتاحة وقد ارخت العنان وهي تترنم باغنية قصيرة. اصغيت الى وقع اقدام بلانتاير حتى وصل البيت وسمعته يطرق الباب.

كان على الجانب الآخر من الطريق مرج بابه مفتوح. عند ذلك جاءت بعض خيول العربات وعدة امهار تعدو

بغـير نظام وصبي وراءها يقرعها بسوط طويل. وكانت الامهـار طائشـة متهـورة، وانطلق احدها عبر الطريق وتخبط بساقي لزي الخلفيتين لا ادري اكان المهر غبيا ام فرقعـة السوط عالية، ام كلاهما، فقد رفست رفسة عنيفـة وانطلقت تعدو طائشة. وكانت مباغتة كادت ان تسقط ليدي آن غير انها مالبثت ان اعتدلت. فصهلت صهيلا حادا عاليا طلبا للنجدة. وكررت الصهيل مرارا وانا اضرب الارض نافد الصبر واهز رأسي لاطلق العنان.

لم انتظر طويلا عندما عاد بلانتاير راكضا الى الباب. وتـطلع حوله قلقـا. فلمـح الفـرس الطائـرة بعيدا على الطريق. وقفز الى السرج في لمح البصر. ولم اكن بحاجة الى سوط او مهاز لانني كنت متلهفا مثل فارسي. ولما رآها، اطلق لي، العنان ومال الى الامام.

ثم انعـطف يميناً، ثم انقسم بعد ذلك الى طريقين. واختفت عن ابصـارنـا قبـل ان نصـل المنعطف. فاي الطريقين سلكت؟ كانت امرأة واقفة لدى باب حديقها. تظلل عينيها بكفها وتنظر بلهفة الى اعلى الطريق. وهتف بلانتاير دون ان يسحب الزمام قائلا:

اي طريق؟

صاحت المرأة «الى اليمين» واشارت بيدها، وسلكت الطريق الايمن. وابصرنا بها بعد لحظة، ثم اختفت مرة

اخرى في منعطف آخر. ولمحناها عدة مرات، ثم اختفت عنا. ويبدو اننا لم نحرز الا تقدما ضئيلا وراءهما. وكان مصلح طريق عجوز واقفا قرب كومة من الاحجار، وقد سقطت مجرفته، ورفع يديه. وعندما اقتربنا، اشار الينا كأنه يريد الكلام. فسحب بلانتاير اللجام قليلا.

«الى الارض المشتركة، الارض المشتركة، سيدي! استدارت الى هناك.

كنت اعرف هذه الارض جيدا. لم تكن في اغلبها ارضا منبسطة، يكسوها نبات الخلنج وشجيرات الحولق الخضر الغامقة، وهنا وهناك اشجار شوكية خفيفة. وثمة فسحات مكشوفة من العشب القصير الناعم، وتلال نمل وخلد في كل مكان ـ انه اسوأ مكان اعرفه لا يمكن العدو السريع فيه.

وما كدنا نستدير الى الارض المشتركة حتى لمحنا الرداء الاخضر يخفق امامنا. وكانت قبعة سيدتي قد طارت، وشعرها البني الطويل يتطاير خلفها. وكان رأسها وجسمها مائلين الى الوراء، كأنها تسحب الفرس بكل مابقي لها من قوة، وكأن تلك القوة قد استنفدت. ومن الجلي ان وعورة الارض قد قللت من سرعة لزي ولاحت لنا فرصة ادراكها. وكان في منتصف الارض البور قد شق خندق حديثا، وتراكم التراب من الحفر على الجانب

الآخر. ولا ريب انه سيقف مانعا امامها!

ولكن لا، لم يحدث ذلك، فلم تكد لزي تتوقف لحظة بل وثبت وتعثرت على ركام الاتربة وهوت.

وتـأوه بلانتاير وقال : «الآن ابذل جهدك ياصارم!» واعـطاني زماما حازما. واستجمعت قواي وبوثبة عزوم طفرت الخندق وضفته بكل يسر.

كانت السيدة الشابة المسكينة مستلقية دون حراك بين الاحراش ووجهها على الارض. وجثا بلانتاير وناداها باسمها. ولم تجب. وقلب وجهها بلطف الى الاعلى. وكان شاحبا شحوب الموتى، وعيناها مغمضتين.

«اني، عزيزتي آني. تكلمي ارجوك!» ولكن بلا جواب وفك ازرار بدلتها لركوب الخيل، وارخى ياختها، وجس يديها ورسغيها، ثم نهض وتطلع حوله حزينا، بحثا عن نجدة. وكان على بعد عظيم رجلان يقطعان العشب، تركا عملهمـا ليمسكا بها عندما شاهدا لزي تجري جامحة دونما فارس.

ومـالبث بلانتاير ان اتى بهما الى ذلك المكان. وبدا الرجل الكبير شديد الاضطراب لدى رؤيته المنظر فسأل ماذا يمكنه ان يفعل.

«اتستطيع الركوب؟».

«لست ياسيدي فارسـا ممتـازا. غير انني مستعد

للمخاطرة برقبتي من اجل ليدي آن. فقد كانت غاية في الطيبة مع زوجتي في الشتاء.

«اذن اركب هذا الحصان، ياصديقي، وستكون رقبتك في أمان، واذهب الى بيت الطبيب واطلب اليه ان يحضر في الحال، ثم اذهب الى البهو واخبرهم بكل ماتعرف، واطلب منهم ان يرسلوا الي العربة مع خادمة ليدي ان. سابقى هنا.

«حسنا سيدي، سأبذل جهدي. واتضرع الى الله ان تفتح السيدة الصغيرة عينيها.» ولما رأى الرجل الآخر ناداه: «جو، اجلب، شيئا من الماء، واخبر سيدتي ان تأتي باسرع ما تستطيع.»

ثم صعد الى السرج بشيء من الذعر وصاح «هيا» وصفق جانبي بساقيه، وانطلقنا باستدارة صغيرة تحاشيا للخندق.

لم يكن لديه سوط، وقد بدا مضطربا لذلك، غير ان سرعتي خففت ذلك الاضطراب، ووجد ان افضل شيء يفعله ان يظل ملتصقاً بالسرج وليتمسك بي برجولة. وهززته قليلا قدر استطاعتي، الا مرة او مرتين في الارض الوعرة حيث ينادي:

«ثابر هيا! ثابر» وكنا على الطريق العام على مايرام وعلى طريق الطبيب مثل رجل ممتاز ومخلص وطلبوا اليه ان

يدخل ويشرب شيئا

فقال: لا، لا. سارجع اليهم فوراً من طريق مختصر خلال الحقول وساصل اليهم قبل العربة.

ودعا الامر الى كثير من التسرع والانفعال بعد انتشار الخبر ووضعت في حظيرتي، ونزع عني السرج واللجام. والقي عليّ دثار.

واسرجت شهباء وارسلت بسرعة فائقة الى لورد جورج وسرعان ماسمعت العربة قادمة من الفناء.

وبدا الوقت طويلا قبل عودة شهباء، وقبل تركنا وحيدين ثم اخبرتني مارأت.

فقالت: لا استطيع ان اخبرك اشياء كثيرة. فقد قطعت معظم الطريق عدوا سريعا ووصلنا هناك عندما ركب الطبيب. كانت امرأة جالسة على الارض ورأس السيدة في حضنها. وصب الطبيب شيئا في فمها، وكل ماسمعته «انها ليست ميتة»، ثم قادني رجل الى مسافة قريبة. ونقلت بعد قليل الى العربة، وعدنا الى البيت معا. وسمعت سيدي يقول لرجل وقف يستعلم انه يأمل ان عظامها لم تكسر، ولكنها لم تتلكم.

عندما اخذ لورد جورج شهباء الى الصيد، هز يورك رأسه وقال ان يدا حازمة ينبغي ان تدرب فرسا للموسم الاول، وليس راكبا كيفما اتفق مثل لورد جورج.

احبت شهباء ذلك كثيرا، غير انها عندما كانت تعود كنت ارى احيانا انها متوترة جدا، وكانت تسعل بين حين واخر.

وكانت عالية النفس، جذلة فلم تشكو، ولكنني لم اتمالك نفسي من القلق عليها.

بعد يومين من الحادث، زارني بلانتاير. وربتني واثنى عليّ كثيرا واخبر لورد جورج انه متأكد ان الحصان عرف بوضع «اني» الخطر كما كان هو نفسه يعرف ذلك. فقال: لم اكن استطيع تقليل سرعته، عندما اريد. يجب الا تركب حصانا غيره». وعلمت من حديثهما ان سيدتي الشابة قد تعدت مرحلة الخطر ولن تلبث ان تكون قادرة على الركوب مرة اخرى. هذا خبر سار لي. ورحت اتطلع الى حياة سعيدة.

٢٥
روبن سمث

ينبغي الآن ان اتحدث قليلا عن روبن سمث الذي اصبح مسؤولا عن الاصطبلات بعد ماغادر يورك الى لندن. لم يكن احد اكثر منه تفهما لمهنته، وعندما يكون في حال جيدة، فليس ثمة من هو اكثر اخلاصا ونفعا منه.

كان رقيقا وذكيا في تعامله مع الخيل، ويستطيع ان يداويها كأي بيطري، فقد عاش سنتين مع طبيب بيطري. كان سائقا من الطراز الاول، يستطيع قيادة عربة ذات اربعة جياد او مركبة ذات جوادين احدهما خلف الآخر، كما يسوق عربة ذات حصانين بيسر.

كان رجلا وسيما، حسن العلم، دمث الاخلاق. يحبه الجميع، على ما أعتقد، وخصوصا الخيل. والشيء العجيب الذي يثير التساؤل كونه في وظيفة ثانوية وليس حوذيا يحتل المقام الاول مثل يورك، ولكن فيه عيب كبير الا وهو حبه الشرب. وهو لا يشبه بعض الناس المدمنين فقد كان يبقى معتدلا غير مسرف اسابيع او اشهرا متواصلة، ثم يخرق ذلك ويأخذ «فترة» كما يسميها يورك، ويلحق بنفسه الخزي، والرعب لزوجته، والازعاج لكل من يعمل معه. ولكنه كان امرؤا نافعاً، فكتم يورك امره مرتين او ثلاث مرات ومنع وصوله الى علم اللورد.

ولكن ذات ليلة، كان على روبن ان يوصل جماعة الى البيت من حفلة راقصة ولكن كان ثملا لا يستطيع مسك الاعنة، فقام احد الرجال من الجماعة وقعد على الكرسي واوصل السيدات الى البيت. فلم يكن بالامكان اخفاء ذلك، فصرف روبن في الحال من خدمته، وكان على زوجته وأطفاله الصغار المساكين مغادرة الكوخ الجميل

والخروج من باب المتنزه الى حيثما يستطيعون.

اخبرني لي «ماكس» العجوز بكل ذلك، لانه حصل قبل فترة، ولكنه اعيد قبل مجيئي وشهباء الى هنا. فقد توسط يورك من أجله لدى اللود الطيب القلب وتعهد الرجل مخلصا الا يذوق قطرة اخرى مادام يعيش في ذلك المكان، وحافظ على عهده، فوثق به يورك واعتقد بانه يمكن ان يعهد اليه بملء مكانه لدى غيابه، فقد كان بارعاً وامينا بشكل يبدو انه لا يصلح احد له غيره.

الآن اوائل نيسان. والعائلة يتوقع وصولها الى البيت في أيار وكان لابد من اصلاح العربة الخفيفة لان العميَد بلانتاير كان مضطراً الى العودة الى فوجه. فاتفقوا ان يأخذه يورك بها الى المدينة، ثم يعود راكبا، لذلك اخذ معه سرجا، واختاروني لهذه الرحلة. وفي المحطة وضع العميد بعض النقود في يد روبن سمث وودعه قائلا: اهتم بسيدتك الصغيرة ياروبن، ولاتدع «الصارم الاسود» يركبه احد من الشباب المزعجين ـ ليبق للسيدة وحدها.

تركنا العربة لدى المصلح وعرّج روبن بي الى «الاسد الابيض» حيث امر السائس ان يحسن اطعامي ويجعلني متأهبا له في الساعة الرابعة. وتقلقل مسمار في احد النعلين الاماميين لدى مجيئي ولكن السائس لم ينتبه اليه الا في حوالي الساعة الرابعة. ولم يصل سمث

الى الباحة الا في الساعة الخامسة وقال انه لن يغادر الا في السادسة، لانه التقى بعض الاصدقاء القدامى، ثم اخبره الرجل عن المسمار وسأله هل بالامكان الاهتمام بالنعل؟

فقال سمث: كلا، سيكون على مايرام حتى نعود الى البيت. تكلم بطريقة فظة وصوت عال. واعتقدت انه على خلاف عادتــه في ان يهمل النعل، لانه كان على العموم حريصاً بشكل خاص على مايخص المسامير في نعالنا. ولم يأت في الســادســة ولا في السابعة. ولا في الثامنة. وقاربت الساعة التاسعة قبل ان يأتي الي صائحا بصوت فظ، عال، كان يبـدو في مزاج سيء وسب الســائس ولا ادري لماذا؟

وقف صاحب الفندق لدى الباب وقال: «على مهلك يامستر سمث!» ولكنه رد عليه غاضبا وهو يسب. وقبل ان يخرج من المدينة ، شرع يعدو مسرعا، ويضربني ضرباً مبرحاً بسوطه، بالرغم من انني كنت اجري باقصى سرعتي. لم يكن القمـر قد طلع بعـد، وكان الظلام دامساً. وكانت الطرقات محصبة، فقد جرى اصلاحها حديثاً، فارتخى النعـل اثناء سيري عليها بهذه السرعة. وانخلع عندما بلغنا قرب بوابة الطريق الرئيسة.

لو كان سمث مالكـا حواسه لانتبه الى اي شيء من

الخلل في خطوي، ولكنه كان شديد السكر فلم يلحظ شيئا.

وكـان وراء الطريق العام قطعة طويلة من الدرب لا يمكن قيادة حصان بسرعة دونما مجازفة خطيرة. انخلع النعـل في هذا الطريق، وكنت مجبرا على العدو باقصى سرعة، وكان فارسي يقرعني بالسوط ويلعنني لعنا مقنعا وهو يستحثني على جري اسرع. كنت طبعا اعاني بشكل رهيب من الرجـل الحافية. فقد انكسر الحافر وتصدع حتى بلغ الصميم، وتشقق الداخل تشققا فظيعا بفعل الاحجار الحادة.

لا يمكن المواصلة على هذه الشاكلة. اذا لا يستطيع اي حصـان موازنة خطوة في مثل هذه الظروف، كان الالم مبرحا وتعثرت فكبوت بعنف على ركبتي الاثنين. وانقذف سمث نتيجة لسقطتي، وكان ارتطامه قويا تبعا لسرعتي. ومالبثت ان وقفت ورحت اظلع الى جانب الطريق حيث كان خاليا من الاحجار. كان القمر قد طلع تواً فوق سياج الاشجار واستطعت ان ارى في ضوئه سمث ملقى على بعـد خطوات عني. لم ينهض، وبذل جهداً طفيفاً لكي يقوم، ثم اطلق تأوهة عميقة.

كان من الممكن ان اتأوه انا ايضا لانني كنت اعاني من الم شديد في قدمي وركبتي، غير ان الخيل اعتادت

احتمال الامها صامتة. ولم انبس بصوت، بل بقيت واقفا منصتا في مكاني وتأوهة عميقة اخرى من سمث، ولم استطع ان اراه يتحرك بالرغم من استلقائه في ضوء القمر. ولم استطع ان افعل له شيئا ولا لنفسي، ولكنني مكثت استمع لصوت حصان او عجلات او وقع اقدام. ولم يكن الطريق مما يكثر السير فيه، ولعلنا في مثل هذا الوقت من الليل سنبقى ساعات قبل وصول نجدة لنا.

وقفت اراقب وانصت. كانت ليلة جميلة هادئة من ليالي نيسان لاصوت يسمع سوى تغريد بلبل خفيض، ولم يتحرك شيء سوى الغيوم القريبة من القمر، وبومة مرقت فوق سياج الشجيرات. جعلني ذلك اتذكر ليالي الصيف منذ عهد بعيد عندما اعتدت ان استلقي الى جانب امي في المرج الاخضر البهيج لدى المزارع كري.

٢٦
كيف انتهى الامر

كاد الليل ينتصف عندما سمعت وقع حوافر حصان على بعد عظيم. وكان الصوت يضمحل احيانا ويتضح احياناً اخرى ويقترب. ويمر الطريق الى قصر اللوردات بمزارع يمتلكها اللورد. تناهي الصوت الى من تلك

مالكا حواسه لحاول ان يركبه بهدوء في ضوء القمر.
اخشى انه عاد الى عادته القديمة. مسكينة سوزان! بدت شاحبة بشكل رهيب عندما جاءت الى بيتي لتسأل عنه هل عاد. تظاهرت انها لم تكن قلقة، وتعللت باشياء كثيرة قد تكون سببا في تأخره. وتوسلت الي، عدا ذلك كله، ان اذهب لابحث عنه. ولكن ماذا عسانا ان نفعل؟ هذا الحصان يجب ايصاله الى البيت وكذلك الجثمان ـ وهو امر ليس يسيرا حقا.

ثم دار بينهما حديث حتى اتفقا ان يقودني روبرت لكونه مسائسا وان ينقل «نيد» الجثمان، انها مهمة عسيرة ان تضع الجثمان في العربة الصغيرة، ولم يكن معهما احد يمسك شهباء، ولكنها كانت تعرف مايجري كما كنت اعرف، فوقفت جامدة كالحجر.
لاحظت ذلك، لانها لا تصبر على الوقوف ان شعرت بخطأ.

وسار «نيد» وئيدا بحمله الكئيب، وجاء روبرت والقى نظرة الى قدمي مرة اخرى، ثم اخرج منديله وشده حول رجلي وقادني الى البيت. لن انسى مسيرة تلك الليلة ابدا، فقد كانت اكثر من ثلاثة اميال.

قادني روبرت ببطء، وكنت اظلع واعرج على قدر استطاعتي واعاني من الم عظيم. واني متأكد انه كان

مالكـا حواسه لحاول ان يركبه بهدوء في ضوء القمر . اخشى انه عاد الى عادته القديمة. مسكينة سوزان! بدت شاحبة بشكل رهيب عندما جاءت الى بيتي لتسأل عنه هل عاد . تظاهرت انها لم تكن قلقة، وتعللت باشياء كثيرة قد تكون سببا في تأخره. وتوسلت الي، عدا ذلك كله، ان اذهب لابحث عنـه. ولكن ماذا عسـانا ان نفعل؟ هذا الحصان يجب ايصاله الى البيت وكذلك الجثمان ـ وهو امر ليس يسيرا حقا.

ثم دار بينهما حديث حتى اتفقا ان يقودني روبرت لكـونـه مسـائسا وان ينقل «نيد» الجثمان، انها مهمة عسيرة ان تضع الجثمان في العربة الصغيرة، ولم يكن معهما احد يمسك شهباء، ولكنها كانت تعرف مايجري كما كنت اعرف، فوقفت جامدة كالحجر.

لاحظت ذلك، لانها لا تصبر على الوقوف ان شعرت بخطأ.

وسار «نيد» وئيدا بحمله الكئيب، وجاء روبرت والقى نظرة الى قدمي مرة اخرى، ثم اخرج منديله وشده حول رجلي وقادني الى البيت. لن انسى مسيرة تلك الليلة ابدا، فقد كانت اكثر من ثلاثة اميال .

قادني روبـرت ببـطء، وكنت اظلع واعـرج على قدر استطاعتي واعاني من الم عظيم. واني متأكد انه كان

آسفا عليّ لانه كان غالبا ما يربتني ويشجعني ويتحدث الي بكلام لطيف.

اخيرا وصلت الى خطوتي وتناولت شيئا من الحبوب. وبعد ان لف روبرت ركبتي بقماش مبلل، ربط قدمي بكمادة من النخالة لسحب الحرارة وتطهيرها قبل معاينة الطبيب البيطري لها في الصباح، واستطعت ان استلقي على القش وانام بالرغم من الالم.

بعد ان فحص الطبيب البيطري جروحي في اليوم التالي، قال انه يأمل ان المفاصل لم تصب بشيء، ومادام الامر كذلك فيجب الا امنع من العمل، ولكنني لن اتخلص من التشويه. واعتقد انهم بذلوا قصارى جهدهم للقيام بالمعالجة الناجعة، ولكنها استغرقت وقتاً مؤلما. وقيل ان ركبتي اصيبتا بنسيج محبب بعد التئام الجروح، وعولجت بمادة كاوية. وعندما ماشفيت اخيرا، وضعوا سائلا منفطا على مقدم الركبتين لجعل الشعر يعود الى النمو. وكان لهم عذرهم في ذلك. واظنه كان صحيحا.

وبما ان موت سمث كان مفاجئا ولم يشهده احد، فقد جرى تحقيق فيه. وادلى صاحب الفندق والسائس في «الاسد الابيض» وعدة اشخاص آخرين انه كان ثملا عندما خرج من الفندق. وقال حارس بوابة المكوس انه

جاء يجري سريعاً خلال البوابة. ووجد النعل بين الاحجار، فتوضحت القضية لديهم، فابرئت ذمتي ونجوت من كل لائمة.

واشفق الجميع على سوزان، وكادت تجن. وظلت تكرر مرارا:

«كان طيبا - اجل طيبا للغاية! كل ذلك بسبب المشروب اللعين لماذا يبيعون هذا المشروب اللعين؟ اوه، روين، ياروين!»

ظلت تكرر ذلك حتى بعد دفنه. ولما لم يكن لها بيت او اقرباء فانها اضطرت، مع اطفالها الستة، مرة اخرى الى ترك البيت اللطيف عند اشجار البلوط السامقة، ودخول دار الايتام الكئيبة.

٣٧
دمار وتدهور

حالما شفيت ركبتاي شفاء تاما، نقلت الى مرج صغير شهراً او شهرين. ولم يكن فيه اي مخلوق. وبالرغم من انني استمتعت بالحرية وبالعشب اللذيذ، فقد كنت معتادا على حياة الجماعة وشعرت بالوحدة. وكنا انا وشهباء قد اصبحنا صديقين حميمين، فافتقدت صحبتها كثيرا.

وغالبا ماكنت اصهل عند سماع وقع حوافر خيل مارة في الطريق ونادرا ماكنت اتلقى جوابا، حتى فتح الباب ذات يوم، ومن جاء غير العـزيزة «شهباء» نزع الرجل عنها عنانها واطلقها هناك. عدوت اليها اصهل فرحا، وسررنا باللقاء، وسرعان ما اكتشفت ان ذلك اللقاء لم يكن من أجل مسرتنا. يطول سرد قصتها ولكن خاتمتها كانت انها قد دمرتها شدة الركوب، فصرفت ليروا نهاية امرها.

كان لورد جورج شابا لا يأبه بشيء ابدا. فقد كان فارسـا عنيفـا، يخرج الى الصيد متى ماوجد الفرصة سانحة، لايهتم بفرسه مطلقا. وبعد ان تركت الاصطبل اجري في سباق الحواجز للخيل فقرر جورج ان يشترك. وبالرغم من ان السائس اخبره انها مجهدة ومتشنجة قليلا ولم تكن صالحة للسباق، فانه لم يصدق ذلك وراح في يوم السباق يحث شهباء على مجاراة الخيل المتقدمة فاجهدت نفسها بكل نشاطها وجاءت مع الجياد الثلاثة الاوائل، ولكن اصيب تنفسها، كان جورج، فضلا عن ذلك، ثقيلا عليها، فاجهد ظهرها كثيرا.

وقال: «وها نحن هنا، تدمرنا في ريعان شبابنا وقوتنا دمرك سكير، ودمرني احمق. انه امر عصيب.» وشعرنا في قرارة نفسينا اننا لم نعد كما كنا سابقا. علما ان ذلك لم يفسد بهجة صحبتنا. لم نعد نجري كما كنا نفعل قبلا،

ولكن اعتدنا ان نرعى ونستلقي معا ونقف ساعات تحت احدى اشجار الزيزفون الظليلة ورأسانا متقاربان. وهكذا امضينا وقتنا حتى عادت العائلة من المدينة.

رأينا اللورد ذات يوم يدخلُ المرج ومعه يورك. ولما رأيناهما وقفنا ساكنين تحت شجرة الزيزفون حتى وصلا الينا. وفحصانا باهتمام شديد وبدا اللورد مغتاظا.

وقال: ثلاث مئة باون ضاعت بلا فائدة. ولكن مايهمني اكثر هو خيل صديقي هذه، التي ظن انها ستكون في مكان جيد لدي، وها هي ذي قد دمرت. ستبقى الفرس اثني عشر شهرا، وسنرى نتيجة جربها. اما الجواد الادهم فيجب بيعه. هذا شيء مؤسف للغاية. ولكنني لا يمكن الابقاء على فرس له ركب مثل هذه في اصطبلاتي.

فقال يورك: لا يمكن، طبعا، ياسيدي. ولكنه يمكن ان يكون في مكان يهتم بالمظاهر كثيرا، وينال مع ذلك معاملة طيبة. فاني اعرف رجلا في «باث» لديه اصطبلات تاجير خيول وعربات، يشتري الخيل الجيدة بسعر زهيد، واعرف حسن رعايته لخيله وقد اظهر التحقيق شخصية الحصان، وستكون توصيتك او توصيتي ضمانة كافية له.

فقال له اللورد: الافضل ان تكتب اليه يايورك المكان

يهمني اكثر من المال الذي يجلبه.
ثم غادرانا.

وقالت شهباء: سيأخذونك قريبا، وسافقد الصديق الوحيد الذي لدي، ولعلنا لن يرى احدنا الآخر بعد هذا. انه عالم عصيب!

جاء روبرت بعد اسبوع الى الحقل حاملا عناناً وضعه في رأسي وقادني، ولم اودع شهباء، ولكن ضهل احدنا للآخر وانا خارج، وراحت تعدو الى جنب السياج النباتي، وما فتئت تناديني ما دامت تسمع وقع الحوافر.

اشتراني صاحب اصطبلات تاجر الخيل والعربات بناء على توصية يورك، وكان لابد من ذهابي بالقطار الذي كان جديدا بالنسبة اليّ ويتطلب ذلك جرأة كبيرة اول مرة . ولكني هدأت عندما لم أجد ضررا من نفث القطار وانطلاقه وصفيره واهتزاز الصندوق الذي وضعت فيه. وعندما بلغت نهاية رحلتي وجدت نفسي في اصطبل مريح وعناية جيدة، ولم يكن الاصطبل جيد التهوية، مرضيا كتلك التي اعتدتها. كانت حظائره منحدرة الارض غير مستوية ولما كان رأسي مشدودا الى المعلف، فقد اضطررت دائما الى الوقوف على المنحدر، مما كان يرهقني كثيرا، يبدو ان البشر لا يعلمون ان الخيل تجيد عملها اذا ماوقفت وقفة مريحة ونالت حريتها في الحركة.

على انني كنت حسن الطعام والنظافة، واعتقد ان صاحبنا كان يولينا حسن رعايته قدر استطاعته. فقد كان يحتفظ بعدد كبير من الخيل والعربات المتنوعة للأجرة. وكان رجاله احيانا يقودونها. وكانت احيانا تؤجر العربة والحصان الى رجال او نساء يقودونها بانفسهم.

٢٨
حصان أجير وسوّاقه

كنت الى هذا اليوم يسوقني دائما اناس يعرفون في الاقل كيف يسوقون. ولكن تحتم علي في هذا المكان ان اتلقى تجربتي من مختلف ضروب السياقة الرديئة والجاهلة التي تتعرض لها الخيل، لانني كنت حصانا اجيراً، يستأجرني كل صنوف الناس الذين يرغبون في ذلك. ولما كنت دمث الخلق، مهذبا، فاظن ان تأجيري الى سوّاق جهلة كان اكثر من غيري من الخيل الاخرى، لانهم يمكن اعتمادهم علي ويطول الوقت لسرد كل الاساليب المختلفة التي جرت سياقتي فيها غير انني سأذكر قليلا منها.

كان، اولا، صنف سواق اللجام المشدود بقوة ـ اناس يعتقدون ان كل شيء يتوقف على مسك اللجام باقوى

مايستطيعون، ولا يرخون السحب على فم الحصان او يعطونه اقل حرية في الحركة. انهم يتحدثون دائما عن «ابقاء الحصان دائما في اليد» و«ضبط الحصان» كأن الحصـان لم يخلق لضبـط نفســه. وقد يجد شيئا من العون في ذلك بعض الخيول غير الصالحة للعمل التي تصلبت افـواهها وفقدت حساسيتها بسبب من امثال هؤلاء السواّق. اما الحصان الذي يمكن ان يعتمد على قوائمه وحساسية فمه وسهولة قيادته فان ذلك امر غبي يعذبه.

ثم هناك سوّاق اللجام المرتخي الذين يلقون اللجام على ظهورنا، وتستقر ايديهم متكاسلة على ركبهم. مثل هؤلاء النـاس لا سيـطرة لهم طبعـا على حصـان، اذا ماحدث شيء بغتة. فهم لا يدرون اذا ماجفل الحصان او نفـر او تعثـر، ولا يستـطيعـون مساعدته او مساعدة انفسهم حتى يقع المحذور. انا، طبعا، لا اعتراض لي على ذلك، لانني لم اعتـد الجفـول او العثـار، بل اعتـدت الاعتماد فقط على سائقي في القيادة والتشجيع. ومع ذلك فان الحصان يود ان يشعر باللجام قليلا عند هبوط تل، ويجب ان يعرف ان سائقه لم تأخذه غفوة.

وفضلا عن ذلك، فان الطريقة المهمة في السياقة تدفع الحصان الى عادات سيئة والى الكسل في غالب الاحيان،

وعند الانتقال من يد الى يد، فانه يتطلب ضربا بسياطهم بشيء من الالم والانزعاج. وكان السيد كوردن قد حافظ علينا في افضل سير واحسن سلوك. وقال ان افساد حصان ودفعه الى عادات سيئة لا يختلف في قسوته عن افساد طفل، وسيظل الاثنان يعانيان من ذلك في مابعد. مثل هؤلاء السواق غالبا مايكونون مهملين تمام الاهمال ويهتمون بكل شيء سوى خيولهم.

خرجت ذات يوم بالعربة السياحية الخفيفة مع احد من هؤلاء وكان معه زوجته وطفلاه. وما ان سرنا حتى بدأ يخفق اللجام ويضربني بالسوط ضربات لا مبرر لها، مع انني كنت اسير سيرا حسنا.

كان يجري اصلاح الطريق، وحتى في الاماكن القديمة الصالحة كان كثير من الحصى المتناثر. كان سائقي يضحك ويمزح مع زوجته واطفاله ويتحدث عن الريف على الجانبين، ولم يكن يعتقد ان مما هو جدير بالاعتبار الاهتمام بحصانه والانتباه اليه او سياقته في الاقسام المهدة من الطريق. فحدث ان دخلت حصاة في احد الحافرين الإماميين.

لو كان السيد كوردن او جون او اي سائق جيد موجوداً لانتبه الى الخلل قبل ان اسير ثلاث خطوات. وحتى ولو كان الظلام مخيماً فان اليد الخبيرة تشعر باللجام بوجود

خلل في الخطو ونزل واستخرج الحصاة، غير ان هذا الرجل استمر في الضحك والحديث، في الوقت الذي كانت الحصاة في كل خطوة تنحشر بقوة بين النعل والنَّسْر (اي الطبقة القرنية الرقيقة في باطن الحافر) كانت الحصاة حادة من جهة الداخل ومدورة من الخارج، وانها كما يعلم الجميع اخطر نوع من الحصى على الفرس، فهي في الوقت الذي تشق حافره تجعله عرضة للتعثر والسقوط.

لا ادري اكان الرجل كليل البصر ام شديد الاهمال، غير انه ظل يسوقني والحصاة في حافري مسافة نصف ميل قبل ان يرى شيئاً وطفقت في ذلك الوقت اظلع من الالم فانتبه اخيراً وصاح: هذا أخر طراز! يعطوننا حصاناً اعرج ! ياللعار!

ثم خفف اللجام ولوح بالسوط وقال: لافائدة من تمثيل دور الجندي العجوز معي. لابد ان تتم رحلتك. لافائدة من التحول الى اعرج وكسلان.

عندئذ جاء فلاح راكباً فرساً كميتاً، رفع قبعته وسحب اللجام وقال: عفوك سيدي، اظن شيئاً اصاب الحصان. يمشي كأن حصاة دخلت في نعله. اذا سمحت لي، سأنظر الى يده هذا الحصى المتناثر، خطر مقيت على الخيل.

فقال السائق: انه حصان أجير، لاأدري ماذا دهاه، ولكن من العار ان يخرجوا مثل هذا الحيوان الاعرج.

فتـرجل الفلاح، ورفع يدي القريبة اليه وقال: ياالهي، هذه حصاة! يعرج! اظن بسببها!

وحـاول استخراجها بيده اولاً، ولكنها كانت محشورة بقوة، فاخرج ملقطاً للحصى من جيبه واخرجها باحتراس ومشقة، ثم رفعها وقال: هذه هي الحصاة التي دخلت في يد حصانك. ومن العجيب انه لم يقع ويكسر ركبتيه ايضاً.

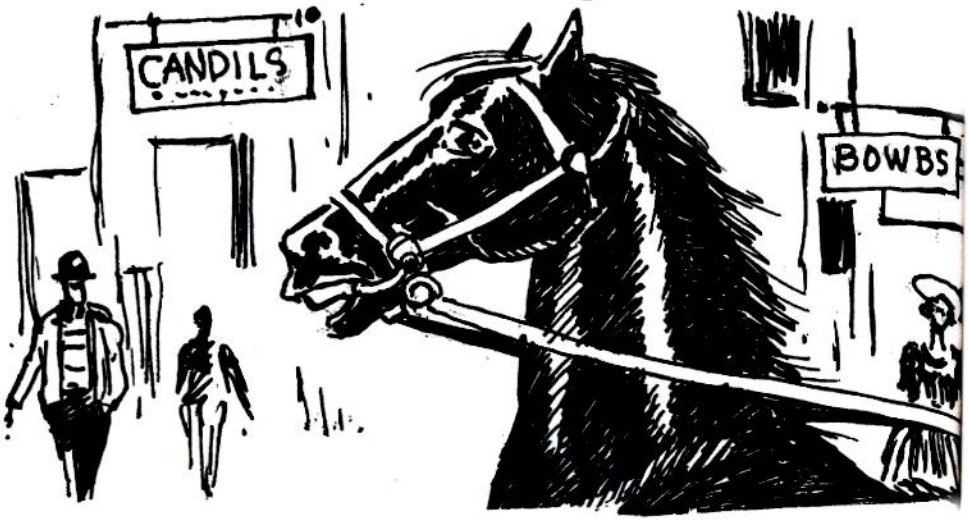
فقال السائق: لاريب في ذلك! انه شيء غريب! انا لا ادري ان الخيل تصاب ارجلها بالحصى.

فقال الفلاح مزدرياً: الا تدري؟ ولكنها تصاب بها، وحتى اجودها، ولكن لامفر لها من ذلك احياناً في طريق مثل هذا الطريق. واذا اردت الا يصاب حصانك بالعرج، عليك ان تنتبه وتخرجها في الحال. اصابته هذه شديدة. قال ذلك وانـــزل يدي بلطف وربـتني. نصيحتي، سيــدي، من الافضل ان تسوقه بلطف فترة ما، لان اليد مصابة كثيراً، وان العرج لن يزول في الحال.

ثم ركب جوادهُ ورفع قبعته للسيدة، وشرع يعدو خبباً. وعندما ابتعد، اخذ سائقي يخفف اللجام بقوة، ويضرب بالسوط فعلمت ان علي ان اجري، فجريت، مغتبطاً ان الحصاة قد ازيلت ولكن ما زال كثير من الالم.

هذا هو صنف التجربة التي كثيراً ما نعاني منها نحن الخيل الاجيرة.

٣٩
ابناء فقراء لندن



وهناك اسلوب سياقة القاطرات؛ اغلب هؤلاء السواق من المدن الذين لم يمتلكوا في حياتهم حصاناً، وينتلقون بالقطار عموما.

ويبدو انهم يعتقدون ان الحصان شيء يشبه الماكنة البخارية، ولكنه اصغر على اي حال، يعتقدون انهم اذا دفعوا المال اجرة عن الحصان فانه لابد ان يذهب الى حيث يشاءون وبالسرعة التي يرغبون ويحملونه بالاثقال التي يريـدون، سواء اكـانت الطرقـات موحلة تعيق

الحركة، ام جافة وجيدة، سواء أكانت وعرة ام ممهدة، فالامـر لديهم سواء، فالحصان يجب ان يواصل سيره بالسرعة نفسها، دونما راحة.

لا يفكـر مثـل هؤلاء النـاس بالترجل وصعود التل الشديد الانحدار مشيا. لا، ابدا، انهم دفعوا المال من أجل الركوب، وسيظلون راكبين! والحصان؟ انه اعتاد ذلك! لاي شيء خلقت الخيول؛ ان لم تكن صعود التلال بهم؟ يمشون! نكتة بارعة حقا! السوط يضرب واللجام يخفق، والشتائم تكال: «هيا، امش ايها الكسلان!» ثم ضربة قاسية اخرى من السوط، في الوقت الذى نبذل فيه قصارى جهدنا صابرين، طائعين، غير شاكين، بالرغم من الارهاق والهم الشديد.

طريقـة سياقة القاطرات هذه تنهكنا اسرع من اي طريقـة اخرى. واني لافضل الذهاب عشرين ميلا مع سائق طيب متروٍ على الذهاب عشرة اميال مع واحد من هؤلاء، فانه يستفقد مني جهدا أقل.

شيء آخـر ـ انهم قلما يضعون الكابحة، مهما كان انحـدار التل شديدا، ولهذا تقع احيانا حوادث مؤلمة. واذا ما وضعوها، فغالبا ما ينسون رفعها في اسفل التل، واضـطررت اكثـر من مرة ان اسحب صعـودا حتى منتصف التل الآخر، والكابحة في احدى العجلات، قبل

ان ينتبه سائقي لها. وهذا عبء رهيب على الحصان.

فبـدلا من ان يبـدأ ابناء فقراء لندن هؤلاء بسرعة معتدلة مثل اي رجل نبيل، فانهم ينطلقون عموما بسرعة فائقة من فناء الاسطبل مباشرة. واذا ما ارادوا الوقوف، فانهم يضربوننا بالسوط اولا، ثم يسحبون اللجام فجأة فنكاد نقع على اعجازنا، وافواهنا مشققة بالشكائم. انهم يطلقـون على ذلك.. «السحب مع الانـطلاقة». واذا ما استـداروا في منعطف فانهم يستديرون بحدة كأنه لا يوجد جانب من الطريق صحيح وجانب آخر مغلوط.

اتذكر مساء يوم ربيعي خرجنا فيه انا و«روري». كان روري الحصـان الذي يصـاحبني اذا ما تطلب الأمر زوجين، وقد كان زميلا اميناً حقاً. كان لنا سائقنا الخاص وكـان رقيقـاً ومترويا معنا. استمتعنا بيوم جميل وكنا راجعين الى البيت بسرعة معتدلة عند الاصيل، انعطف طريقنـا انعـطافاً حادا الى اليسار، ولما كنا قريبين من السياج النباتي المحاذي لنا وكان متسع في المجال للمرور فلم يسحبنا سائقنا. وعندما اقتربنا من المنعطف سمعت حصـانـا وعجلتي عربة تهبط التل مسرعة نحونا. كان السياج النباتي عاليا ولم استطع ان ارى شيئا.

وتقابلنا بغتته. ولحسن حظي كنت الى الجانب المحاذي للسيـاج النبـاتي وكان روري على الجانب الايمن من

العربة ولم يكن جهة جهته عريش يحميه. كان السائق الآخر قد اتجه مباشرة نحو المنعطف ولما رآنا فوجيء بنا ولم يكن لديه الوقت لكي ينسحب الى جهته.

وقعت الصـدمة كلها على روري. فقد ضربه عريش العربة الاخرى في صدره مباشرة وجعله يترنح ألى الوراء ويطلق صرخة لن انساها ابدا. وهوى الحصان الآخر على كفليه. وكسر احد العريشين. وتبين انه حصان من اصـطبلاتنا، مع المركبة ذات العجلتين العاليتين التي يهواها الشباب.

كان السـائق من اولئـك المجازفين الجهلة الذين لا يعـرفـون جانبهم من الطريق، واذا ماعـرفوه فانهم لا يأبهون. وها هو ذا روري وقد تمزق صدره وراح ينزف. وقالوا لو ان الضربة جاءت الى احد جانبيه قليلا، لقتلته.

ومضى وقت طويل قبل ان يشفى الجرح، ثم بيع الى عربات تحميل الفحم. وما عملها الا صعود ونزول تلك التلال الشديدة الانحدار التي لا تقدرها الخيول. ومن المناظر التي شاهدتها هنا: حصان ينزل منحدرا شديدا وهو يجر وراءه عربة ثقيلة الحمل ليس فيها كابح يقلل من سرعتها، مما يجلب الحزن الى نفسي حتى حين تذكره الآن.

بعد ان تعوق روري، صرت اذهب بالعربة مع فرس

اسمها: «پيكي» في الحظيرة المجاورة لي. وهي فرس قوية وسيمـة ذات لون اكمت مشرق، رقشاء، لها عرف بني غامق وكذلك ذيلها. لم تكن اصيلة، بل كانت جميلة، دمثة الخلق الى حد رائـع تؤدي عملها عن طيب خاطر. ومع ذلك، كانت تبدو قلقة، عرفت من تلك النظرة انها تعاني من مشكلة. اعتقـدت اول مرة نخـرج فيها معا ان في خطوها شيئا من الغرابة. فقد كانت تجري بين الخبب والحضر كل ثلاث او اربع خطوات، ثم تثب وثبة صغيرة الى الامام. ولم يكن مريحا لاي فرس يسحب معها، ولذلك جعلتني عصبيا، مضطربا.

سألتها عندما رجعنا الى البيت عن السبب الذي يجعلها تجري بتلك الطريقة الغريبة، المرتبكة.

فقالت مضطربة: انا ادري ان خطواتي مرتبكة، ولكن ماذا يمـكن ان افعـل؟ انهـا في الحقيقـة ليست من تقصـيري، بل هي بسبب قوائمي القصـيرة. ارتفاعي كارتفـاعك تقريبا، ولكن قوائمك اطول من قوامي ثلاث مرات تقريبا فوق الركب، لذلك فانك تستطيع ان تخطو خطوات اوسع وتجري اسرع. فانت ترى انني لم اصنع نفسي.. واتمنى لو كنت استطيع ذلك، اذن لكانت لي قوائم اطول. مشكلاتي كلها تنبع من قوائمي القصيرة - قالت ذلك وهي قانطة.

فقلت لها: فكيف يكون ذلك وانت قوية، دمثة، ذات ارادة؟

فاجابت قائلة: انت ترى ان الناس يريدون السرعة الشديدة، واذا لم يستطع الفرس ان يجاري الخيل الاخرى، فليس لديهم غير السوط، والسوط، والسوط طوال الوقت. فكان عليّ ان اواصل ولا اتخلف مهما كلف الامر، فساء سيري واضطرب. ولم اكن كذلك سابقا. فعندما كنت اعيش لدى صاحبي الاول، كنت اجري بخطو منتظم، اذ لم يكن في عجلة من امره، كان قسا شابا في الريف، طيب القلب. وكان مسؤولا عن كنسيتين متباعدتين تتطلب عملا كثيرا، بيد انه لم يكن يعنفني او يضربني بالسوط بسبب عدم سرعتي، بل كان يرأف بي. ليتني كنت معه الآن. ولكنه كان مضطرا للانتقال الى مدينة كبيرة، فباعني الى احد المزارعين. وانت تعلم ان بعض المزارعين ممتازين ولكنني اظن ان ذلك المزارع كان وضيعاً، فلم يكن يهمه شيء من امر الخيول الجيدة او السياقة الجيدة لا يهمه سوى السرعة. فكنت اجري باقصى سرعتي، ولكن ذلك لم ينفع لديه فكان دائم الضرب بالسوط، فصرت احجل لكي اواصل جريي. اما في اماسي البيع في السوق فقد اعتاد ان يسهر في الخان ثم يعود الى البيت باقصى سرعة.

وفي ليلة شديدة الظلام كان ينطلق مسرعا الى البيت على عادته فضربت احدى العجلات شيئا ثقيلا في الطريق وانقلبت العربة في الحال. وانقذف منها وكسرت ذراعه، وبعض اضلاعه على ما اظن. على اية حال. كانت تلك آخر عهدي معه، ولست آسفة. ولكنك ترى ان الامور صارت تجري متشابهة في كل مكان بالنسبة الي، اذ كان الناس يحتمون السرعة. ليت قوائمي اطول!

مسكينة پيكي! اسفت عليها كثيرا، ولم استطع ان اواسيها لانني اعلم الصعوبة التي يعانيها فرس بطيء الخطو مع خيل سريعة. فعليهم يقع ضرب السياط، ولا مفر لهم من ذلك.

كانت في الغالب تستعمل في المركبة الخفيفة، وكان بعض السيدات يعجب بها كثيرا لدماثتها. ولكنها بيعت بعد ذلك بوقت قصير الى سيدتين يسقن بانفسهن ويرغبن في فرس امينة جيدة.

صادفتها عدة مرات في الريف، تجري بخطوات رشيقة منتظمة وتبدو مرحة، راضية. فسررت لذلك لانها تستحق مكانا طيبا.

بعد ان تركتنا جاء بدلها حصان آخر. كان فتيا، ولكن عرف بنفوره وجفوله، مما دعا ان يفقد مكانته الطيبة. فسألته عن سبب نفوره. فقال! لا اكاد اعرف شيئا. فقد

كنت هيابا عندما كنت صغيرا، وقد ارتعبت مرات عديدة، واذا رأيت شيئـا غريبـا، كنت التفت وانـظر اليـه. فبالغمامات لا يمكننا ان نرى اونفهم شيئا مالم نلتفت. فكان صاحبي يضربني بالسوط دائما، مما اجفل، ولم يقلل من خوفي. واظن لو انه سمح لي ان انظر الى الاشياء بهدوء وارى انها لن تضرني، لجرت الامور على مايرام ولا عقدتها.

ذات يوم كان احـد المسنـين راكبا معه. وطارت الى جانبي قطعة ورق او خرقة بيضاء. فجفلت ونفرت جامحا الى الامام. فضربني ضربا مبرحاً على وفق عادته ولكن الشيخ صاح به: «هذا خطأ! عليك الا تضرب فرسا جافلا. فهو يجفل لانه يخاف، وانت بهذا تزيد خوفه وتسيء الى طبعه.» لذا فاني اعتقد ان الناس لا يفعلون ذلك. واني في الحقيقة لا اود ان انفر لمجرد النفور ولكن كيف يعرف المرء ما هو خطر وما هو غير خطر، اذا لم يسمح له بالتعود على الاشياء؟ فانا لا اخاف ابدا ما اعرف. فقد نشأت في متنـزه فيه غزلان. وانا اعرفها طبعا كما اعرف الاغنام والابقـار، ولكنها غير مألوفة، واني اعرف خيولا مدركة كثـيرة تخافها وتروح ترفس هائجة قبل اجتياز ميدان التدريب والترويض الذي فيه غزلان.

كنت اعرف ان ماقاله زميلي صحيح. وتمنيت لو ان

الخيل الفتية ينسى لها اصحاب طيبون مثل المزارع كري وصاحب الضيعة كوردن.

وكنـا احيانا يتاح لنا من يسوق جيدا. اتذكر ذات صباح، وضعت الى المركبة الخفيفة واخذت الى بيت في شارع بلتني، فخـرج رجلان. وجاء اطولهما الى رأسي ونظر الى الشكيمة واللجام وحرك الطوق بيده ليرى ان كان مريحاً.

وقال للسائس: اتظن ان هذا الحصان بحاجة الى شكيمة؟

فقال السائس: اقول انه يمكن ان يسير بها وبدونها على حد سواء. فمه رائع، ولا عيب فيه سوى انه ممتاز، ولكننا نجد بعض الناس يحبون الشكيمة.

قال الرجـل: انا لا احبها، فتفضل ان تنتزعها عنه وتضع الرسن على صفحة وجهه، فان الفم المرتاح شيء عظيـم في رحـلة طويـلة، اليس كذلك ايهـا الصـديق القديم؟.. وربت على عنقي.

ثم تنـاول العنان وصعد الاثنان، واتذكر الآن كيف ادارني بهدوء وبلمسة خفيفة من العنان، ثم القى السوط بلطف على ظهـري، وانـطلقنـا، وقوست عنقي وطفقت اجري بافضل سرعة. وجدت ورائي شخصا يعرف كيف يساق الفرس الاصيل. وقد عادت ذكرى الايام الخوالي

مرة اخرى، وشعرت ببالغ الحبور.

وقد اولع هذا الرجل بي ولعا شديدا، وبعد ان جربني بالسرج عدة مرات، اقنع سيده ان يبيعني الى اي صديق من اصـدقائه راغب في حصان امين، دمث في الركوب. وهكذا جرى بيعي في الصيف الى السيد باري.

٣٠
لص

كان صاحبي الجـديد عازبا، يعيش في مدينة باث، منشغـل في اعمـاله كثـيرا. نصحـه طبيبه ان يمارس الفروسية، فاشتراني واستأجر اصطبلا قريبا من منزله. وعهـد الى رجـل اسمــه فليجر ان يكون سائسا. وكان صاحبي لا يعرف الاشياء قليلا عن الخيل، ولكنه كان يحسن معاملتي. وكان وضعي جيدا ومريحا لولا بعض الظروف التي يجلها. كان يأمر بتقديم افضل التبن مع كثـير من الهـرطمـان والحبوب المجروشة والنخالة مع العلف الاخضر من الشيلم والشوفان، الذي يراه الرجل ضروريا. فوجدتني في عيشة راضية بهذا الغذاء الوفير.

جرت الامور على مايرام اياما معدودات، ووجدت ان سائسي يفهم مهنته، فقد جعل الاصطبل نظيفا، حسن

التهـويــة، وصــار يســوسني باذلا في ذلك غاية جهده وعنايته، ولم يكن الا دمثا في تعامله. كان سائسا في احد الفنادق الفخمة في «باث». وتخلى من مهنته تلك، وصار يزرع الفواكه والخضر لبيعها في السوق، وراحت زوجته تربي الدواجن والارانب وتسمنها للبيع.

وتبين لي بعد فترة وجيزة ان الهرطمان المخصص لي صار يأخذ بالتناقص ولم يبق الا الحبوب تخلط بالنخالة بدلا من الهرطمان، وقد كانت هذه قليلة ايضا ـ لا تزيد على ربع مايجب ان يكون وطفق ذلك في اسبوعين او ثلاثة اسابيع ينم عن قوتي ونشاطي ولم يكن العلف الاخضر، بالرغم من نفعـه، ليحافظ على حالتي الجيدة من دون حبوب. على انني لم يكن بوسعي ان اشكو حالي أو اعلن عن مطلبي. فسار الامر على هذا المنوال شهرين، واني لاعجب ان صاحبي لم يلحظ شيئا من ذلك، بيد انه في عصر يوم من الايام، خرج راكبا الى الريف ليزور احد اصدقائه ـ مزارع يسكن في الطريق الى «ويلز».

كان الرجل دقيق الملاحظة بشأن الخيول. فقال بعد ان رحب بصديقه وهو يلقى نظرة عليّ: يبدو لي، يا باري، ان حصانك ليس على مايرام كيوم اقتنيته. اهو في صحة جيدة؟

فقال صاحبي: نعم، اظنه كذلك، غير انه ليس بنشاطه

الاول. قال لي السائس ان الخيل يصيبها الخمول والضعف في الخريف، ويجب ان اتوقع ذلك.
فقال المزارع: الخريف! هذا هراء! ونحن في آب، ثم انه بعمله الخفيف وطعامه الجيد، يجب الا يهبط مثل هذا الهبوط حتى ولو كان الفصل خريفا. ماذا تطعمه؟

وحدثه صاحبي، وكان الآخر يهز برأسه بهدوء وراح يتحسس بدني، وقال: انا لا ادري من يأكل حبوبك، ياصديقي العزيز، ولكنني اشك في تناوله الحبوب. هل تجهده في الركوب السريع؟.
فاجاب: لا ! بل بلطف.

فقال وهو يمد يده على عنقي وكتفي: اذن ضع يدك هنا. انه ساخن ورطب مثل حصان أتى توا من عمل شاق. انصحك ان تمعن النظر في اصطبلك. واني اكره الريبة، واحمد الله على عدم وجود مايدعو اليها، لانني اثق برجالي، حاضرا كنت ان غائبا، ولكن بعض الاوغاد السفلة يحدو بهم الشر ان يسرقوا طعام بهيمنتهم البكاء. وعليك ان تنتبه الى ذلك .

ثم التفت الى صديقه الذي جاء ليأخذني: اجزل لهذا الحصان الطعام الجيد من الهرطمان المجروش، ولا تبخل عليه.

بهائم بكم! اجل، اننا كذلك ، ولكن لو كان بوسعي

الكلام لاخبرت صاحبي اين يذهب الهرطمان. فقد اعتاد سائسي ان يحضر في الساعة السادسة صباح كل يوم ومعه صبي صغير يحمل سلة مغطاة. اعتاد الصبي ان يدخل مع ابيه الى مخزن العدة حيث تحفظ الحبوب، وكان بوسعي ان اراه، عندما يكون الباب مواربا، يملأ كيسا صغيراً بالهرطمان من صندوق الحبوب، ثم يخرج. وبعد خمسة او ستة ايام، ما ان دخل الصبي صباحا حتى دفع شرطي الباب ودخل وراءه وقبض على ذراع الصبي بقوة، وتبعه شرطي اخر وقفل الباب من الداخل قال له:

ارني المكان الذي يحفظ فيه ابوك طعام الارانب.

ارتعب الغلام وبدأ يبكي، ولكن لا مفر له، وقادهم الى صندوق الحبوب. فوجد الشرطي كيسا خاليا اخر يشبه الكيس المملوء بالهرطمان في سلة الصبي.

كان فليجر ينظف حوافري في ذلك الوقت، ورأوه، وبالرغم من اعتراضه وصياحه، اقتادوه، وابنه الى «المحبس» وسمعت في ما بعد ان الصبي لم تثبت ادانته، ولكن اباه حكم عليه بالسجن شهرين.

دجال ٣١

لم يرتب صاحبي اموره في الحال، فجاء سائسي الجديد بعد ايام قلائل. كان رجلاً وسيماً طويلاً، ولكن اذا وجد دجال في شكل سائس، فأنه ذلك الرجل، الفريد سميرك، كان يعاملني ببالغ اللطف ولم يقسُ عليّ قط، بل كان، في الحقيقة، يمسدني ويربت عليّ عندما يكون سيده حاضراً لكي يراه. وكان يحس عرفي وذيلي دائماً بالماء، وحوافري بالزيت قبل ان يأتي بي الى الباب، يجعلني ابدو انيقاً. اما تنظيف حوافري او العناية بنعالي او العناية العامة بي، فأنه لم يهتم بغير ذلك، كأنني لم اكن غير بقرة. وقد ترك شكيمتي صدئه. وسرجي رطباً والتفر صلباً.

كان الفريد سميرك يظن نفسه وسيما، فيمضي وقتاً طويلاً في شأن شعره وشاربه وربطة عنقه، امام مرأة صغيرة في مخزن العدة. واذا ما تكلم اليه سيده، فيجيبه دائماً ب: نعم، سيدي، نعم سيدي! ويلمس قبعته مع كل كلمة. وكان الجميع يظن انه شاب مهذب، وان مستر باري موفور الحظ في مثل هذا الرجل. ولكني اقول انه اكسل رجل معجب بنفسه اراه في حياتي.

ومن الامور العظيمة طبعاً عدم الاساءة في المعاملة، غير ان الحصان بحاجة الى شيء اكثر من هذا. كانت حظيرتي. فسيحة، ولو لم يتماهل في تنظيفها لكنت في غاية الراحة.. فلم يكن يرفع القش عنها، وكانت الرائحة المنبعثة من تحته كريهة، لاتطاق، وكانت الانجرة القوية المنبعثة تؤلم عيني وتسبب التهابها، وفقدت شهيتي للطعام. جاء سيده ذات يوم وقال: الفريد، تفوح من الاصطبل رائحة قوية كريهة. الا تنظف هذه الحظيرة وتغسلها بالماء. فقال وهو يلمس قبعته: حسناً سيدي، سافعل ذلك اذا كانت تلك مشيئتك، سيدي، ولكن في غسل الحظيرة خطر شديد على الحصان. فقد يتعرض للبرد، سيدي. وانا لااود ان يصاب بشيء، ولكنني سافعل ذلك اذا شئت سيدي: فقال سيده! حسناً، انا لااريده ان يصاب بالبرد، ولكنني لااحب هذه الرائحة في حظيرته. اتظن ان المجاري على ما يرام. فاجابه قائلا: حسناً، سيدي، انت ذكرت ذلك، اظن ان المجاري تنبعث منها احيانا رائحة كريهة، لابد ان فيها عيباً، سيدي:فقال سيده! اذن ابعث في طلب بناء ليكشفها ويرى امرها.

فاجابه: اجل، سيدي، سافعل ذلك.

وحضر البناء ورفع عددا كبيرا من الاجر ولم يجد فيها نقصاً. فاعاد الطابوق واستعمل الجص وطالب السيد

بخمسة شلنات، وبقيت الرائحة الكريهة كما كانت قبلاً. ولم يكن ذلك كل شيء، فقد جعل وقوفي على مقدار كبير من القش الرطب ارجلي ضعيفة، من غير عافية، واعتاد صاحبي ان يقول: لاادري ماذا دها هذا الحصان، فانه يحاول ان يتلمس طريقة، واخشى عليه ان يتعثر.

فقال الفريد: نعم، سيدي، لاحظت الشيء نفسه عليه عندما كنت ادربه.

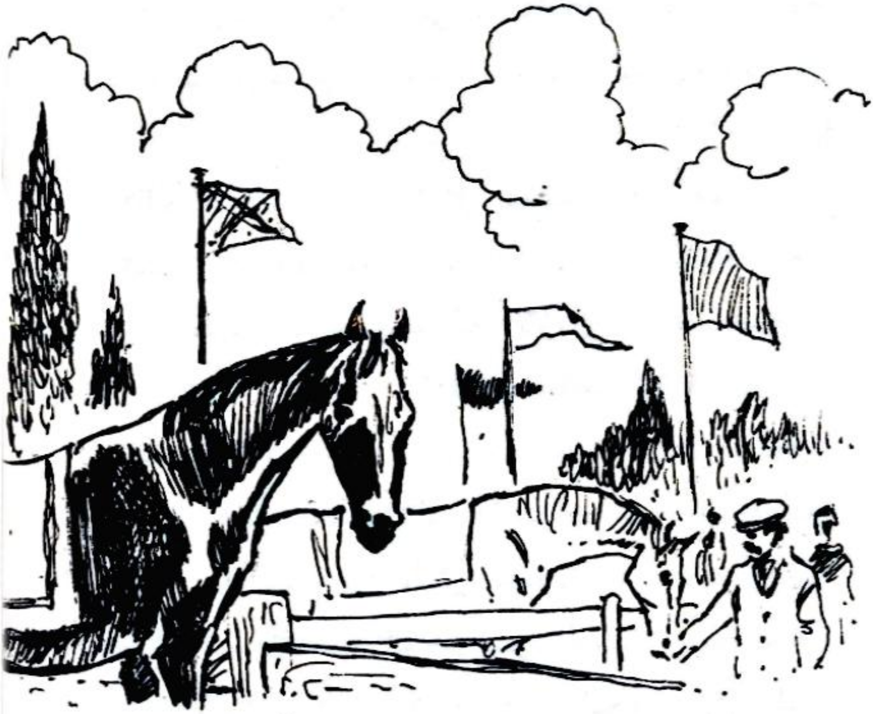
في حقيقة الامر، لم يخرج بي يوماً للتدريب، وعندما يكون صاحبي مشغولاً، فاني غالباً ما اظل واقفاً في مكاني اياماً دونما تحريك قوائمي اطلاقاً، ويطعمني جيداً كأنني كنت في عمل شاق. هذا طبعاً ادى الى اضطراب صحتي وجعلني احياناً خاملاً، بليداً، وغالباً ما تركني محموماً، ضجرا. ولم يقدم لي طعاما من العلف الاخضر والجريش الذي يخفف عني لانه كان جاهلاً كما كان دجالاً. وبدلاً من التدريب او تبديل الطعام، كان علي ان اتناول دواء الخيل من حبوب ومشروب يجعلني اشعر بالمرض وعدم الراحة فضلاً عن الازعاج الذي يسببه له اثناء صبه في بلعومي. في يوم من الايام كانت ارجلي توجعني كثيراً فكبوت كبوتين خطيرتين عندما كنت اجري على حصى وصاحبي على ظهري. فنزل من لاندسن الى المدينة وذهب الى البيطري وطلب اليه معاينتي. فرفع الرجل

ارجلي واحدة بعد اخرى، ثم وقف جانباً ونفض يديه من التراب وقال: حصانك مصاب ب « الدخس »، بشكل شديد. فارجله شديدة الحساسية، ومن حسن الحظ انه لم يقع. واعجب لماذا لم ينتبه اليه سائسك قبل هذا. هذا المرض ينتشر في الاصطبلات القذرة التي لاتزال منها الازبال. اذا ارسلته غدا فاني ساعالج حوافره وسوف ارشد سائسك الى كيفية استعمال المروخ الذي ساعطيه له.

ونظفت الحوافر في اليوم التالي تنظيفاً جيداً وحشيت بنسالة الكتان، ونقعت بغسول قوي، وقد كانت عملية غير مستحبة. وامر البيطار بازالة الازبال والنفايات من حظيرتي كل يوم، والعناية الفائقة بنظافة الارض، وان يقدم لي النخالة وقليلا من العلف الاخضر، وعدم الاكثار من الحبوب، حتى تشفى الحوافر جيداً. استعدت حيوتي بهذه المعالجة فوراً. ولكن السيد بارتي اشمأز من خديعة السائسين فقرر التخلي عن الاحتفاظ بحصان واللجوء الى اكتراء حصان عندما تدعو الحاجة الى ذلك. فبقيت حتى شفيت وجرى بيعي مرة اخرى.

الجزء الثالث

٣٢
معرض الخيل



لاريب ان معرض الخيل مكان ممتع لاولئك الذين ليس لديهم ما يخسرونـه. وفيـه، على اية حال، اشياء كثيرة للمشـاهـد. اسراب طويلة من الخيـول الفتية اتية من

الريف، قادمة من المروج تواً، وكراديس من امهار ويلز الهلب ـ ذات الشعـور الطويلة ـ لا يزيد ارتفاعها على ارتفـاع رشيق، ومئـات من خيـول العربات من جميع الاصناف، بعضها طويلة الذيول المضفورة والمشدودة بخيوط قرمزية، وكثير جداً مثلي، وسيمة واصيلة، ولكن اخـذاهـا الزمان فذلت لحادثة او تشويه او اعتلال في الصحة، او عيب أخر.

كان بعضها رائعا في ريعانه، يصلح لاي شيء. ومنها ما تطلق سيقانها وتستعرض متباهية، باسلوب رفيع وهي تجري والاعنة في رؤوسها والسائس يركض الى جانبها.

وفي اطراف المعرض الخلفية عدد من الخيول التي حطمهـا العمـل الشاق، فتضخمت ركبها، وتفحج لدى المشي، ومنهـا ماكـانت خيـولا مسنـة واهنـة العزيمة، شفاهها السفلى متدلية، واذانها الى الخلف مسترخية، كأن البهجة في الحياة معدومة، ولا خيط من امل فيها. كان بعضهـا نحيفـا تكاد ترى اضلاعها جميعا، وعلى ظهور بعضها واكفالها قروح قديمة. مناظر محزنة يراها حصان لا يعرف ان ماله لا ريب صائر اليها.

تجـري مسـاومات كثيرة، بين ارتفاع وهبوط. واذا كان لحصان ان يفصح عما في ذهنه مما يعلم، فاني اقول ماالكثـر الاكـاذيب التي تروى والحيـل التي تحاك في

معرض الخيل مما لا يسع رجلا ذكيا الاحاطة بوصفه؛ وضعت مع حصانين قويين تبدو عليهما علائم المنفعة، فجاء كثير من الناس لالقاء نظرة علينا. وكان النبلاء من القوم يتركونني حالما يرون ركبتي الممزقتين، بالرغم من قسم البائع انها لم تكن سوى انزلاق في الحظيرة.

اول مايبدأون به فتح فمي ثم النظر في عيني، وتحسس بدني نزولا الى قوائمي، وجس جلدي ولحمي بقوة، ثم تجربة سيري. وما اعجب الفرق الذي تتم فيه هذه الامور على ايدي الناس، بعضهم من يقوم بها ارتجالا وبفظاظة كأننا لسنا الا قطعا من خشب، بينما اخرون يضعون ايديهم بلطف على اجسامنا ويرتبون بين حين وآخر كأنهم يقولون: «من فضلك» كنت طبعا احكم على كثير من المشترين من سلوكهم معي.

جاء رجل، اظن لو انه اشتراني لكنت في سعادة. لم يكن من علية القوم، ولكنه لم يكن من المزهوين، كان ضئيلا ولكنه حسن البنية، سريعا في كل حركاته. عرفت في الحال من طريقة تعامله معي انه كان معتادا على الخيل. رقيق الكلام، يشع الحنان والبهجة من عينيه الخضراوين. قد يبدو من الغرابة ان اقول ان الطيب الذي يتضوع حوله جعلني اميل اليه، وهو امر لا ريب في صحته، اذ لم اشم منه رائحة البيرة المعتقة، والتبغ

القديم، التي اكرهها، بل رائحة طرية كأنه خارج توا من متبن ثلاثة وعشرين باونا سعرا لي، ولكن عرضه رفض، فمشى مبتعدا عنا.

نظرت وراءه، ولكنه مضى، وقدم رجل صارم النظرة، عالي الصوت. ارتعبت ان يشتريني، غير انه مضى، وجاء رجل او رجلان ولكنهم لم يكونوا جادين، ثم عاد الرجل ذو الوجـه الصارم وعرض ثلاثة وعشرين باوناً، وجرت مسـاومـة نشيـطة ودقيقة لان بائعي بدأ يفكر انه لن يحصل على كل ماطلب فيجب عليه ان يخفض السعر، ولكن الرجـل الاخضر العينين رجع في تلك اللحظة، ولم اتمالك نفسي من مد رأسي نحوه. ومسد وجهي بحنان، وقال: حسنا ايها الصديق القديم، اظن اننا سنتفق وها انا اعطي اربعة وعشرين باونا عنه.

فاجابه: بل قل خمسة وعشرين، وخذه.

فقال صديقي بلهجة حازمة: اربعة وعشرين ونصفاً ولا شلنا آخر. نعم، ام لا؟

فقال البائع: اتفقنا. ويمكنك ان تثق ان هذا الحصان يتمتع بصفات عظيمة. واذا كنت تريده لجر العربات، فهو صفقة موفقة.

دفع المال في الحال، وتناول صاحبي الجديد العنان بيده وقادني من المعرض الى خان حيث كان لديه سرج

ولجـام. واحسن اطعـامي بالهرطمان ووقف جانبا وانا اتناول الاكل وهو يحدث نفسه ويكلمني.

بعد نصف ساعة، كنا في طريقنا الى لندن، سائرين في دروب وطرقات ريفية لطيفة، حتى بلغنا طريق لندن العام، وسرنا عليه حثيثا. ووصلنا المدينة العظيمة عند الاصيل. وكانت مصابيح قد انيرت توا. وثمة شوارع الى اليمين وشوارع الى اليسار، والشوارع تتقاطع ميلا بعد ميل. وظننت اننا لن نصل الى نهايتها. واخيرا مررنا في احـدهـا وجئنا الى موقف عربات طويل، ونادي فارسي بصوت مبتهج: مساء الخير، ايها الحكم؟

فاجابه صوت: اهلا بك! هل حصلت على حصان جيد؟

فرد عليه صاحبي: اظن ذلك.

فقال الرجل: اتمنى لك حظا سعيداً معه.

فقال: شكرا لك ايها الحكم.

ثم ركب ومـا لبثنـا ان استـدرنـا في احد الشوارع الجانبية وفي منتصف المسافة استدرنا الى شارع ضيق جدا على جانب من بيوت يبدو عليها الفقر، وعلى الجانب الآخر، مايشبه عربات واصطبلات.

توقف صاحبي لدى احد البيوت وصفر: فانفتح الباب وخرجت امرأة شابة يتبعها بنت صغيرة وولد، راكضين. وجرى لقاء وتحية حارين، عندما ترجل الراكب. واحاطوا

بي في الحال في ساحة اصطبل صغيرة.

ـ اهو مهذب يا أبي؟

ـ نعم يا دولي، وديع مثل قطيطتك. تعالى واربتي عليه.

وراحت في الحال اليد الصغيرة تربت على كنفي من غير خوف. ما احلى لمستها!

وقالت الام: دعني اقدم له جريش حنطة وانت تحس له.

ـ نعم يابولي، هذا ما يحتاج اليه بالضبط. واني اعرف انك احضرت له جريشا ممتازاً.

فهتف الولد «زلابية وكعكة تفاح» مما جعل الجميع يضحكون. وقادوني الى حظيرة مريحة طيبة الرائحة، فيها كثير من القش الجاف وبعد عشاء ممتاز، اضطجعت، وانا افكر بالسعادة القادمة.

٣٣
حصان عربة للاجرة في لندن

اسم صاحبي الجديد إرميا باركر، ولما كان الجميع يدعوه «جيري» فاني سافعل ذلك ايضا. وكانت زوجته بولي من فضليات النساء. امرأة صغيرة ريا، انيقة، مرتبة، ذات شعر اسود، مسترسل وعينين سوداوين،

وفم صغير، باسم. وكان الولد في نحو الثانية عشرة من عمره، طويلا، صريحا، اما دوروثي التي يسمونها دولي، فقد كانت شبيهة امها، في الثامنة من عمرها. يحب احدهم الآخر حباً جماً. ولم اعرف عائلة سعيدة، مرحة منذ تعرفي عليهم ولا قبل ذلك.

كان جيري يمتلك عربة خاصة به وحصانين، يسوقها بنفسه ويهتم بها. كان حصانه الآخر ابيض، طويلا، ضخماً، اسمه كابتن. اصبح الآن مسناً، ولابد انه كان رائعا عندما كان فتيا ومايزال يرفع رأسه ويقوس عنقه بشيء من الشحم، انه في الحقيقة حصان اصيل، دمث، نبيل، في كل شيء. قال لي انه التحق بحرب القرم في شبابه عندما كان يعود الى ضابط في سلاح الفرسان واعتاد ان يقود الفوج. وسوف اتحدث بالمزيد عن ذلك في مابعد.

في صباح اليوم التالي عندما تلقيت عناية جيدة، جاءت بولي ودولي الى فناء الاصطبل لالقاء نظرة علي وعقد صداقة معي. وكان هاري يساعد اباه منذ الصباح الباكر، وابدى رأيه قائلا انني يجب ان ابدو كالقرميدة النظيفة المنتظمة. وجلبت لي بولي شريحة من تفاحة ودولي قطعة خبز، ويلاطفونني كثيرا كأنني كنت «الادهم الجميل» في الايام الخوالي. ومن حسن معاملتهم ان يدللوني ويتحدثوا الى بصوت رقيق، وجعلتهم يرون، بقدر

ماكنت استطيع، انني كنت راغبا ان اكون وديا. وكانت بولي تعتقد انني اجمل من ان اربط في عربة اجرة، لو لا ركبتي الممزقتين.

وقال جيري: لا يوجد من يخبرنا طبعا عمن فعل ذلك. وبما انني لا اعلم شيئا، فانني سأوليه حسن ثقتي بانني لم اركب فرسا اقوى وابرع منه. سندعوه «جاك» باسم الحصان الاسبق ـ اليس كذلك يابولي؟

فقالت: اجل، لانني اود المحافظة على استمرار الاسم الجيد. خرج كابتن بالعربة طوال الصباح. وعاد هاري من المدرسة وجاء يطعمني ويقدم لي الماء. ووضعت عصرا الى العربة، واهتم جيري كثيرا ليرى ان كان السرج واللجام مريحين، كأنه جون مانلي يعود مرة اخرى. وعندما ارضي التفر قليلا، اصبح مناسبا جدا. ولم يستعملوا لجاما بشكيمة، لاشيء سوى شكيمة حلقية بسيطة. يالها من بركة تحل علي!

وبعد ان سرنا في الشارع الجانبي، اتينا الى موقف العربات الكبيرة حيث قال جيري «مساء الخير». كان على احد جانبي هذا الشارع العريض بيوت عالية، وواجهات حوانيت رائعة، وعلى الجانب الآخر كنيسة قديمة، وفناؤها ومقبرتها، يحيطها سياج اوتاد حديدية مستدقة. والى جانب هذا السياج توقف عدد من العربات بانتظار

ركاب. وتناثر قليل من التين على الارض. ووقف بعض الرجال يتحادثون. وجلس بعضهم على مقاعد سياقة عرباتهم يقرأون الجرائد. وكان احدهم او اثنان منهم يطعمون خيلهم ويسقونها ماء. توقفنا في نهاية الصف بعد آخر عربة. وجاء رجلان او ثلاثة رجال وداروا حولي والقوا نظرة علي وابدوا ملاحظاتهم.

فقال احدهم: يصلح جدا للمآتم.

وقال آخر وهو يهز رأسه بطريقة حكيمة: رشيق جدا ولكنك ستكتشف عيبه في احد الايام الجميلة هذه وإلا فليس اسمي جونز.

فقال جيري مبتهجا: حسنا، لا اظنني بحاجة الى اكتشافه حتى يكتشفني، ها؟ وحتى لو كان الامر كذلك فانني سأظل مبتهجاً، راضيا.

ثم جاء رجل عريض الوجه، يلبس معطفا رماديا، فوقه لفاع رمادي بازرار بيض كبيرة، وقبعة رمادية، ولفاف ازرق حول عنقه.

وكان شعره رماديا ايضا، ولكنه شخص مرح النظرات، وفسح له الرجال الآخرين في المجال، وتفحصني في كل مكان كأنه سيشتريني، ثم اعتدل وهو يزحر. وقال: «انه من الصنف الذي يصلح لك ياجيري ولا يهمني مادفعت عنه من ثمن، فهو يستحق ذلك. «وبهذا توطدت سمعتي

في موقف العربات.

اسم هذا الرجل كرانت، ولكنه كان يسمى «كرانت الاشيب» او «كرانت الحكم». وهو اقدم رجل في هذا الموقف. وقد اخذ على عاتقه تسوية الخلافات وفض المجادلات. وكان على العموم رجلا ظريفا، عاقلا، ولكنه اذا خرج عن طوره قليلا، كما يحدث احيانا عندما يسرف في الشراب، فلا يحب احد الاقتراب من قبضته كثيرا، لانه يستطيع ان يسدد ضربة قوية.

كان الاسبوع الاول من حياتي حصاناً في عربة اجرة حافلاً بالمشقة اذ لم اكن معتاداً على لندن والضوضاء والسرعة وحشود الخيل والعربات الصغيرة والحافلات التي يجب ان اشق طريقي بينها مما اشعر بالقلق والضيق والارهاق، ولكن سرعان ماوضعت ثقتي الكاملة في وقت قصير، وتفهم احدنا الآخر، انا وصاحبي كافضل مايفعل حصان وانسان. وفي الاصطبل بذل كل مافي وسعه من أجل راحتنا. وكانت الحظائر من الطراز القديم، المنحدر كثيرا، ولكن كان لديه حاجزان متحركان مثبتان في القسم الخلفي من حظائرنا،، يرفعهما ليلا ويخلع الاعنة وبهذا نستطيع ان نستدير حولنا ونقف كما نشاء، وفي ذلك راحة عظيمة.

وكان جيري يحافظ على نظافتنا ويغير طعامنا قدر

استطاعته ويكثر منه. ولم يقتصر الامر على ذلك فقط، بل كان يقدم لنا دوما ماء عذبا نقيا، يبقيه بجانبنا ليلا ونهارا الا اذا جئنا ساخنين. يقول بعض الناس ان الحصان ينبغي الا يشرب كل مايـريـد، ولكني اعـرف اننـا اذا ماسمح لنا ان نشرب عندما نريد فاننا نشرب قليلا في كل مرة. وينفعنا ذلك اكثر من شرب نصف دلو مرة واحدة، لاننا نترك بلا ماء حتى نعطش الى حد البؤس الذي يثير الشفقـة، غير ان افضـل ما نتمتـع به هو ايام الاحد للراحـة. كنـا نعمـل بجـد خلال الاسبوع فلا يسعنا مواصلة العمـل على هذا المنـوال، لولا ذلك اليـوم من الراحـة. ويـوفـر لنا، فضلا من ذلك، وقتا للاستمتاع بصحبة احدنا الآخر. عرفت في مثل هذه الايام سيرة زميلي.

٣٤
حصان حرب قديم

روض كابتن ودرب لكي يكون حصانا في الجيش. كان صاحبـه الاول ضابـطاً في سلاح الفرسان وقد التحق بحرب القرم. قال انه استمتع كثيرا بالتدريب مع الخيول الاخـرى، وهم يجرون خببا معا، ويستديرون معا الى

اليمين او الى اليسار او يتوقفون لدى صدور امر بذلك، او الانطلاق الى الامام باقصى سرعة عند سماع صوت البوق او رؤية اشارة من الضابط. وعندما كان صغيرا كان رماديا غامقا، ارقط. ويعتبر وسيما جدا. وكان صاحبه رجلا مفعما بالحيوية، يحبه كثيرا، ويعامله منذ البداية باهتمام عظيم وحنان وقال لي ان حياة الفرس في الجيش سارّة جدا، ولكن عندما حان موعد ارساله الى خارج البلاد في سفينة عظيمة كاد يغير رأيه.

وقال: كانت تلك الرحلة مرعبة! لم يستطع طبعا ان يسير من البر الى السفينة. فاضطروا الى وضع سيور تحت ابداننا ورفعونا بالرغم من مقاومتنا، وتأرجحنا في الهواء فوق الماء الى ظهر السفينة العظيمة. ووضعونا في صناديق صغيرة، ضيقة، ولم نر السماء مدة طويلة، ولم نستطع ان نمد ارجلنا. وكانت السفينة احيانا تتمايل في الرياح الشديدة، وكنا نصطدم بعنف ونشعر بالتوعك. واخيرا رفعونا مرة اخرى وتأرجحنا في الهواء وانزلنا الى الارض. وسرنا ذلك وصهلنا فرحا عندما شعرنا بالارض تحت ارجلنا.

ومالبثنا ان وجدنا ان البلد الذي جئنا اليه كان يختلف كثيرا عن بلدنا، وواجهنا مصاعب جمة في تحملها فضلا عن القتال. ولكن كثيرا من الرجال كانوا يحبون

خيلهم كثيرا فعملوا كل مافي وسعهم لتوفير الراحة لها، بالرغم من الثلوج والرطوبة، وكل الامور المضطربة.

فقلت له: ولكن ماذا عن القتال؟ الم يكن ذلك اسوأ من غيره؟

فقال: لم اكن اعلم الا قليلا. كنا دائما نحب سماع صوت البوق الذي يدعونا للخروج، ونتلهف شوقا للانطلاق، بالرغم من اننا كنا نقفُ مساعات بانتظار صدور الامر. وعندما يصدر الامر كنا نثب الى الامام فرحا ولهفة كأن لم تكن قذائف مُدافع، وحراب، وطلقات واعتقد اننا مادمنا نشعر بفارسنا ثابتا في السرج ويده راسخة في مسك اللجام، لم يفسح احد منا مجالا للخوف، حتى ولو كانت القنابل الرهيبة تنطلق في الجو وتنفلق آلاف الشظايا. دخلنا انا وصاحبي النبيل معارك كثيرة دون ان نصاب بجروح. ولم اخش على نفسي شيئا بالرغم من انني رأيت خيلا تصرع بطلقات او تخرقها الرماح او تمزقها السيوف المرعبة ـ بالرغم من اننا تركناهم يلقون حتفهم في الميدان، او يحتضرون ويعانون مُن سكرات الموت بسبب الجراح. وجعلني صوت صاحبي المرح وهو يشجع جنوده كأننا لا يمكن ان نقتل. كنت واثقا منه تمام الثقة، فكنت لدى توجيهي مستعدا للهجوم حتى فوهة المدفع. رأيت رجالا شجعانا كثيرين يتمزقون، وكثيرين

يهوون من سروجهم نتيجة جراح قاتلة. وسمعت صراخ المحتضرين وانينهم، وجريت في ارض مخضبة بالدماء، وكثيرا ما اتنحا جانبا تحاشيا من ان اطأ جنديا جريحا او حصانا، ولكن لم اشعر بالرعب قط، حتى حان اليوم الرهيب الذي لن انساه.

وسكت كابتن العجـوز قليـلا وسحب نفسا طويلا. وانتظرت حتى واصل حديثه:

في صباح يوم من أيام الخريف، خرج سلاح الفرسان كالعـادة قبـل الفجـر بساعة متأهبين للعمل، قتالا او انتـظارا له. وقف الجنود الى جانب خيولهم، ينتظرون صدور الاوامر. ولما ازداد النور رأينا شيئا من الاهتياج بين الضبـاط، وقبـل ان ينبلج الصباح، سمعنا مدافع العدو تطلق النار.

ثم ركب احد الضباط واصدر الامر للرجال بالركوب، وصار في لحظة كل رجل على سرجه، ووقف كل حصان ينتـظر لمسـة العنان او ضغط ارجل الفرسان، مفعمين جميعا بالحيوية واللهفة. ولولا العض على الشكائم وهز رؤوسنا مللاً من وقت لآخر، فلا يمكن ان يقال اننا كنا نتحرك. كنا انا وصاحبي العزيز في رأس الصف، وجلس الجميع ساكنين مترقبين، واخذ خصلة نافرة من عرفي واعادها الى مكانها الصحيح، ومسدها بيده، ثم ربت على

عنقي وقال: سنخوض يوما من ايامها، ياجميلي، وعلينا ان نؤدي واجبنا كما كنا نفعل» ثم مسد عنقي مرارا ذلك الصباح اكثر من ذي قبل، كأنه يفكر بشيء آخر. واحببت لمس يده على عنقي، فرفعت صدري فخرا وسعادة، ولكنني وقفت ساكنا جدا لانني اعرف كل طباعه، ومتى يريدني ان اكون هادئا، ومتى اكون مرحا.

وليس بوسعي التحدث عن كل ماحدث في ذلك اليوم ولكني ساتحـدث عن الهجوم الاخير الذي قمنا به عبر الوادي امام مدفع العدو مباشرة. كنا في ذلك الحين قد اعتدنا جميعا على دوي المدافع وازيز البنادق والقذائف المتطايرة حولنا، ولكننا لم نكن تحت نيران مثل هذه النار التي اخترقناها هذا اليوم، فقد راحت القنابل والرصاص تنهمر علينا من اليمين ومن اليسار ومن الامام. وسقط كثير من الرجال الشجعان وتهاوى كثير من الخيل، وقد القت فرسانها على الارض.

وخرج كثير من الجياد جامحاً من الصفوف، ثم ارتعبت لما وجدت انفسها وحيدة بلا ايد توجهها عادت مندسة بين زميلاتها لتجري معها في الهجوم المباغت.

وبـالرغم من الامر المرعب. لم يتوقف احد ولم يتراجع احد. وكانت الصفوف تصبح اقل كثافة، ولما تهاوى زملاؤنا تقاربنا لنرص الصفوف. وبدلا من التردد والترنح في الجري، صرنا نعدو اسرع فاسرع عندما اقتربنا من المدفع الذي تغطيه غيوم بيض من الدخان الذي تبرق خلاله النار الحمراء.

وكان صاحبي، صاحبي يشجع رفاقه رافعاً ذراعه اليمنى عالياً، فجاءت قذيفة تئز قريباً من رأسي واصابته. شعرت به يترنح من فعل الصدمة ولكنه لم يصرخ. وحاولت ان اقلل سرعتي، ولكن السيف سقط من يده اليمنى، وتراخى العنان من اليسرى، وانزلق من السرج الى الوراء وسقط على الارض. ومرق الفرسان الاخرون بجانبنا، وانجرفت بقوة هجومهم من المكان الذي سقط فيه.

واردت ان ابقى في مكاني الى جانبه ولا اتركه تحت وطء حوافر الخيل، ولكن دون جدوى. وبقيت دون صاحب او صديق، وحيداً في ارض المجزرة العظمى، ثم استولى عليّ الرعب، فرحت ارتجف كما لم ارتجف قبلاً. وحاولت ان التحق بالصفوف كما فعلت الخيل الاخرى واجرى معها، ولكن سيوف الجنود أبعدتني، عندئذ تقدم جندي قتل حصانه تحته ومسك لجامي وركب، فرحت اتقدم مرة اخرى

مع صاحبي الجديد. ولكن سريتنا الباسلة تكبدت خسائر فادحة، ومن بقي على قيد الحياة بعد المعركة الضارية، عاد يجري مسرعاً الى الارض نفسها.

جرح بعض الجيـاد جروحـاً بليغـة، كادت تعيقها عن الحـركة بسبب ما نزفت من دماء. وحاولت بعض الخيول النبيلة ان تجـر انفسهـا على ثلاث قوائم. وكـانت اخرى تناضل من اجل ان تنهض على قوائمها الامامية فقد حطمت القذائف قوائمها الخلفية. وصار انينها لا يطاق سماعه، ولن انسى نظرات الاستعطاف الى من نجا وتركها تواجه مصيرها. واخلي الجنود الجرحى ودفن الموتى.

فسألته: وماذا عن الخيول الجريحة؟ هل تركت لتموت؟

فاجـابـنـي: لا، بل ذهـب البيـطريـون الى الميـدان بمسـدسـاتهم واطلقوا النار على كل من كان محطماً. أما الذين كانت جروحهم طفيفـة فقـد اخليت ونـالت العناية الضروريـة، غير ان القسم الاعـظم من الخيول الاصيلة المندفعة في ذلك الصباح لم تعد مطلقاً!

لم ار صاحبي العزيز مرة اخرى. واعتقد انه هوى ميتاً من سرجه. ولم احب انساناً آخر مثل حبي له. واشتركت في مهمـات كثيرة اخرى، ولم اجرح الا مرة واحدة جرحاً غير خطير. وعند انتهت الحرب، عدت الى انكلتره، سالماً قوياً كما

زهبت.

فقلت له: سمعت الناس يتحدثون عن تلك الحرب كأنها شيء جميل..

فقال: آه! اظن انهم لم يروها. واظن ان الامر جميل عندما لا يوجد عدو، واذا كان مجرد تمرين واستعراض ومعركةٍ صورية. عندئذ تكون جميلة جداً، ولكن عندما يقتل آلاف الشجعان الطيبين من الرجال والخيول او يصبحون معوقين مدى الحياة، فان النظرة تكون شديدة الاختلاف.

فسألته: أتعرف لماذا حاربوا؟

فاجابني قائلا: لا، هذا ما لا يستطيع ان يفهمه حصان

٣٥
جبري باركر

لم اعرف انساناً افضل من صاحبي الجديد. كان رجلاً طيباً، رحيماً، قوياً من اجل الحق مثل جون مانلي، مهذباً، ظريفاً لايمكن لاحد من الناس ان يتحمل الخصام معه. كان مولعاً بتنظيم الاغاني الصغيرة وانشادها لنفسه. ومن الاغاني التي يحبها كثيراً ويرددها هذه الاغنية:

هلم يا أبي وأمي.
واخي واختي،
هلموا جميعاً، الى العمل
يعين بعضنا بعضاً.

وانهمكوا يعملون. كان هاري بارعاً في اعمال الاصطبل مثل اي صبي اكبر منه عمراً. وكان دائماً يود ان يعمل ما يستطيع. واعتادت بولي ودولي المجيء في الصباح لمد يد المساعدة في العربة - تنظيف المقاعد ونفضها من الغبار ومسح الزجاج، في الوقت الذي يقوم جيري بتنظيفها في الفناء، وهاري يمسح العُدة. واعتادوا ان يضحكوا ويمرحوا فيما بينهم كثيراً مما كان يجعلني ويجعل كابتن في حالة مزاجية افضل مما لو نسمع توبيخاً وكلمات قاسية. كانوا ينهضون في الصباح الباكر وينشد جيري:

«اذا انت ضيعت
في الصباح دقائق
فلن تستطيع استردادها
في غضون النهار.
مهما اسرعت وجريت
وأجهدت نفسك وشقيت
فقد افلتت منك الى الابد

اجل الى الابد.»

لم يكن يتحمل التواني ومضيعة الوقت، ولا يزعجه شيء اكثر من رؤيـة النـاس المتـأخـرين دائماً الذين يطلبون الاسراع في سياقة حصان عربة الاجرة للتعويض عن تماهلهم.

خرج ذات يوم شابان ثملان من حانة قريبة من موقف العربات وناديا جيري.

ـ انت يا حوذي! انظر جيداً، اننا متاخران. نرجوك ان تسير بسرعة البخار وتأخذنا الى محطة فكتوريا لتلحق بقطار الساعة الواحدة. وسنعطيك شلناً اضافياً.

فاجـابهمـا: سآخـذكما بالسرعة الاعتيادية، يا شباب. دراهمكم لا تجعل من عربتي محركاً بخارياً.

كانت عربة لاري واقفة بعد عربتنا. ففتح الباب وقال: انا من تطلبان ايها الشباب! خذوا عربتي. حصاني سيوصلكم الى هناك في الوقت المقرر!

وصعدا واغلق الباب وراءهما، وغمز لجيري وقال: ضميره لا يسمح ان يتجاوز السرعة الاعتيادية.

ثم ضرب حصـانه المنهوك بالسوط لينطلق باقصى سرعة يستطيع. وربت جيري على رقبتي وقال: لا يا جاك، الشلن لا يعوض عن مثل هذا الفعل، اليس كذلك يا ولد؟

كان جيري ضد فكرة السياقة السريعة لارضاء الناس المتماهلين وكان يسير دائماً بسرعة معتدلة، ولم يكن ضد السير بسرعة البخار كما قال، اذا كان يعرف السبب. واتذكر جيداً ذات صباح، عندما كنا واقفين بانتظار اجرة، رأيت احد الشباب حاملاً حقيبة سفر يدوس على قشر برتقال على ارض الشارع المرصوفة فيقع بقوة.. شديدة.

وكان جيري أول من يركض اليه ويرفعه. وبدا دائخاً من شدة الصدمة. وعندما اقتادوه الى احد الحوانيت كان يمشي كأنه مصاب بالم عظيم. عاد جيري طبعاً الى الموقف، وبعد حوالي عشر دقائق ناداه احد أصحاب الحوانيت، فتقدمنا الى الرصيف وقال له الشاب: ايمكنك ان تأخذني الى محطة قطار الجنوب الشرقي؟

اخرتني هذه الوقفة المنحوسة، على ما اظن، ومن المهم الا يفوتني قطار الثانية عشرة. ساكون شاكراً لك جميلك اذا اوصلتني في الوقت المقرر، وسادفع بكل سرور مبلغاً اضافياً.

فقال جيري بحماسة! سابذل جهدي، اذا كنت ترى نفسك بصحة جيدة، سيدي.

فقد كان يبدو شاحباً، عليلاً بشكل رهيب.

فقال الشاب جاداً: لابد ان اذهب. ارجو ان تفتح الباب وان لانضيع وقتنا.

وصعد جيري على مقعد السياقة في الحال، وسقق لي ونفض اللجام وذلك ما افهمه جيداً، وقال: والآن يا جاك يا ولدي. هيا، اسرع! سنريهم كيف نطوي الارض، اذا كنا نعرف السبب. كان من الصعوبة دائماً السياقة بسرعة في المدينة في منتصف النهار، عندما تكون الشوارع مزدحمة بوسائط النقل، ولكننا فعلنا ما يمكن فعله. واذا كان السائق الجيد والحصان متفاهمين وعلى رأي واحد، فانهما يستطيعان فعل الاعاجيب. كان لي فم جيد جداً. اي يمكن توجيهي بلمسة خفيفة من اللجام. وهذا شيء عظيم ففي شوارع لندن بين عربات نقل الركاب ذات الاربع عجلات وذات العجلتين، والحافلات العمومية، وعربات نقل البضائع الصغيرة المغفلة والشاحنات الكبيرة المقفلة، وعربات نقل الاحمال المكشوفة، الزاحفة بسرعة المشاة. بعضها يسير بهذا الاتجاه، وبعضها في اتجاه اخر، ومنها يسير ببطء، ومنها ما يريد ان يتجاوز الاخريات. وحافلات نقل الركاب تتوقف كل بضع دقائق لالتقاط راكب، مما تضطر الحصان الذي خلفها ان يتوقف ايضاً، او يجتازها ليكون امامها. ولعلك تريد التجاوز فيظهر فجأة شيء منطلق من تلك الفجوة الضيقة، فيجب عليك ان تبقى وراء الحافلة، ثم ترى ان الفرصة مواتية فتتجاوز وتصبح امامها، بعد ان تمر بين

عجـلات العربات القريبة جداً على الجانبين. وقد لا تزيد المسافة على عقدة واحدة والا تحدث احتكاك.

وتسير قليلاً وما تلبث ان تجد نفسك في صف طويل من العـربات والمركبات التي تضطر على السير البطيء، وربما تصـل الى اختنـاق في ساحـة نظامية فتضطر الى التوقف دقائق، حتى ينصرف السير الى شارع عريض، او يتدخل شرطي. وعليك التأهب لكل فرصة مواتية ـ فتنطلق الى الامام اذا وجدت فجوة، ويجب ان تكون سريعاً مثل كلب الصيد لكي تجـد مجـالاً وتكتسب وقتـاً، لئلا تنحشر عجلاتك او تتحطم، او يدخل عريش عربة اخرى في صدرك او كتفك. عليـك ان تكـون متـأهباً لهذا كله. واذا اردت ان تخترق شوارع لندن بسرعة في منتصف النهار، فان ذلك يتطلب ممارسة كثيرة.

وقد اعتدنا انا وجيري هذه الامور، ولا يستطيع احد ان يغلبنـا في اختـراق الزحـام اذا ما اقتحمناه. كنت سريعاً وجـريئـاً، وواثقـاً بسائقي تمام الثقة. وكان جيري سريعاً وصبـوراً في الوقت نفسه، ويثق بحصانه، وهذا امر عظيم وقلما كان يستخدم السوط، وكنت اعرف من صوته وطقطقته اذا كان يريد السير بسرعة، ومن اللجام الى اين يجب ان اتوجه، لذلك لاتدعو الحاجة الى استعمال السوط. ولكن يجب

ان اعود الى قصتي.

كانت الشوارع شديدة الازدحام في ذلك اليوم، ولكننا وصلنا بيسر الى اسفل «جيب سايد» حيث واجهنا اختناقاً فتوقفنا ثلاث او اربع دقائق. واخرج الشاب رأسه وقال بشيء من القلق: اظن ان من الافضل ان اخرج وامشي، فلن اصل اذا استمر الوضع كذلك.

فقال جيري: سافعل كل ما يمكن فعله، سيدي. واظن اننا سنصل في الوقت المناسب. ولا يمكن ان يستمر هذا الاختناق طويلاً، هذا وان حقيبتك ثقيلة جداً عليك، يا سيدي.

عندئذ بدأت العربة التي امامنا بالتقدم، ثم اخذنا نسير سيراً جيداً داخل الصف وخارجه باسرع ما يستطيع حصان ان يفعل. ومن العجيب اننا وجدنا السير سريعاً على جسر لندن فقد كانت قافلة العربات جميعاً السائرة في صفنا مسرعة - ولعلهم كانوا يبغون اللحاق بالقطار نفسه. على كل حال، دخلنا المحطة مع عربات كثيرة اخرى، عندما كانت الساعة الكبيرة تشير الى الثانية عشرة الا ثمان دقائق.

فقال الشاب: الحمد لله! وصلنا في الوقت المناسب. وشكراً لك أيضاً يا صديقي ولحصانك الطيب. لقد منحتني اكثر مما يستطيع المال ان يفيه. خذ هذا نصف كرون علاوة

على الاجرة.

ـ لا، سيدي، لا، شكراً لك على اية حال. انا مسرور اننا وصلنا في الوقت المناسب، يا سيدي، ولكن لا تتأخر الآن سيدي، الجرس يدق ـ تعال يا حمال! خذ حقيبة السيد هذه الى خط دوفر ـ قطار الساعة الثانية عشرة ـ هناك. واستدار جيري بي دون كلمة أخرى ليفسح في المجال للعربات الاخرى المندفعة بسرعة في الدقيقة الاخيرة، وانسحب الى جانب حتى خف الازدحام.

وقال: مسرور جداً! انا مسرور جداً! هذا الشاب المسكين ترى ما الذي جعله قلقاً!

كان جيري في الغالب يتحدث الى نفسه بصوت عالٍ لكي اسمعه عندما لا نكون متحركين.

ولدى عودة جيري الى الصف في الموقف، علا ضحك كثير ومزاح بشأن سياقته السريعة الى القطار من اجل هيبة اضافية، كما قالوا، على النقيض من مبادئه، وارادوا ان يعرفوا كم وضع في جيبه.

فقال وهو يومىء برأسه بشيء من الحكمة: اكثر مما احصل عليه عموماً سيكفيني ما اعطاني عدة ايام ويجعلني في راحة.

فقال احدهم: خداع!

وقال آخر: دجال! بعظنا، ثم لم يفعل الشيء نفسه!

فقــال جيري: انـظروا يا رفــاق. اعطاني الرجل نصف كراون ـ شلنين و نصف الشلن ـ اضافياً، ولكنني لم آخذه. ألاجر الطيب لي هو رؤيتي له فرحاً بالوصول الى القطار في الوقت المنــاسب. واذا اخترت انا وجاك السير السريع بين حين وآخر ارضاء لا نفسنا، فان ذلك من شأننا الخاص ولا يعني احداً منكم.

فقال لاري: لن تكون غنياً ابداً.

فاجابه جيري: في اغلب الاحتمالات لن اكون. ولكنني لن اكـون اقل سعادة من اجل ذلك. سمعتهم يقرأون الكتاب مراراً كثـيرة ولم الاحـظ انه يقول انك ستكون غنياً». وفي العهد الجديد اشياء كثيرة عن الناس الاغنياء، فلا اود ان اكون واحداً منهم. فقال الحكم كرانت وهو ينظر من فوق عربته: اذا اصبحت غنياً، فانك تسخف ذلك يا جيري، ولن تحل اللعنة على ثروتك. اما انت يا لاري فستموت فقيراً، لانك تفرط في استعمال السوط.

فسأله لاري: وماذا يفعل المرء ان كان حصانه لا يسير بدونه؟

فاجابه! انك لا تكلف نفسك أن ترى إن كان يسير بدونه. السوط في يدك كأنك مصاب بارتعاش عصبي في ذراعك. واذا

كان ذلك لا ينهكك فانه ينهك حصانك. وانت تعلم انك تغير خيلك دائماً، فلماذا؟ لانك لاتعطيها شيئاً من راحة او عون.

فقال لاري: انا لست موفور الحظ ولا موفقا. هذا كل ما في الامر.

فقال الحكم: ولن تكون، فان التوفيق يحالف بالاخص من يتمتع بذوق سليم وقلب طيب، هذه، في الاقل، هي تجربتي.

ثم عاد الحكم كرانت الى جريدته، وعاد الرجال الى عرباتهم.

٣٦
عربة الاحد للاجرة

في صباح يوم من الايام دخل رجل الى باحة الاصطبل عندما كان جيري قد وضعني الى عريش العربة وراح يشد السيور.

قال الرجل: صباح الخير مستر باركر. يسرني ان اجري معك بعض الترتيبات بخصوص نقل السيدة برگز الى الكنيسة صباح كل احد بصورة منظمة. نحن الآن نذهب الى الكنيسة الجديدة، وهي ابعد من ان تستطيع الذهاب اليها ماشية.

فقالَ جيري! شكراً لك، سيدي، ولكن أجازتي ستة ايام في الاسبوع: ولذلك لا يمكنني ان اخذ اجرة في يوم الاحد. وهو امر غير قانوني.

فقــال له: لم اكن اعرف ان عربتك اجازتها ستة ايام. ولكن من السهــل تبـديــل اجــازتك، ولن تخسر بذلك. وان السيدة برگز في الحقيقة تفضل ان توصلها انت.

فاجابه: اني ليسرني لطف السيدة، يا سيدي، وقد كانت لي قبلاً اجازة بسبعة ايام، وكان العمل شاقاً جداً على الخيل ومرت السنين واحدة بعد اخرى بلا راحة يوماً واحداً، ولم اقض يومــاً من ايــام الاحد مع زوجتي واطفالي، ولم يكن بوسعي زيارة اماكن العبادة التي اعتدت الذهاب اليها دوماً قبل ان اخذ عربة الاجرة. لذلك اخذت اجازة بستة ايام فقط في السنوات الخمس الاخيرة.

فرد عليه مستر برگز: من المناسب طبعاً ان يتمتع المرء براحة، ويذهب الى الكنيسة ايام الاحد، ولكني اعتقد انه لا يهم الحصان كثيراً مثل هذه المسافة القصيرة ومرة واحدة في اليوم. سيكون لديك كل العصر والمساء. ونحن زبائن جيدين كما تعلم.

فقــال: نعم، يا سيــدي، هذا صحيــح. وانــا شاكر كل فضلكم، بلا ريب. واني يسرني ان اقوم بكل ما يرضي السيدة

ويـرضيكم، ولكنني لااستـطيع التخلي عن ايام الاحد، يا سيدي، اني لا استطيع ذلك حقاً. وقد قرأت ان الله خلق الانسان وخلق الخيل وكل البهائم، وما ان خلقهم جميعاً، خلق يوماً للراحة وامر الجميع ان يتمتعوا براحة يوماً واحداً من سبعة ايام. واعتقد يا سيدي انه اعلم بما هو خير لهم واني متـأكـد ان ذلك خير لي. ان صحتي افضل بعد ان تمتعت بيوم راحة. والخيول ترتاح ايضاً وتستعيد حيويتها ولا تنهك سريعاً. اما بالنسبة الى زوجتي واطفالي يا سيدي فانهم لا يفضلون العودة الى عمل الايام السبعة مهما كلف الامر.

فقال الرجل: حسناً يا مستر باركر، لا تكلف نفسك اكثر من هذا. سوف اسأل في مكان آخر.

ثم غادرنا.

وقال لي جيري: لا مفر لنا يا جاك من ذلك، يا ولدي. يجب ان نتمتع بايام الاحد.

وهتف قائلا: پولي! پولي! تعالي هنا.

وحضرت فوراً.

وقالت: لماذا كل هذا، يا جيري؟

فقال: عزيزتي، يريدني مستر برگز ان انقل السيدة برگز الى الكنيسة كل صباح يوم احد. فقلت له: اجازتي ستة ايام

فقـط فقال: «بدلها باجازة سبعة ايام، وسوف اكافؤك على عنائك الذي تبذله» وانت تعلمين يا پولي انهم زبائن ممتازون فالسيدة بركز تخرج في اغلب الاحيان ساعات للتسوق، او الزيـارات ثم تدفع، ما هو مناسب وجدير بالاحترام، وبلا خصم او جعل الثلاث ساعات ساعتين ونصف الساعة كما يفعـل بعض النـاس. وهو عمل سهل بالنسبة الى الخيل. وليس كالانطلاق من اجل اللحاق بالقطارات لاناس متاخرين ربع ساعة. واذا لم اشكر لها فضلها في هذه المسالة فمن المحتمل جداً ان نفقدهم تماماً. فماذا تقولين، يا زوجتي الصغيرة؟

فقالت تتحدث ببطء شديد: اقول، يا جيري، اقول: اذا اعـطتك السيدة بركز جنيهاً ذهباً صباح كل احد، فانا لا اريدك ان تعود فتصبح حوذيا سبعة ايام في الاسبوع. عرفنا ماذا يعني عدم التمتع بايام الاحد، والآن نعرف ميزة التمتع بها. نحمد الله انك تكسب ما يكفينا، بالرغم من انه لا يكاد يكفي احياناً ثمن التبن والشوفان والاجازة والايجار ايضاً. ولكن هاري سيشتغل ويكسب لنا شيئاً، واني لا فضل العمل الشاق من العودة الى تلك الايام البغيضة عندما لم تكد تجد دقيقة واحدة ترى فيها اطفالك، ولم تكن تستطيع الخروج الى اماكن العبادة او التمتع معاً بيوم سعيد، مريح. لا سمح

الله بعودة تلك الايام! هذا ما اقول يا جيري.

فقال: وهذا بالضبط ما قلت لمستر بركز يا عزيزتي. وانا انوي التمسك به.

ومرت ثلاثة اسابيع على هذا الحديث، ولم تعد السيدة بركز ترسل اليه، فلم يكن عليه الا العمل في موقف العربات. فتأثر جيري تأثراً عميقاً بطبيعة الحال فقد صار العمل اكثر مشقة عليه وعلى الخيل، ولكن پولي تواسيه وتشجعه قائلة: لاتهتم يا ابانا، ولا تقلق. وستعود المياه الى مجاريها يوماً.

وما لبث الجميع ان عرفوا ان جيري فقد احسن زبائنه، وعرفوا السبب ايضاً. وقال اغلبهم انه احمق، ولكن اثنين او ثلاثة ايدوه.

فقال ترومان: اذا لم يتمسك العاملون بايام عطلتهم، فلن يبقى لديهم شيء. وهذا حق كل انسان وكل حيوان. فنحن لنا يوم عطلة في شرع الله، وفي قانون البلاد لنا يوم عطلة. فعلينا ان نتمسك بالحقوق التي تهبنا تلك القوانين، ونحفظها لاطفالنا..

القاعدة الذهبية ٣٧



بعد اسبوعين او ثلاثة اسابيع، جاءت پولي راكضة تحمل فانوساً عند دخولنا الباحة متأخرين مساءً. كانت تحمله له دائماً ان لم يكن المطر منهمراً.

وقـالت: جيري، عادت المياه الى مجاريها. فقد ارسلت السيدة بركز خادمها عصر هذا اليوم تطلب منك ان تنقلها غداً صباحاً، في الساعة الحادية عشرة.. فقلت له نعم، ولكننا نعتقد انها تستخدم شخصاً آخر الآن.

فقال الخادم: في الحقيقة، تأثر سيدي لان مستر باركر رفض ان ياتي في ايـام الاحـد، فحاول استخدام عربات أخـرى، ولكن في جميعهـا عيوباً. فبعضهم يشوق بسرعة شديدة وبعضهم ببطء شديد، وتقول السيدة: لا يوجد احد منهم بنـظافـة وجمال عربتك، ولا يناسبها الا عودة عربة مستر باركر.

كانت پولي مبهورة الانفاس، فاطلق جيري ضحكة مرحة سعيدة وقال: عادت الامور كما كانت! كنت على صواب يا عزيزتي وانت على العموم كذلك. اركضي واعدي العشاء الى ان اخلع عدة جاك واجعله ينعم بالدفء والسعادة حالاً.

عادت بعد هذا السيدة برگز تطلب عربة جيري كالسابق، فيما عدا ايام الاحد. ولكن جاء يوم اشتغلنا فيه يوم الاحد. فقد عدنا الى البيت في يوم السبت ليلاً متعجبين، مسرورين ان يوم غدٍ سيكون كله راحة، ولكن لم يحدث ذلك، اذ كان جيري في صباح الاحد ينظفني في الباحة عندما دخلت پولي اليه وفي نفسها شيء.

فسألها جيري: ماذا لديك؟

فاجابته: عزيزي، ارسلت دينا براون المسكينة تقول ان امها مريضة الى درجة خطيرة، وانها يجب ان تذهب اليها في الحال اذ انها ترغب في رؤيتها قبل موتها. يبعد المكان اكثر

وذهبت وسرعـان ما عادت تقـول له انــه يستطيع أخذ المركبة بكل سرور.

فقـال: حسنــاً اذن، اعدي لي شيئاً من الخبز والجبن وساعود عصراً باسرع ما استطيع.

فقالت بولي: وسأهيء فطيرة اللحم لشاي العصر بدلاً من الغـذاء. وذهبت، وراح يجري استعدادته على لحن اغنية بولي عن «المرأة بلا اخطاء» الذي يحبه كثيراً.

واختارني للرحلة، وفي الساعة العاشرة انطلقنا من مركبة خفيفة عالية العجلتين تجري بسهولة كأن لم تكن بالنسبة الى العربة ذات الاربع عجلات.

كان يوماً رائعاً من ايام أيار. وما ان خرجنا من المدينة حتى شممنا الهواء العذب، ورائحة العشب العبقة وطرقات الريف الرخوة، كان كل شيء رائعاً كما كان في الايام الخوالي، وسرعان ما بدأت اشعر اني مفعم بالنشاط.

كانت عائلة دينــا تسكن في بيت ريفي صغـير في درب اخضر قريب من مرج فيــه اشجـار بديعة ظليلة، وبقرتان ترعيان فيه. عرض احد الشباب على جيري ان يضع المركبة في المرج ويربطني في حظيرة الابقار وكان يتمنى لو كان لديه اسطبل افضل لعرضه عليه.

فقال جيري: اذا كان ذلك لا يزعج ابقاركم، فلا شيء يسر

من عشرة اميال عنا، في الريف. وتقول انها اذا ركبت القطار، فسيكون، مع ذلك، امامها اربعة اميال يجب ان تقطعها مشياً. وهي ضعيفة اذ ان وليدها لم يتجاوز الاسبوع الرابع من عمره، وبهذا يكون الامر مستحيلاً. وهي تريد ان تعرف اذا كنت توافق ان تنقلها في عربتك، وتعاهد ان تدفع الاجرة بكل امانة متى ما استطاعت الحصول على المال.

فقال: هه، سنرى امر ذلك. انا لم افكر بمسألة المال، بل بمسألة ضياع عطلتنا يوم الاحد. الخيل متعبة، وانا متعب ايضا، وهذا مبعث الضيق.

فقالت پولي: وهذه القضية تبعث الضيق من كل نواحيها واننا لن نفارقك اكثر من نصف نهار. وانت تعلم اننا نعمل للآخرين ما نحب ان يعملوا لنا. واني اعرف جيداً ما احب اذا كانت امي تحتضر. واني متأكدة يا عزيزي جيري ان ذلك لن يخل بيوم راحتنا، وخصوصاً اذا نقلت دينا المسكينة

فقال لها: انك يا پولي لطيبة القلب ولذا ساحضر الصلاة اليوم مبكراً، ويمكنك ان تذهبي لتخبري دينا ان تكون متأهبة عندما تدق الساعة العاشرة، ولكن توقفي، اذهبي بتحياتي الى الجزار برايدن واسأليه ان كان من الممكن ان يعيرني مركبته الخفيفة ذات العجلتين. واني اعرف انه لا يستعملها في ايام الاحد، وسيجد الحصان فرقاً عظيماً فيها.

حصاني مثل قضاء ساعة او ساعتين في مرجكم الجميل. هو هادىء وهذه معاملة نادرة بالنسبة اليه.

فقال الشاب! تفضل على الرحب والسعة. افضل ما لدينا في خدمتكم لجميل عطفكم على اختي. سوف نتناول الغذاء بعد ساعة، وارجو ان تشاركنا، بالرغم من شدة مرض الوالدة الذي جعل اهل البيت متوعكين جميعاً.

وشكره جيري شكراً جميلاً ولكنه قال له انه جلب معه شيئاً من الطعام للغذاء، وانه لا يحب شيئاً مثل التمشي في المرج. ـ

وعندما خلعت عدتي، لم اكن اعرف ماذا افعل اولاً هل آكل العشب ام اتمرغ على ظهري، ام اضطجع وارتاح ام اجري خبباً في المرج تعبيراً عن فرحي بالحرية. فعلت كل شيء بالتناوب. وبدا جيري سعيداً مثلي. وجلس على مرتفع من الارض تحت شجرة ظليلة وراح يستمع الى اغاريد الطيور، ثم طفق يغني لنفسه، ويقرأ في كتاب بني صغير يحبه كثيراً، ونهض وراح يتجول في المرج وسار بجانب الجدول حيث قطف زهوراً وزعروراً برياً وشدها بغصن طويل مزهر من البلاب. وقدم لي طعاماً جيداً من الشوفان الذي جلبه معه.

وبدا الوقت قصيراً جداً ـ اذ لم اكن في حقل منذ ان

غادرت «شهباء» المسكينة في قصر اللوردات.

وعدنا الى البيت العوينا، وكانت اولى كلمات جيري لدى دخولنا الباحة: يواي، ما ضاعت عطلتي لان الطيور قرأت لي الترانيم في كل شجرة، وشاركتها فيب اداء الصلاة، اما جاك فقد كان مهر فتي.

ووثبت دولي فرحاً عندما قدم لها الزهور.

٣٨
دولي ورجل ماجد حقش؟

وافانا الشتاء مبكراً ببرده الشديد ومطره الغزير. فقد ظل الثلج او المطر المتجمد او المطر يهطل كل يوم اسابيع متعددة، لا يتغير الا الى رياح عاتية او صقيع لاذع.

وشعرت الخيل به كثيراً، فاذا كان البرد جافاً، حفظ الدفء فينا بساطان سميكان، ولكن اذا كان المطر منهمراً، فانهما سرعان ما يتبللان ولا يعودان يصلحان دثاراً. كان بعض السواق يلقون فوق الخيول غطاء مانعاً للمطر، وهوشيء خفيف، ولكن بعضهم كان فقيراً لا يسعهم وقاية انفسهم او خيولهم، وكان كثير منهم يقاسي من الشتاء كثيراً. واذا

اشتغلنا نحن الخيل نصف نهار فاننا نعود الى اصطبلاتنا الجافة ونرتاح فيها، اما هم فانهم يجلسون على مقاعد سياقتهم ومنهم من يسهر في الخارج حتى الساعة الواحدة اوالثانية صباحاً، بانتظار حفلة.

واذا كانت الشوارع زلقة بالصقيع او الثلج، فان في ذلك اسوأ الوبال علينا نحن الخيل. ان السير ميلاً في مثل هذه الحال نسحب اثقالاً على اقدام غير راسخة، يستنفد منا اكثر من اربعة اميال على درب جيد. فيتوتر كل عصب وعضلة في اجسامنا للحفاظ على توازننا، وفضلاً عن ذلك، فان ذلك الخوف من السقوط ينهكنا اكثر من اي شيء. واذا كانت الطرقات رديئة حقاً تثقل علينا مما يثير اعصابنا في بداية الامر.

واذا ازداد الجو سوء فان كثيراً من الرجال يذهبون ويجلسون في حانة قريبة ويجعلون احدهم يراقب لهم، ولكنهم كثيراً ما يخسرون الاجرة بهذه الطريقة، ولا يمكنهم، كما يقول جيري، البقاء هناك دون ان ينفقوا مالاً. لم يكن جيري ليذهب الى حانة «الشمس المشرقة» بل كان يرتاد بين حين وآخر مقهى قريباً، او يشتري من رجل عجوز يأتي الى صفنا حاملاً علباً من قهوة ساخنة وفطائر. وهو يرى ان المشروبات الروحية والبيرة تجعل الانسان اكثر برداً في ما

بعد، وان الملابس الجافة والطعام الجيد، والابتهاج والزوجة المريحة في البيت هي افضل ما يجلب الدفء للحوذي.

كانت پولي تزوده دائماً بشيء من الطعام عندما يستطيع المجيء الى البيت، وكان احياناً يرى دولي تسترق النظر من منعطف الشارع لتطمئن على وجود ابيها في الموقف. واذا رآته فانها تجري الى البيت باقصى سرعة وتعود حاملة شيئاً في علبة او سلة شوربة حارة او (كيكة) ساخنة اعدتها له پولي. ومن العجيب ان هذه الطفلة الصغيرة يمكنها ان تصل بأمان عابرة الشارع المزدحم بالخيول والعربات، ولكنها كانت فتاة صغيرة شجاعة، وتشعر بفخر عظيم عندما تجلب «الجزء الاول من طعام ابي» كما اعتاد ان يسمي ذلك. كانت محبوبة الجميع في الموقف، وكانوا ينتبهون ويهتمون بعبورها سالمة الى الجانب الآخر من الشارع، ان لم يكن جيري قادراً على ذلك.

ذات يوم عاصف، بارد جلبت دولي لابيها جيري اناء من طعام حار، وكانت واقفة على جانبيه وهو يأكل. وما كاد يبدأ حتى جاء رجل مهذب ماجد يمشي نحونا مسرعاً ويحمل مظلة. وحياه جيري بلمس قبعته، واعطى الوعاء الى دولي، ورفع الغطاء عني فاسرع الرجل وهتف قائلاً: «كلا، كلا، اكمل شوربتك يا صديقي. فانني استطيع الانتظار حتى

تكمـل وتساعد ابنتك الصغيرة بالعبور بالرغم من انني لا وقت لدي.» ثم جلس في العـربة، وشكره جيري على لطفه، وعاد الى دولي.

وقال لها! دولي، هذا رجل مهذب. انه رجل ماجد حقاً يا دولي. لا وقت لديه، ويفكر براحة حوذي فقير وابنته الصغيرة.

اكمل جيري شوربته، وعبر ابنته، ثم تلقى اوامره بالتوجه الى «كـلا بام رايـن». وبعد ذلك، تكرر مجيء الرجل نفسه للركوب في عربتنا. واظنه كان مولعاً بالكلاب والخيل لاننا كلما اخذناه الى باب بيته، استقبله كلبان او ثلاثة كلاب تأتي اليه متـواثية. وكان احيانا يدور حولي ويربتني ويقول بصوته الهـادىء اللطيف: لهـذا الحصـان صاحب ممتـاز وهـو يستحقه .. وكان من النادر جدا ان ينتبه المرء الى الحصان الذي ينقله. ولكني عرفت سيدات يفعلن ذلك بين حين واخر، وهذا الرجل المهذب ايضا، ورجلا او رجلين أخرين، ربتوني ووجهوا إلي كلمة لطيفة. لم يكن هذا الرجل شابا يافعا، بل نرى الانحنـاء على كتفيـه كانـه مقبل دائما على شيء من الاشياء. شفتاه رقيقتان ومطبقتان، تطوف عليهما ابتسامة رائقه، عيناه حادتان. حركة رأسه تجعل المرء يفكر انه رجل صارم في كل مايقـرر. كان صوته سارا، ولطيفا. ويثق كل حصان بصوته لدى سماعه، بالرغم من انه حاسم مثل كل

شيء فيه.

في يوم من الايام ركب هو ورجل اخر عربتنا. وتوقفوا لدى حانوت في شارع ر ــــ، وعندما دخل صديقه، وقف هو لدى الباب. وكانت على مقربة منا في الجانب الاخر من الشارع عربة. ذات حصانين اصيلين واقفه امام قبو للخمور، ولم يكن الحوذي فيها. ولا ادري كم طال مكوث الحصانين هناك ولكن يبدو انهما ضجرا الانتظار الطويل، فتحركا. وقبل ان يسيرا بعيدا خرج الحوذي راكضا من الخمارة. ولحق بهما. وبدا الغضب عليه واضحا لانهما تحركا من مكانهما فراح يعاقبها بالسوط واللجام عقابا شديدا، وحشيا، حتى بلغ به الامر ان يضر بهما على الرأس.

ورأى الرجل الذي معنا ذلك، فحث خطاه عبر الشارع وبصوت حاسم قال له: ان لم تكف حالا، جعلتك تستدعى للمثـول امـام القضاء، لاهمالك الخيل وتركها وحدها، ثم ضربها على الرأس.

وقدفه الحوذي الذي كان يشرب بكلام بذيء، ولكنه كف عن ضرب الحصــانــين، وتنــاول اللجــام وركب العربة.واخرج صديقنا في الوقت نفسه دفترا للملاحظات بهدوء من جيبه، وتــطلع الى الاسم والعنــوان المكتوب بالصبغ على العربة، ودونه. فزمجر الحوذي: ماذا تريد من ذلك؟ ثم فرقع البسوط

وتحرك. ولم يتلق سوى ابتسامة متجهمة وايماءة من الرأس.
وعندما عاد صديقنا الى العربة التحق به رفيقه الذي قال ضاحكاً: ارى يا «رايت» ان لديك من الاعمال ما يشغلك، فلماذا تزعج نفسك بخيول الآخرين وخدمهم؟

فوقف صديقنا ساكتاً لحظة ثم رفع رأسه الى الاعلى وقال: اتعلم لماذا ساءت امور الدنيا كما ترى؟

فقال الآخر: لا.

فاجابه صاحبه! اذن ساقول لك. لان الناس لا يفكرون الا بشؤونهم الخاصة ولا يزعجون انفسهم بمناصرة المظلومين، ولافضح المسيئين. فانا لا استطيع ان ارى شيئا شريراً مثل هذا، دون ان اعمل شيئاً، وكثيراً ما تلقيت الشكر من اصحاب خيول كثيرين يعرفون كيف اسيئت معاملة خيولهم.

فقال جيري باركر! اتمنى لو كثر الناس امثالك، سيدي. فالمدينة هذه بحاجة ماسة اليهم.

واصلنا بعد ذلك رحلتنا، وقال صديقنا عندما نزلا من العربة: مبدئي هو اننا اذا رأينا عملاً قاسياً او خاطئاً نستطيع ايقافه ولا نعمل شيئاً، فاننا نجعل من انفسنا شركاء في الاثم.



لابد من القول انني كنت انعم بالرفاه بالنسبة الى خيول عربات الاجرة. فقد كان سائقي هو صاحبي، وكان من حسن اهتمامه معاملتي الطيبة وعدم ارهاقي بالعمل. ولقد كان عدد كبير من الخيول العائدة الى اصحاب العربات الكبيرة للاجرة تؤجر الى سواق لقاء مبالغ كبيرة من المال في اليوم الواحد. ولما كانت الخيول لاتعود الى هؤلاء السواق فان الشيء الوحيد الذي يفكرون فيه هو كيفية الحصول على المال

منها، لكي تدفع اولاً الى مالكيها، ثم لتدبير امور معاشهم الخاصة. وقد عانى بعض هذه الخيول الامرين من ذلك. وانني لافهم طبعـاً الا شيئـاً يسـيراً، ولكنني اسمعهم يتحـدثون كثيراً عن ذلك في موقف العربات. وكان الحكم، الطيب القلب الذي يعطف على الخيل، يعلن عن رأيه جهاراً اذا رأى احد الخيول تساء معاملته او ياتي مجهداً.

وقد جاء ذات يوم سائق رث الثياب، زري المنظر، بائس اسمه سام ذو الاسمال، بحصانه المنهك الى حد الاعياء. فقال الحكم: انك تليق بمركز الشرطة اكثر من هذا المقام.

فالقى الرجـل اسماله البالية على الحصان والتفت الى الحكم وقال بصوت ينم عن يائس: اذا كان للشرطة شأن في الامر، فلا بد ان يوجه للمالكين الذين يسوموننا ارهاقاً بمبالغ باهضة، او ان توجه الى الاجرة المنخفضة. فاذا كان على المرء ان يدفع ثمانية عشر شلناً في اليوم عن استعمال عربة وحصانين، كما يفعل كثير منا في الموسم، ويجب تسديده قبل ان نكسب قطعـة نقدية صغيرة لا نفسنا ـ اقول انه عمل مضنٍ. تسعة شلنات من كل حصان قبل ان تبدأ بكسب قوتك. انت تعرف ان قولي هذا حق، واذا لا تعمل الخيل فاننا نهلك جوعـاً، وانـا واطفالي نعرف ذلك منذ امد بعيد، لدي خمسة اطفال، واحد منهم فقط يشتغل ليكسب شيئاً. وتراني

في الموقف اربع عشرة او ست عشرة ساعة كل يوم، ولم اتمتع بعطلة الاحد طوال العشرة او الاثني عشر اسبوعاً المنصرمة. وانت تعلم ان «سكنر» لا يعطي يوماً واحداً مساعدة. واذا كنت لا اعمل بجد، ومشقة، فقل لي من يعمل؟ انا احتاج معطفاً من الصوف للمطر، ولكن كيف السبيل الى الحصول على ذلك مع كل هذا العدد الواجب اطعامهم؟ وقد اضطررت ان ارهن ساعتي قبل اسبوع لكي ادفع الى (سكنر) ولكنني لن اراها مرة اخرى ابداً.

ووقف بعض السواق حوله يومئون برؤوسهم ويقولون انه على حق. وواصل الرجل قوله: انتم الذين تمتلكون خيولكم وعرباتكم، او تسوقون لدى مالكين خيرين، لديكم فرصة في التقدم، وفرصة في التصرف الصحيح، اما انا فلا املك مثل هذه الفرصة، فنحن لا نستطيع ان نطلب اكثر من ستة شلنات لكل ميل بعد الميل الاول، ضمن نطاق دائرة نصف قطرها اربعة اميال. في هذا الصباح بالذات كان علي ان اقطع ستة اميال وتقاضيت ثلاثة شلنات فقط. ولم استطع ان آخذ اجرة مرجعة، وعدت خالياً، فتكون المسافة اثني عشرة ميلاً بالنسبة الى الحصان وثلاثة شلنات لي. بعد ذلك اخذت اجرة عن ثلاثة اميال، وكان فيها حقائب وصناديق كثيرة تستحق بنسين اذ وضعت في الخارج، ولكنك

تعلم ماذا يصنــع الناس؟ انهم يكدسونها في الداخل على المقعد الامامي، ويضعون ثلاثة صناديف ثقيلة على سطح العربة. ولهذه ستة بنسات، والاجرة شلن وستة بنسات، ثم حصلت شلنــاً واحداً في العودة، فاصبحت المسافة ثمانية عشر ميلاً بالنسبة الى الحصان، وستة شلنات لي. ويبقى على الحصان ان ان يكسب ثلاثة شلنات اخرى، وتسعة شلنات على حصان العصر قبل ان امس بنياً واحداً. الامر طبعاً ليس بهذا السوء على الدوام، ولكنك تعلم ان الامر عسير في اغلب الاحيــان، مما يثير السخرية ان تطالب رجلاً ان لا بجهد حصانه. واذا كان الحصان متعباً تماماً، فليس لديك سوى السوط لكي تجعله يواصل الجري ـ ولا مفر لك من ذلك ـ عليك ان تضع زوجتك واطفالك قبل الحصان. وعلى المالكين ان يتأملوا ذلك، اما نحن فلا نستطيع. انا لا اسيء معاملة حصاني من اجل الاساءة، وليس بوسع احد منكم ان يقول انني افعل ذلك.

ثمة خطأ ـ عدم التمتع بيوم راحة ـ ولا ساعة هدوء مع الزوجة والاطفال. انني غالباً ما اشعر انني شيخ كبير مع انني في الخــامسة والاربعين. وانت تعلم ان بعض الناس يسارعون باتهامنا بالغش وزيادة الاجور. فيقفون ومحفظة النقود في ايديهم يحسبونها الى حد البني، ويتطلعون الينا

كأننا نشالون. اتمنى لو ان بعضهم يجلس في مقعدي ستة عشرة ساعة كل يوم ليكسب قوته منها، فضلا عن الثمانية عشر شلناً. هذا في جميع الاحوال الجوية! ولا غرابة ان لم يعطونا الستة بنسات الاضافية عن الامتعة التي يكدسونها في الداخل. بعض الناس يمنحوننا هبة جيدة بين حين وآخر، والا فاننا لانستطيع ان نعيش، اما انت فلا يمكن ان تعتمد على ذلك.

واستحسن الناس الواقفون حوله هذا الكلام. وقال احدهم: انها حياة عصيبة الى حد اليأس، واذا ما اقترق المرء خطأ احياناً فلا عجب في ذلك. واذا اخذ درهماً زيادة، فمن يلومه؟

ولم يشارك جيري في الحديث، بيد انني لم ار وجهه يوماً اشد حزناً من اليوم. ووقف الحكم ويداه في جيبيه. فاخرج منديله ومسح جبينه.

وقال: غلبتني يا سام، لان كلامك كله صحيح. ولن ارفع قضيتك الى الشرطة. النظرة في عين ذلك الحصان هي التي جعلتني اتخذ ذلك الموقف. انه حظ عاثر بالنسبة الى الانسان وحظ عاثر بالنسبة الى الحيوان، فمن الذي يصلح الامر؟ لست ادري. ولكن يمكنك على اي حال ان تعتذر للحيوان المسكين عن التنفيس عن غضبك بتلك الطريقة.

ليس لدينا احياناً إلا الكلمة العطوف نزجيها الى تلك البهائم المسكينة، ومن العجيب انها تفهم. وبعد ايام قلائل من ذلك الحديث جاء رجل الى الموقف بعربة سام.

فقال احد الرجال: اهلا بك! ماذا حصل لسام ذو الاسمال فقال الرجل: انه مريض، طريح الفراش. وجد في الليلة الماضية في الباحة، ولم يكن يستطيع المشي الى البيت. وارسلت زوجته ولداً هذا اليوم صباحاً ليقول ان اباه محموم ولا يستطيع الخروج لذلك جئت بدله.

وفي صباح اليوم التالي، جاء الرجل نفسه مرة اخرى.

فسأله الحكم: كيف حال سام!

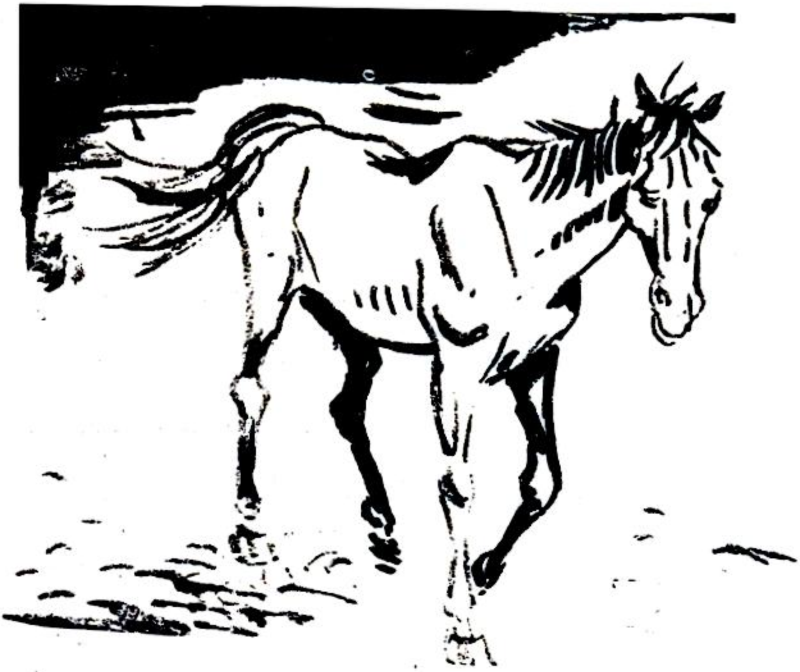
فقال الرجل: رحل.

فسأله: ماذا، رحل؟ اتعني ان تقول انه مات؟

فقال الرجل! اجل، مات في الساعة الرابعة صباح هذا اليوم. كان يهذي طوال يوم امس - يهذي بسكنر، وعدم التمتع بعطلة يوم الاحد، «لم ارتح في ايام الاحد قط». هذه كانت آخر كلماته.

لم يتحدث احد برهة، ثم قال الحكم! اقول لكم يا رفاق هذا تحذير لنا.

شهباء المسكينة ٤٠



في يوم من الايام عندما كانت عربتنا وكثير غيرها تنتظر خارج احد المتنزهات حيث كان احد الاجواق يعزف الحاناً موسيقية، وقفت بجانبنا عربة قديمة بالية. وكانت الفرس عجوزاً منهكة كستنائية اللون مهملة المظهر تظهر عظامها بوضوح من وراء جلدها. ركبها بارزة العظام ويداها واهنتان. كنت اتناول شيئاً من التبن، ودحرجت الريح منه شيئاً بذلك الاتجاه، فمدت المسكينة رقبتها الطويلة

الضعيفـة وتناولته، ثم التفتت تبحث عن المزيد. في عينها نظرة ملؤها اليأس التي لم يكن لي مفر من رؤيتها، ثم رحت افكر اين رايت هذه الفرس قبلاً، فنظرت الي وقالت: الادهم الجميل، اهذا انت حقاً؟

كانت شهباء! ولكن ما اشد ما تغيرت! فقد غدت الرقبة المقـوسة اللامعة مستقيمة، نحيلة، منهارة. وكانت القوائم المستقيمـة النـظيفـة ورمانات الارساغ متورمة والمفاصل مشـوهـة من كثـرة العمل الشاق. هذه التي كانت مفعمة بالحيوية والنشاط، غدت الآن مرهقة، معذبة. واستطعت ان اعـرف من ارتفاع وانخفاض جنبها وسعالها المتكرر مدى سوء تنفسها.

كان سواقنا متجمهرين على مقربة، فمشيت جانباً نحوها خطوة او خطوتين لكي نتحدث حديثاً قصيراً هادئا. روت لي حكاية محزنة.

بعـد بقائها طليقة اثني عشر شهراً في قصر اللوردات، قرروا انهـا صالحـة للعمـل مرة اخـرى، فبيعت الى احد الرجال. وكان وضعها ممتازاً فترة قصيرة من الزمان، ولكنها بعد جري اطول من المعتاد عاد التشنج اليها، وبعد اراحة وتـطبيب بيعت مرة اخرى، وبهذا انتقلت بين ايد مختلفة مرات عدة تنحط فيها كل مرة.

وقالت: وهكذا اشتراني في النهاية رجل يملك عدداً من العـربـات والخيـل التي يؤجرها. اراك تبدو مرفهاً، واني لمسرورة بذلك. ولكنني لم اخبـرك عن حياتي. فعندما رأوا ضعفي، قالوا انني لا اسوى ما يتفق علي، فيجب ان انزل للعمـل الى احـدى العربات الى حد الانهاك، وهاهم اولاء يفعلون ذلك، يضربوني بالسياط ويستخدمونني دون ادنى تفكير بما اعاني. دفعوا ثمني، ولا بد ان يستحصلوا ذلك مني، كما يقولون. فيدفع الرجل الذي استأجرني مبلغاً كبيراً من المال الى المالك كل يوم. لذلك فانه يستحصل المال مني ايضاً، وذلك على مدار الاسبوع، بلا يوم راحة قط.

فقلت لها: اعتدت ان تقاومي، اذا ما اسيئت معاملتك يا شهباء. فقالت: آه، هذا صحيح. فعلت ذلك مرة اخرى. ولكن دون جدوى. الانســان اقـوى، واذا كان قاسيــاً، عديم الشعـور، فليس لنا الا ان نصبر ونتحمل ثم نتحمل حتى النهاية، واتمنى ان تحين هذه النهاية. ليتني مت قبل هذا! رأيت خيلاً ميتة، واني واثقة انها لا تعاني من الآلام شيئاً ليتنى آخـر صريعـة اثنـاء عمـلي، ولا ارسل الى مشتري الحيوانات المهزولة.»

تأثـرت كثـيراً ووضعت انفي على انفهـا، ولكن لم يكن بوسعي ان اقول شيئاً يواسيها. واظنها انشرحت برؤيتي

لانها قالت: انت الصديق الوحيد الذي تعرفت عليه.

عند ذاك جاء سائقها. وسحبها بعنف من فمها، وارجعها خارج الصف، ومضى، وقد خلفتني في اشد الحزن. وبعد مدة قصيرة، مرت بنا في الموقف عربة تحمل فرساً ميتاً. كان الرأس متدلياً من نهاية العربة. وكان اللسان الذي فقد الحياة يقطر دماً بطيئاً، والعينان غائرتان! ولكنني لا استطيع الحديث عنهما، كان المنظر مرعباً. كان فرساً اشهب، له رقبة طويلة ناحلة. رأيت خطاً ابيض سائلاً على الجبهة. اعتقد انها شهباء. تمنيت ان تكون هي، لان آلامها ستنتهي بذلك.

لوكان الانسان اكثر رحمة، لاطلق النار علينا قبل ان نبلغ مثل هذا البؤس.

٤١

الجزار

رأيت حتى يومنا هذا متاعب جمة بين الخيل في لندن، وكثيراً مما كان يمكن وقوعه بشيء قليل من الذوق السليم. نحن الخيل لا يهمنا العمل الشاق اذا ما تلقينا معاملة معقولة معتدلة. واني لشديد الثقة ان كثيراً من الخيل

يسوقها رجال فقراء حياتهم حافلة بالسعادة اكثر مني اعتدت ان اذهب بعربة الكونتيسة و...، مع عدتي المطعمة بالفضة، وطعامي الفاخر.

وكثيراً ما حز في نفسي واثارتي ان ارى امهاراً صغيرة تجهد تحت وطأة احمال ثقيلة او تترنح تحت ضربات عنيفة يكيلها صبي قاسٍ وضيع. رأيت ذات مرة مهراً صغيراً رمادياً له عرف كثيف ورأس لطيف، يشبه «رشيق»، ولو لم اكن ملجماً لصهلت له. كان يبذل جهده لسحب عربة، في الوقت الذي كان صبي قوي، فظ يضربه تحت بطنه بالسوط. ويسحبه بقسوة من فمه. هو هو رشيق؟ كأنه هو، ولكن السيد بلومفيلد لم يكن ليبيعه، اظن انه لن يفعل ذلك. ولعله فرس صغير آخر مثله، ولعله كان ينعم في مكان سعيد عندما كان فتياً.

كثيراً ما كنت الاحظ السرعة التي تفر عليها خيول الجزارين، بالرغم من انني لم اعرف سبب ذلك حتى جاء يوم كان علينا ان ننتظر في غابة القديس جون، وكان قريباً منها دكان جزار وبينما كنا واقفين، اقبلت عربة جزار منطلقة بسرعة عظيمة. كان الحصان ساخنا، شديد الاعياء، وقد تدلى رأسه. ويكشف جنباه المرتفعان والمنخفضان، وقوائمه المرتعشة مدى السرعة التي اجبر عليها. قفز الفتى من

العربة وراح يخرج السلة عندما خرج الجزار من الحانوت شديد الغيظ. وبعد ان نظر الى الحصان التفت الى الفتى غاضباً.

وقال له: كم مرة قلت لك لاتسق بمثل هذه الطريقة؟ لقد اهلكت حصاناً قبل هذا بعد ان دمرت صحته، وسوف تهلك هذا ايضــاً بالطريقــة نفسها. لو لم تكن ابني لطردتك في الحــال! فمن الخــزي ان يأتي حصان الى الحانوت بهذه الحال. انت معرض ان تلقي الشرطة القبض عليك لمثل هذه السياقة، واذا حدث ذلك فلا تنتظر مني كفالة، لانني نبهتك حتى تعبت! فعليك ان تنتبه الى نفسك.

وقف الولد متجهماً، عنيداً اثناء كلام ابيه ولما انتهى منه، انفجر غاضباً. فلم يكن ذلك ذنبه ولا لوم عليه، فانه سائر على وقف اوامره طوال الوقت.

فقال الفتى: انك تقول لي دائماً: «اسرع وكن نشيطاً!» وعندما اذهب الى البيوت، يطلب احدهم فخذ خروف لغداء مبكر، فيجب علي ان اعود به اليه في ربع ساعة. طباخ آخر نسي ان يطلب لحم بقر، فيجب ان اذهب واجلبه واعود به فخوراً، والا فان ربة البيت توبخه. وتقول مدبرة منزل ان جماعة ستحل بهم بصورة غير متوقعة، فيجب ارسال لحم اليهم في الحال، والسيدة في منزل رقم ٤ في حي الهلال لا تعد

طعام الغداء ابداً حتى يأتي لحم العشاء. ولا شيء غير السرعة، والسرعة، والسرعة طوال الوقت. فاذا فكر الناس بما يريدون، ويطلبون لحمهم قبل يوم، فلا داع لهذا السرعة الخاطفة!

فقال الجزار: اتمنى من الله ان يفعلوا ذلك. اذن لجنبت نفسي حرجاً كثيراً، لارضيت زبائني لو علمت بطلباتهم مقدماً، ولكن ما جدوى الكلام، ومن يفكر براحة الجزار او حصانه؟ ادخله اذن واهتم به جيداً. وتذكر انه لن يخرج اليوم مرة اخرى، واذا طلبوا شيئاً آخر، فما عليك إلا ان تحمله بنفسك في السلة.

ثم دخل واقتاد ابنه الحصان الى الحظيرة

ولكن الاولاد جميعاً ليسوا قساة. وقد رأيت بعضهم مولعاً بحصانه او حماره كأنه كلب اثير، وان هذه المخلوقات اللطيفة كانت تعمل لسواقها الشباب بفرح ورغبة كما اعمل انا لدى جيري. قد يكون العمل شاقاً، غير ان يد الصديق وكلامه ييسران الامر.

جاء الى شارعنا بائع متجول شاب بخضاره وبطاطته. عنده حصان صغير عجوز، ليس وسيماً جداً، ولكنه من اكثر الخيول بهجة واقداماً. ومن الامور الممتعة ان ترى مدى الالفة بين الاثنين. فقد كان الحصان يتبع صاحبه كالكلب،

واذا ربط الى العربة فانه لا يجري دون تنبيه من سوط او كلمـة، ويـروح يقعقـع في الشـارع مرحاً كأنه خارج من اصـطبـلات الملكـة. اعجب جيري بالصبي ودعاه «الامير جارلي» لانه كان يقول انه سيكون ملك الحوذية يوماً من الايام.

وكان ايضاً رجل عجوز اعتاد الحضور الى شارعنا بعربة فحم صغيرة. وكان يعتمر قبعة الفحامين، ويبدو فظاً اسود الشكل. وكان هو وحصانه العجوز يتهاديان معاً في الشارع، مثل زميلين طيبين متفاهمين. وكان الحصان يتوقف من ذاته لدى ابـواب البيوت حيث يبتاعون منه الفحم. واعتاد ان يميل باحدى اذنيه نحو صاحبه. وكان نداء العجوز يسمع على طول الشارع الصغير قبل اقترابه. لم اكن اعرف ماذا يقول، ولكن الاطفال يسمونه «ابو الفحم». وكانت پولي تبتاع فحمها منه وكانت توده، وكان جيري يقول: من المريح ان يفكـر المرء بمدى السعادة التي يكون فيها حصان عجوز حتى ولو كان في بيت فقير.

الانتخابات ٤٧



عندما دخلنا الباحة في عصر يوم من الايام، خرجت پولي وقالت: جيري، جاء مستر بـ ...الى هنا يطلب صوتك الانتخابي، ويريد ان يستأجر عربتك للانتخابات. سيعود ليعرف الجواب.

فقال لها: ولكن يا پولي كان يجب ان تقولي له ان العربة محجوزة. انا لا اريد ان تلصق اعلاناتهم الكبيرة عليها، وان اجعل جاك وكابتن يتسابقان في الذهاب الى الحانات لاخذ

ناخبين سكارى لاني أعتبر ذلك اهانة للخيل. كلا، لن افعل ذلك.

فقالت: اعتقد انك ستدلي بصوتك للرجل؟ وقال انه يحمل ميولك السياسية.

فاجابها: في بعض الامور، ولكنني لن ادلي بصوتي له، يا بولي. آتعرفين مهنته؟

فقالت: نعم.

فقال: رجل يثري بهذه المهنة، قد يكون ممتازاً من بعض الوجوه، غير انه لا يرى ماذا يريد الناس العاملون. لا يمكن في قرارة ضميري ان ارسله ليسن القوانين. واحسب انهم سيغضبون، ولكن يجب ان يفعل ما يراه افضل لبلاده. وفي صباح اليوم الذي سبق الانتخابات، عندما كان جيري يضعني الى عرائش العربة، دخلت دولي الى الباحة تنشج باكية وثوبها الازرق ومئزرها الابيض ملوثان بالوحل في كل مكان.

فسألها ابوها: ها يا دولي، ماذا جرى؟

فقالت وهي تنشج! هؤلاء الاولاد الاشرار قذفوني بالاقذار واطلقوا على صعلوكة ـ صعلوكة

وقال هاري الذي جاء يركض وراءه غاضباً: ابي، اطلقوا عليها صعلوكة صغيرة زرقاء. ولكنني اعدتها لهم! فلن يهينوا

اختي مرة اخـرى. ضربتهم ضربـاً لن ينسـوه، زمـرة من الاوغاد الجبناء الانذال، البرتقاليين.

قبل جيري الطفلة وقال لها: ادخلي الى امك، يا حبيبتي، وقولي لها اني ارى ان تبقي في البيت اليوم.

ثم التفت بوقار الى هاري وقال: اتمنى يا ولدي ان تدافع دائماً عن اختك، وتضرب كل من يهينها ضرباً مبرحاً. هذا ما يجب ان تفعـل. ولكن تذكر، انني لا اريد ثلباً لمعتقداتي. يوجد سيابون زرق بعدد البرتقاليين، وبيض بعدد الورديين، او اي لون آخر. وانا لا اريد اياً من عائلتي ان تتورط في ذلك، فحتى النسـاء والاطفـال على استعداد للخصام من اجل الالوان، ولا يعرف واحد من عشرة القصد من ذلك.

فقال الصبي: ظننت ان الازرق يمثل الحرية، يا ابي.

فقال ابوه: يا ولدي الحرية لا تأتي من الالوان، انما هي تمثل الاحزاب فقط، وكل ما تستطيع ان تحصل من حرية منها هي ان تسكر على حساب الآخرين، والحرية ان تركب عربة قذرة الى صناديق الاقتراع، او الحرية في الاساءة الى كل من لا يلبس لونك، وان تهتف بصوت أجش على ما لاتفهم الا نصفه ـ هذه هي حريتك!

فقال: انك تمزح يا أبي.

فقال الاب: لا يا هاري، انا جاد، واخجل ان ارى رجالاً

يتصرفون كذلك في الوقت الذي يجب ان يفهموا الامور بشكل افضل. الانتخاب شيء جاد تماماً، او في الاقل ينبغي ان يكون كذلك، وينبغي لكل انسان ان يدلي بصوته على وفق ضميره وان يدع جاره يفعل الشيء نفسه.

٤٣
صديق عند الضيق

واخيراً حل يوم الانتخابات. ولم يكن ينقصنا العمل اذ وجيري. اذا جاءنا اولاً رجل قوي، بدين يحمل خرجاً، ويريد الذهاب الى محطة بيشوب گيت. ثم طلبتنا جماعة، يريدون نقلهم الى ريجنت بارك. وبعدها ارادتنا سيدة عجوز، قلقة، وجلة في شارع جانبي تنتظر نقلها الى المصرف حيث سنقف لا عادتها. وما ان انزلناها حتى جاء رجل احمر الوجه يحمل مجموعة من الاوراق وهو مبهور الانفاس وقبل ان ينزل جيري، فتح الرجل الباب ودخل ونادى: مركز شرطة شارع بو، بسرعة! فانطلقنا به. وعدنا بعد جولة أخرى او جولتين ولم نجد اي عربة في الموقف.

ووضع جيري مخلاة العليق في رأسي وقال: يجب ان نأكل كلما نستطيع في مثل هذه الايام. فامضغ طعامك يا جاك،

واستغل وقتك يا غلام.

وجدت طعاماً جيداً من الشوفان-المجروش المنقوع بشيء قليل من النخالة. قد يكون ترغاً في اي يوم، ولكنه كان منعشاً بشكل خاص في هذا الوقت. كان جيري كثير الاهتمام، عطوفاً فاي حصان لا يبذل جهدة لمثل هذا الرجل؟ ثم اخرج احدى فطائر اللحم التي اعدتها له پولي ووقف بجانبي، وبدأ يأكل.

كانت الشوارع مزدحمة، والعربات التي يتحمل اعلام المرشحين تنطلق بين الجماهير كأن الحياة والابدان لا اهمية لها. رأينا اثنن يدعسان هذا اليوم، احدهما امرأة. ونالت الخيل المسكينة جزاء ظالماً، غير ان الناخبين داخل العربة لم يكن يعنيهم شيء من ذلك. كان كثير منهم انصاف سكارى، يهتفون من نوافذ العربات اذا ما مروا بحزبهم. كان ذلك اول انتخاب اراه،

ولا اريد ان اكون في انتخاب آخر، بالرغم من انني سمعت ان الامور تحسنت الآن.

لم نكد، انا وجيري، ناكل عدداً من اللقم، حتى جاءت امرأة شابة فقيرة تحمل طفلاً ثقيلاً في الشارع. كانت تتلفت هنا وهناك وتبدو عليها امارات الحيرة، ثم اتجهت تواً الى جيري وسألته ان كان بوسعه ان يدلها على مستشفى سان توماس، وما المسافة اليه. قالت انها جاءت من الريف هذا

الصباح في عربة السوق، ولم تكن تعرف شيئاً عن الانتخابات، وهي غريبة في لندن. ولديها طلب بدخول ابنها الصغير الى المستشفى. كان الطفل يبكي بكاء واهناً.

وقالت: الصغير المسكين، يعاني كثيراً من الالم! عمره اربع سنوات ولا يستطيع المشي! افضل من طفل رضيع. ولكن الطبيب قال قد يتحسن. اذا استطعت ادخاله الى المستشفى. ارجوك، يا سيدي، هل يمكنك ان تقول لي كم تبعد؟ وباي اتجاه؟

فقال جيري: لم، يا سيدة! انت لا تستطيعين الوصول اليها مشياً بين مثل هذه الحشود! انها تبعد ثلاثة اميال، وهذا الطفل ثقيل.

فقالت: نعم، بارك الله فيه، ولكنني قوية، والحمد لله، ولو كنت اعرف الطريق، لوصلت اليها باية وسيلة. ارجوك ان تدلني على الطريق. فقال جيري: لا تستطيعين المشي. قد تدعسين ويدعس الطفل ايضاً. انظري الي، اركبي في هذه العربة، وسأوصلك الى المستشفى ألا ترين ان المطر مقبل؟

فقال: كلا، سيدي، لا يمكن ان افعل ذلك، شكراً. وليس لدي من المال الا ما يكفيني للعودة. ارجوك ان تدلني على الطريق.

فقال جيري: انظري، يا سيدة، الي. عندي زوجة واطفال

اعزاء في البيت، وانا اعرف مشاعر الاب. اصعدي في هذه العربة، وسوف آخذك الى هناك بلا شيء فاني اخجل من نفسي ان ادع امرأة وطفلاً مريضاً يجازفان مثل هذه المجازفة.

فقال المرأة وقد انهمرت دموعها: بارك الله فيك!

فقال يطيب خاطرها: يا هذه، تشجعي، يا عزيزتي! ساخذك فوراً الى هناك، هيا. ادخلي.

وعندما توجه جيري ليفتح الباب، ركض رجلان يحملان الالوان الانتخابية في قبعتيهما وبيوت الازراء وهما يناديان: عربة!

فصاح جيري «محجوزة» ولكن احد الرجلين دفع المرأة وقفز في داخل العربة، وتبعه الآخر. ونظر اليهما جيري نظرة صارمة مثل شرطي.

وقال: هذه العربة محجوزة، يا ايها السادة، لهذه السيدة.

فقال احدهما: سيدة! يمكنها ان تنتظر. عملنا مهم جداً ثم اننا دخلنا اولاً، فهذا حقنا، وسوف نبقى.

وكانت ابتسامة ساخرة على وجه جيري وهو يسد الباب عليهما. وقال! «حسناً، ايها السادة، ارجو ان تبقيا قدر ما يعجبكما. فاني استطيع الانتظار حتى تستريحا.» ثم ادار

ظهره اليهما ومشى الى المرأة الشابة الواقفة قريبا مني.

وقال باسماً: سرعان ما ينزلان، فلا تهتمي، يا عزيزتي. ونزلا فوراً، عندما ادركا مراوغة جيري، وراح الاثنان يكيلان له الشتائم، ويهددانه بتسجيل رقمه وتقديم شكوى عليه. بعد هذا التوقف القصير، انطلقنا في طريقنا الى المستشفى، سالكين الشوارع الجانبية قدر الامكان. ودق جيري الجرس الكبير، وساعد المرأة الشابة في النزول.

فقالت: شكراً لك الف مرة. فلم اكن استطيع الوصول الى هنا وحدي. شكراً لك مرة اخرى.

فرد عليها: مرحباً بك، وارجو للطفل العزيز الشفاء العاجل. وراح يراقبها وهي تدخل من الباب وقال لنفسه بلطف: ما دمت فعلت خيراً لواحد من هؤلاء الفقراء.

ثم ربت على رقبتي، على وفق عادته عندما يكون مسروراً. وبدأ المطر ينهمر، ولكننا عل وشك مغادرة المستشفى ففتح الباب مرة اخرى ونادى البواب: عربة! فوقفنا، ونزلت سيدة الدرجات، ويبدو ان جيري عرفها في الحال. ورفعت نقابها وقالت: باركر، ارميا باركر! اهذا انت؟ اني مسرورة ان اجدك هنا. انت الصديق الذي اريده، لان من العسير ايجاد عربة في هذا الجزء من لندن اليوم فقال: من بواعث الفخر ان اقوم بخدمتك، سيدتي. اني مسرور ان اكون هنا. الى اين

يمكنني اخذك، سيدتي.

فاجابته: الى محطة بادنكتن، واذا تيسر لنا الوقت الكافي، كما ارجو، ستخبرني كل شيىء عن پولي والاطفال.

وصلنا المحطة في وقت جيد؛ ووقفت السيدة تحت سقيفة تتحدث الى جيري فترة لا بأس بها. وعرفت انها معلمة پولي وبعد عدد من الاستفسارات عنها قالت: هل تجد عمل العربة مناسباً لك في الشتاء؟ اعرف ان پولي كانت قلقة عليك في السنة الماضية.

فقال: نعم، سيدتي، كانت كذلك، فقد اصبت بسعال شديد رافقني حتى الفصل الدافىء وصارت تقلق كثيراً، اذا تاخرت. وانت ترين، سيدتي، انني اعمل في جميع الاوقات والفصول، وهذا مما يبتلي بنية جسم الانسان، غير انني بصحة جيدة، واشعر بالضياع ان لم اعتن بالخيول. فقد شببت على ذلك، واخشى ان لا اجد شيئاً آخر اذا ما غيرت عملي.

فقالت: انه لمن المؤسف، يا باركر، ان تخاطر بصحتك في هذا العمل، ليس من اجلك وحدك بل من اجل پولي والاطفال، ثمة اماكن كثيرة يطلبون فيها سواقاً جيدين او سواس جيدين. واذا فكرت يوماً بذلك العمل في العربة، فدعني اعلم.

وارسلت تحياتها الطيبة الى پولي ووضعت في يده شيئاً

وقالت : هذه خمسة شلنات لكل من الطفلين. فان پولي تعرف كيف تنظفها.

وشكرها جيري، وبدا بالغ السرور، ثم خرجنا من المحطة ووصلنا البيت، وكنت انا، في الاقل، متعباً.

٤٤

كابتن العجوز وخلقه

كنا، انا وكابتن، صديقين حميمين. فقد كان زميلاً نبيلاً، ورفيقاً طَيباً، ولا اظن انه كان يفكر بترك منزله، لولا ان دوره حان، وهذا ما حصل. لم اكن حينذاك حاضراً لكنني سمعت كل شيء عنه.

اخذ كابتن وجيري جماعة الى محطة القطار الكبرى وراء لندن، ثم عادا، وبين الجسر والنصب، رأى جيري عربة نقل براميـل البيرة آتية امامهما يجرها حصانان قويان. وكان سائق العربة يضرب حصانيه بسوطه الثقيل. وكانت العربة خفيفة فانطلقا بسرعة رهيبة. وفقد الرجل السيطرة عليها. وكان الشارع مكتظاً بوسائل النقل. طرحت احدى البنات الصغيرات ودعست، ثم انقضا في اللحظة التالية بقوة عظيمة واصطدما بعربتنا.

وانخلعت العجلات وانقلبت العربة، وسقط كابتن وتهشم العريشان، ودخل احدهما في جانبه، والقي جيري ايضا على الارض، ولكن لم يصب الا برضوض. ولا يعرف احد كيف نجا - وهو يقول دائماً - انها معجزة.

وعندما انهضوا كابتن المسكين وجدوه مصاباً بجروح كثيرة وكدمات. وقاده جيري الى البيت برفق، وكان منظر الدم، الذي خضل جلده الابيض وسال من جنبه وكتفه منظراً محزناً. وثبت ان سائق عربة البيرة كان شديد السكر ففرضت عليه غرامة، وادين صاحب المصنع ان يدفع عن الاضرار الى صاحبنا (جيري)، ولكن من يدفع عن الاضرار التي اصابت كابتن المسكين.

وبذل البيطار وجيري كل ما في وسعهما لتخفيف آلامه وجلب الراحة اليه. وجرى تصليح المركبة الخفيفة، ولم اخرج عدة ايام، ولم يكسب جيري شيئاً. وجاء الحكم ليسمع عن صحة كابتن، في اليوم الاول الذي خرجنا فيه الى الموقف.

فقال جيري: انه لن يتعافى من اصابته تماماً. ولن يصلح للعمل، لدي في الاقل، كما قال البيطار صباح اليوم. قال انه يمكن ان يصلح لجر عربة الاحمال وما شابه ذلك العمل. وقد ازعجني ذلك كثيراً. أجر العربات الحمل حقاً! لقد رأيت مآل

كثير من الخيل في ذلك العمل في انحاء لندن. إلا ليت المدمنين على السكر يوضعون في مصحات عقلية، بدلاً من السماح لهم بالاساءة الى الناس المتزنين. لو انهم ارادوا كسر عظام انفسهم، وتحطيم عرباتهم الخاصة، واصابة خيولهم بالعرج، فذلك شأنهم الخاص بهم، ويمكن ان ندعهم وشأنهم، ولكن كيف اذا كان الابرياء هم الذين يعانون دائماً، ثم انهم يتحدثون عن التعويض! فلا يمكنك إجراء التعويض ـ بعد كل هذه الاضطراب والغيظ وضياع الوقت، فضلاً عن فقدان جواد ممتاز مثل صديق قديم ـ الكلام على التعويض هراء! اذا كنت اود ان ارى شيطاناً في هاوية لا قرار لها اكثر من غيره، فانه شيطان السكر.

فقال الحكم: اقول يا جيري، انك تجرح مشاعري، كما تعلم فانني لست طيباً مثلك، واتمنى لو كنت كذلك، فواخجلي!

فقال جيري: حسناً، ولماذا لا تتركه، يا حكم؟ انك اطيب من ان تكون عبداً لمثل هذا الشي.

فقال: انا احمق كبير، يا جيري، وقد حاولت مرة تركه يومين، فظننت اني ساموت. فكيف فعلت انت ذلك؟

فقال جيري: بذلت أقصى جهد اسابيع متعددة. ولم اتناول مشروباً قط، ووجدت نفسي انني لا اسيطر على نفسي،

وعندما عاد الحنين،كان من الصعب ان اقول: لا. فرأيت ان احدنا يجب ان يطرح الآخر - شيطان الشرب او جيري باركر، وكان الله في عوني. ولكنه كان صراعاً، احتجت الى كل عون يمكن الحصول عليه، لانني لم اكن اعرف مدى قوة العادة حتى حاولت إبطالها. فلم تأل پولي جهداً في اعداد الطعام الجيد لي، وعند عودة الحنين اعتدت ان اتناول فنجان قهوة، او شيئاً من النعناع او اقرأ قليلاً في كتابي، وكان ذلك عوناً لي. وكنت احياناً اكرر لنفسي قائلاً: «اتترك الشرب ام اخسر نفسك؟ اتترك الشرب ام تكسر قلب پولي؟» ولكن الحمد الله ولزوجتي العزيزة فقد تحطمت اغلالي ولم اذق قطرة منذ عشر سنوات ولا ارغب في ذلك ابداً. فقال الحكم: لي رغبة عظيمة في محاولة تركه، لان من البؤس الا يكون المرء سيد نفسه.

فقال جيري! افعل، يا جيري، افعل ذلك ولن تندم، وما اعظم المساعدة التي تسديها الى بعض زملائنا الفقراء اذا ما رأوك تعمل من دونه. واني اعرف اثنين او ثلاثة منهم يودون الابتعاد عن تلك الحانة لو كان بوسعهم.

يبدو ان كابتن سار سيراً حسناً في البداية في عمله، ولكنه كان حصاناً مسناً، وبسبب بنيته العجيبة وعناية جيري به استطاع ان يبقى هذه المدة الطويلة في عمله في عربات

الاجرة. اما الآن فقد إنهار كثيراً. وقال البيطار انه يجب ان يشفى الى درجة كافية لكي يباع بثمن بخس. ولكن جيري لم يوافق لان الحصول على باونات معدودات لقاء بيع حصان عجوز ممتاز لكي يخدم في عمل شاق وبؤس سيفسد عليه بقية ماله، ويعتقد ان افضل شيء له واكثر رحمة بهذا الصديق القديم العجوز هو طلقة صغيرة، ولن يعود بعدها يعاني من شيء، لانه لا يعرف اين يجد صاحباً رؤوفاً يقضي عنده بقية ايامه.

تقرر اليوم بعد ذلك، واخذني هاري الى دكان الحداد من أجل نعال جديدة، وعندما رجعت لم اجد كابتن. وتأثرت انا والعائلة كثيراً.

وكان على جيري ان يبحث عن حصان آخر، وسرعان ما سمع عن حصان بواسطة احد معارفه، وهو سائس صغير في اصطبلات احد النبلاء. كان حصاناً فتياً، ثميناً، غير انه كان قد هرب و صطدم بعربة اخرى، فأبقى سيده على الارض، وجرح نفسه واصيب بعيوب فلم يعد مناسباً ان يبقى في اصطبلات النبلاء، فتلقى الحوذي امراً بالبحث عمن يشتريه.

فقال جيري: انا استطيع ان اشتريه بكل سرور ان لم يكن شرساً او عنيداً، قاسي الفم.

فقال الرجل: لا عيب فيه وفمه شديد الحساسية، واظن ان ذلك هو سبب الحادثة. فقد كان قد ربط حديثاً الى العربة وكان الطقس رديئاً، ولم يكن قد تلقى تدريباً كافياً. وعندما خرج انعطف كالبالون. فشده حوذينا بكل ما استطاع من قوة من اللجام، والشكيمة وكل السيور، فجن لذلك جنون الحصان، كما اعتقد، لانه حساس الفم ونشيط.

فقال جيري: هذا محتمل تماماً. سوف احضر لرؤيته.

وجلب الحصان الى البيت في اليوم الثاني، كان اشهب رائعاً، ليس فيه شعرة واحدة بيضاء، طويل مثل كابتن، وسيم الرأس، عمره خمس سنوات فقط. رحبت به ترحيباً ودياً على سبيل الزمالة الطيبة، ولم اوجه له اي سؤال. لم يكن في الليلة الاولى مستقراً، فبدلاً من الاستلقاء، ظل يهز زمامه هزاً عنيفاً الى الاعلى والاسفل من الحلقة، ويضرب المعلف، فلم استطع النوم. على انه في اليوم التالي، بعد ان خرج بالعربة خمس او ست ساعات، عاد هادئاً، متعقلاً. وربت عليه جيري وتكلم اليه كثيراً، وما لبث الاثنان ان تفاهما، وقال جيري انه سيصبح كالحمل الوديع بكثرة العمل والشكيمة المريحة، وان الريح المواتية لا تجري كما يشتهي الناس، او كما يقال: مصائب قوم عند قوم فوائد، فقد فقد سيادته حصاناً اثيراً بمئة جنيه، وكسب الحوذي حصاناً ممتازاً

يتمتع بقوة عظيمة.

واعتقد الحصان الجديد ان عمله في عربة اجرة تدهور عظيم في احواله، واشمأز من الوقوف في صف العربات، غير انه اعترف لي في نهاية الاسبوع ان الرأس الطليق والفم المرتاح يعوضان عن ذلك كثيراً، وان العمل، بالرغم من ذلك كله، لم يكن مهيناً مثل ربط الرأس والذنب مع بعضها بالسرج. ولقد استقر، في الحقيقة استقراراً حسناً، واحبه جيري كثيراً.

٤٥
السنة الجديدة

عيد الميلاد والسنة الجديدة مناسبتان سعيدتان لبعض الناس. ولكنهما ليسا عطلة عند الحوذيين وخيلهم، بالرغم من انهما قد تكونان مصدر كسب وفير. فحفلات الأنس والرقص قائمة، واماكن اللهو والتسلية مفتوحة، لذا فان العمل شاق وغالباً ما يمتد الى ساعات متأخرة، وقد يضطر السائق والحصان احياناً الى الانتظار تحت المطر والصقيع، وهما يرتعشان من البرد، في الوقت الذي يكون المحتفلون منغمرين في الرقص على انغام الموسيقى.

واني لاسائل نفسي ان كانت السيدات الجميلات يفكرن بالحوذي المرهق الجالس في مقعد السياقة منتظراً، وحصانه الصابر، الواقف حتى تتصلب قوائمه من البرد.

وصار اغلب عمل المساء من نصيبي لانني كنت معتاداً على الوقوف، وكان جيري يخشى على الحصان الآخر من الاصابة بالبرد. عملنا كثيراً في اسبوع عيد الميلاد، وتفاقم سعال جيري سوء. وكانت پولي تسهر بانتظاره مهما تأخرنا وتخرج بالمصباح للقائه ويبدو عليها اللهفة والقلق.

وفي مساء السنة الجديدة، اخذنا رجلين الى بيت في حي ويست ايند (الطرف الغربي).

انزلناهما في الساعة التاسعة، وطلبا منا العودة في الساعة الحادية عشرة. وقال احدهما! وبما انها جلسة لعب ورق، فيمكن ان تنتظر بضع دقائق، ولكن لا تتأخر.

وعندما دقت الساعة الحادية عشرة، كنا لدى الباب، فقد كان جيري دقيقاً في مواعيده دائماً. ثم دقت ارباع الساعة. الربع الاول، الثاني، الثالث، ثم دقت الثانية عشرة، ولكن الباب لم يفتح.

وكانت الريح شديدة التقلب، وقد صحبها اثناء النهار هطول امطار، اما الآن فقد هبت رياح عاتية تحمل مطراً متجمداً كأنها تأتي من كل الجهات. كان البرد قارساً وليس

ثمــة ملجأ واقٍ. فنزل جيري من مقعده وجاء وسحب احد اغطيتي ليقي بها رقبتي بشكل افضل، ثم صار يمشي جيئه وذهاباً، وهو يضرب الارض بقدميه، وراح يضرب يديه، غير ان ذلك جعله يسعل، لذلك فتح باب العربة وجلس في الاسفل ورجــلاه على بلاط الشارع فاحتمى قليلاً، ثم دقت ارباع الســاعة، ولم يخرج احد، وفي الثانية عشرة والنصف دق الجرس وسأل الخادم اذا ما كانوا يريدونه في تلك الليلة.

فقــال الرجــل: نعم، انهم يريــدونك بكل تأكيد. فيجب الاتغادر، وسوف ينتهون في الحال.

ثم عاد جيري الى الجلوس ولكن بُح صوتــه فلم اكــد اسمعــه. وفي الســاعــة الواحدة والربع فتح الباب وخرج الرجلان، وصعدا في العربة دونا كلمة واخبرا جيري الى اين يذهب، وكــانت المســافة ميلين تقريباً. وخدرت قوائمي من البرد وظننت انني سوف اكبــو. وعندما نزل الرجلان، لم يعتذرا عن جعلنا ننتظر طويلا، بل غضبا على الاجرة. وبما ان جيري لايطلب اكثر من حقه، لذلك لم يأخذ اقل مما طلب، وكــان عليهما ان يدفعا عن انتظارنا ساعتين وربع ساعة، كانت نقوداً، كسبها جيري بمشقة.

واخــيراً وصلنــا البيت ولم يكــد يستطيع الكلام، وكان سعــاله فظيعــاً. ولم توجه له پولي سؤالاً، بل فتحت الباب

وحملت له المصباح وقالت له: الا يمكنني ان افعل شيئاً؟

فاجابها نعم: نعم، اجلبي شيئاً دافئاً الى جاك، وسخني لي شيئاً من العصيدة

قال ذلك بهمس مبحوح، ولم يكد يستطيع التنفس، ولكنه زبتني كالعادة، وذهب الى حجرة التبن ليجلب حزمة قش اضافية لمنامي. وجلبت لي پولي الجريش الدافي الذي جعلني اشعر بالراحة، ثم اغلق الباب.

تأخر الوقت في صباح اليوم الثاني قبل ان يأتي احد، حتى جاء هاري وحده. فنظفنا واطعمنا وكنس الحظائر، ثم اعاد القش الى مكانه كما يفعل في يوم الاحد. وكان هادئاً، فلم يصفر او يغني، وجاء عند الظهر واعطانا طعامنا وماءنا. وحضرت دولي معه هذه المرة، وكانت تبكي، واستطعت ان افهم مما تحدثا به ان جيري كان مريضاً مرضاً خطيراً. وقال الطبيب ان حالتـه سيئـة. ومـر على ذلك يومـان، وحـدث اضطراب شديد في المنزل. ولم نر إلا هاري واحياناً دولي. واظن انها جاءت للمصاحبة، لان پولي كانت دائماً مع جيري ويجب المحافظة على الهدوء التام.

وعندما كان هاري في الاصطبل في اليوم الثالث، سمعنا دقة خفيفة على الباب، ودخل گرانت الحكم

وقال: انا لن ادخل يا ولدي، اردت ان اعرف حال ابيك.

فقال هاري: انه سيء الحال، ولا يمكن ان يكون اسوأ من هذا. يسمونه الالتهاب الشعبي. ويظن الطبيب انه سوف يتطور هذه الليلة بشكل من الاشكال.

فقال گرانت: وهو يهز رأسه هذا سيء، سيء جداً. اعرف رجلين ماتا في الاسبوع الماضي من ذلك. فهو يأخذهم بغتة. ولكن مع الحياة امل، فعليك ان ترفع معنوياتك وتتشجع.

فاسرع هاري بالقول: اجل، ويقول الطبيب ان امام ابي فرصة افضل من اغلب الناس لانه لايشرب. قال امس ان الحمى كانت شديدة الارتفاع فلو كان ابي رجلاً سكيراً، لحرقه مثل قطعة من ورق. ولكنني اعتقد انه يرى ان ابي سوف يتعافى من ذلك. الا تظن انه سيتعافى يا مستر گرانت؟

فاومأ گرانت برأسه موافقاً. وقال: اذا كان ثمة قاعدة تقول ان الرجال الصالحين يذللون تلك الاشياء، فاني على يقين انه سيشفي يا ولدي. انه افضل رجل اعرفه. سوف اعود لزيارتكم غداً في الصباح الباكر.

وحضر اليهم في الصباح الباكر. وسأل: جيد؟

فقال هاري: ابي احسن حالاً. وامي تأمل انه سيتعافى.

فقال الحكم: الحمد لله! ويجب عليكم المحافظة على تدفأته والمحافظة على راحة فكره. وهذا ينقلني الى الخيل. فانت ترى ان جاك سوف يتحسن اذا ارتاح اسبوعاً او

اسبوعين في اصطبل دافيء، ويمكنك ان تخرج وتتمشى به في الشارع ليحرك ارجله. اما هذا الحصان الفتي، فانه اذا لم يشتغل فانه ستيكون متمرداً دائماً ولا تقوى عليه، كما يقال.

فقال هاري: انه الآن كما تقول. ولقد قللت الحبوب عنه. ولكنه مفعم بالحيوية ولا ادري ماذا افعل به.

فقال گرانت: كما فعلت. والآن، استمع الي، ارجو ان تخبر والدتك، اني سوف امر عليه كل يوم، اذا وافقت، حتى تدبروا امراً، واخذه الى عمل جيد مريح. وسوف اجلب لامك نصف ما يكسب. وهذا سوف يعين في علف الخيل. انا اعرف أن اباك في وضع جيد ولكن ذلك لن يكفي نفقة الخيل، فانها ستكلف نفقات طعام اكثر ما تستحق. سأمر عند الظهر واسمع رأيها.

وذهب قبل ان يسمع شكر هاري.

واظن انه جاء عند الظهر ورأى پولي، لانه اتى مع هاري الى الاصطبل، وألجما الحصان الآخر واخرجاه.

وظل يأتي ليأخذ الحصان اسبوعاً اواكثر من اسبوع، وعندما شكره هاري على لطفه، تجنب الاحراج بالضحك قائلاً انها فرصة طيبة له، لان خيله كانت بحاجة الى قليل من الراحة التي لولا ذلك لما تمتعت بها.

وتحسنت صحة جيري باطراد، ولكن الطبيب قال انه

يجب الا يعود الى شغل العربات اذا اراد ان يعيش طويلاً حتى يشيخ. وعقد الطفلان عدداً من المداولات بخصوص ما سيقوم به الاب والام، وكيف يمكنها تقديم المساعدة لهما.

وجيء في عصر يوم من الايام بالحصان مبللاً قذراً. وقال الحكم: ليس في الشوارع الا وحل. وسوف يعطيك تنظيفه وتجفينه دفئاً كثيراً.

فقال هاري: حسناً يا حكم، لن اتركه حتى ينظف ويجف. فانت تعلم اني تدربت عند والدي.

فقال الحكم: ليت الاولاد جميعاً يتدربون مثلك.

وعندما كان هاري ينظف ارجل الحصان من الوحل، دخلت دولي تحمل في نفسها امراً وسألت: هاري من يسكن في فيرستاو؟

تلقت امي رسالة من فيرستاو. وبدت عليها السعادة، فركضت بها الى الغرفة العليا حيث ابي.

فقال هاري: الا تعلمين؟ انه منزل السيدة فاولر، معلمة امي القديمة، كما تعلمين ـ السيدة التي صادفها والدي في الصيف الماضي وارسلت لي ولك خمسة شلنات.

فقالت: اوه! السيدة فاولر طبعاً، اعرف كل شيء عنها. وانني لاتساءل ماذا كتبت لامي؟

فقال هاري: كتبت امي لها في الاسبوع الماضي. وانت

تعلمين انها اخبرت ابي انه اذا ترك عمله في عربات الاجرة، فانها تود ان تعرف ذلك. واتساءل ماذا تقول. اركضي يا دولي واسمعي. وراح هاري يفرك الحصان وهو يهدئه بقول: هوش، هوش! منك اي سائس عجوز.

وعادت دولي، بعد دقائق قليلة، راقصة الى الاصطبل، وقالت هاري، لااحمل من هذا الشيء ابداً! تقول السيدة فولر: اننا جميعاً سنذهب ونعيش قريباً منها. فثمة كوخ خال سيكون مناسباً لنا، وفيه صديقة، وبيت للدجاج، واشجار تفاح، وكل شيء. وان سائق علابتها سيتقاعد في الربيع، وستحتاج الى ابي ليحل محله. وحولنا عوائل ممتازة، حيث يمكنك ان تحصل على عما في حديقة او في اصطبل، او ان تكون وصيفاً. وهناك مدرسة جيدة بالنسبة الي. امي تضحك مرة وتبكي، وابي يبدو سعيداً جداً!

فقال هاري: هذه بهجة رائعة. وانها الشيء الصحيح الذي اراه. وهو ما يناسب ابي وامي كليهما. ولكنني لا اريد ان اكون وصيفاً ببدله طبقة وصفوف من الازرار. ساكون سائساً او بستانتياً.

وقرروا في الحال انهم سنتقلون الى الريف حالما تتحسن صحة جيري، وان تباع العربة والخيل باسرع ما يمكن.

كان ذلك جداً ثقيل الوطأة علي لانني لم اعد الآن شاباً

ولا اتطلع الى تحسن في احوالي، فمنذ ان تركت بيرتويك لم اجد السعادة كما وجدتها مع صاحبي العزيز جيري، ولكن العمل ثلاث سنوات في عربة اجرة يظهر أثره في قوة المرء، حتى في افضل الظروف: وشعرت انني اكن الحصان الذي كنت سابقاً.

وقال گرانت انه سيأخذ الحصان الآخر لنفسه، وان هناك بعض الرجال في الموقف من يرغبون في شرائي، غير ان جيري قال انني لن اعود الى العمل في عربات الاجرة مرة اخرى مع اي شخص كان. وتعهد الحكم ان يجد لي مكاناً ارتاح فيه.

وحل يوم الرحيل، ولم يكن قد سمح لجيري بالخروج حتى الآن، ولم اراه قط بعد ليلة السنة الجديدة. وجاءت پولي والصغيرين لوداعي.

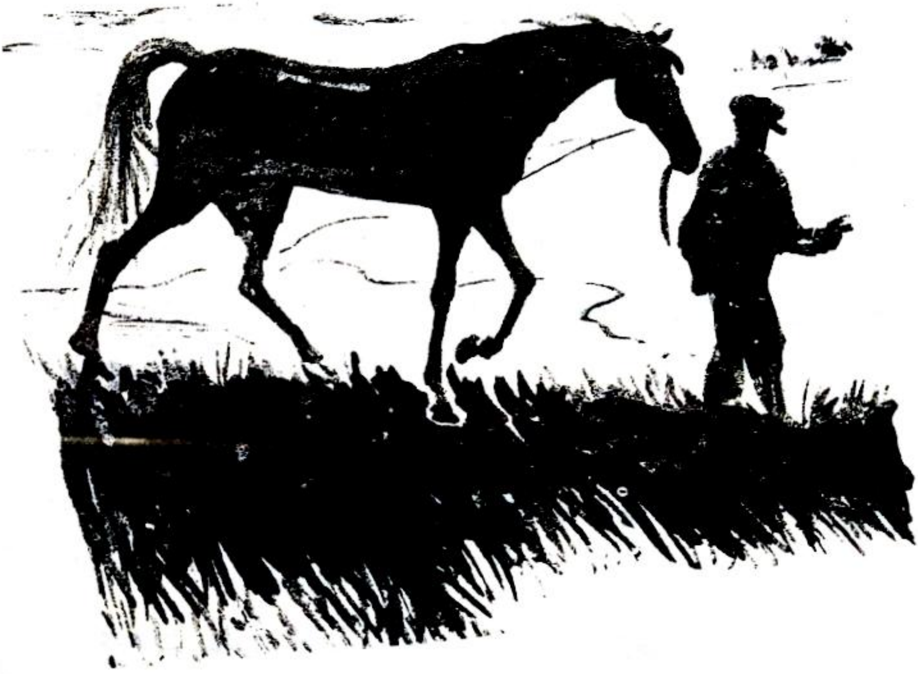
فقالت پولي: مسكين يا جاك! ايها العزيز جاك العجوز! ووضعت يدها على عرفي ورأسها على عنقي على عنقي وقبلتني. وبكت دولي وقبلتني ايضاً ومسدني هاري كثيراً، ولكنه لم يقل شيئاً، بل بدا شديد الحزن.

وهكذا اقتادني بعيداً.

الجزء الرابع

٤٦

جيكس والسيدة



ابتاعني تاجر حبوب وطحان يعرفه جيري، ويظن انني سانال لديه طعاماً جيداً وعملاً معتدلاً. كان ظنه في البداية صحيحـاً، ولو كان صاحبي دائم الحضور، فلا اظن انهم

يحملونني ما لا طاقـة لي بحمله، ولكن رؤساء العمال كان يستحثهم دائمـاً، وكـان في كثير من الاحيان يأمل بزيادة الحمـل حتى عندما يرى حمل عربتي مليئاً. وكان سائقي المـدعو جيكس يقول ان الحمل اثقل مما ينبغي لي، ولكن الآخر كان يفرض نفوذه عليه دائماً.

وكان جيكس، شأنه شأن السواق الاخرين، يشد اللجام بقوة فيبقى الرأس مرفوعاً، ويمنعني من السحب بسهولة وراحة. وبقيت اعمل هناك ثلاثة او اربعة شهور، فوجدت العمل قد اثر في قوتي كثيراً.

وكنت ذات يوم محمـلاً اكثر من المعتاد، وكان جزء من الطريق يصعد منحدراً من تل. فبذلت كل قوتي، ولكنني لم لم استطع الصعود، واضطررت الى التوقف. ولم يسر السائق بذلك فاهوى على بالسوط ضرباً مبرحاً وهو يقول: هيا، ايها الكسلان، والا اجبرتك.

فاستـأنفت جر الحمل وتقدمت بضع خطوات بصعوبة بالغـة. فهـوى مرة اخـرى بالسـوط، وناضلت مرة اخرى بالتقدم. كان ألم ذلك السوط العظيم حاداً، ولكني تأثرت في نفسي، كما تأثرت في جنبي، للعقوبة وسوء المعاملة في الوقت الذي ابذل قصارى جهدي، فكان ذلك استل قلبي من صدري.

وفي مرة اخـرى كان يضربني بالسـوط ضربـاً قاسيـاً، فتقدمت اليه سيدة في الحال وقال بصوت حلو، حاد: ارجوك، يا هذا كف عن ضرب حصانك بالسوط. انا متأكدة انه يبذل كل ما يستـطيع، وان الطريق شديدة الانحدار! انه يبذل قصار جهده.

فقال جيكس: اذا كان يبذل قصارى جهده ولا يصعد بالحمل، فما عليه الا بذل جهد اكثر من هذا، وهذا هو كل ما اعرفه، يا سيدتي.

فقالت: ولكنه ليس حملاً ثقيلاً جداً.

فقال: نعم، نعم، ثقيل جداً، ولكن ليس هذا ذنبي. فقد جاء رئيس العمال عندما كنا خارجين، فامر بوضع ثلاث مئة باوند اضافية توفيراً للوقت، ويجب علي ايصالها بأسرع ما استطيع.

ورفع السوط عندما قالت له السيدة: ارجوك لا تضربه. اظن انني استطيع مساعدتك اذا سمحت لي.

فضحك الرجل

فقالت: ترى انك لاتعطيه فرصة مناسبة، فهو لايستطيع استخدام طاقته كلها وراسه مشدود الى الوراء بهذا الشكل باللجـام المرفوع. فلو ارضيته كله، لعمل افضل - ارجوك جرب ذلك. وساكون مسرورة لو فعلت ذلك.

فقال جيكس بضحكة قصيرة: حسنا، حسناً. سافعل كل ما يسر السيدة، طبعاً. الى اي مستوى اخضعته، سيدتي؟

فقالت: الى آخر حد، اطلق رأسه تماماً.

فرفع العنان عني، فخفضت رأسي فوراً الى ركبتي، ما اعظم الراحة هذه! ثم رحت ارفعه واخفضه عدة مرات لازيل التصلب المؤلم من رقبتي.

فقالت! المسكين! هذا ما كان يريده.

وربتت على عنقي ومسدتني بيده الرقيقة واضافت قائلة: والآن تكلمت اليه بلطف وقدته لكي يسير، فاني اعتقد انه سيكون قادراً على التقدم بشكل افضل.

وتناول جيكس العنان وقال: هيا يا أسيود.

فخفضت رأسي والقيت كل وزني على الطوق، ولم اوخر شيئاً من قوتي، وسارت العربة، ورحت اسحب باطراد الى اعلى التل ثم توقفت لاخذ نفسٍ.

وكانت السيدة تمشي على الرصيف فنزلت وعبرت الطريق، فمسدتني وربتت عنقي، لم اربت منذ ايام كثيرة.

وقالت: «ترى انه راغب في العمل بعد ان اعطيه فرصة. واني متأكدة انه حصان اصيل الطبع، واستطيع ان اقول انه عاش عيشة مرضية في السابق، فلا تعد الى وضع العنان بشدة، ارجوك.» لانه اراد ان يشد العنان بقوة كالسابق.

فقال: حسناً، سيدتي، لايمكن ان انكر ان اطلاق الحركة لرأسه ساعده على صعود التل، وسوف اتذكر ذلك في المرة القادمة، وشكراً لك يا سيدتي. ولكن اذا ما بدون عنان مرفوع، ساكون سخرية جميع سواق العربات فانت ترين انها الطريقة السائدة.

فقالت له: اليس من الافضل السير على طريقة صالحة من اتباع طريقة سيئة؟ كثير من الرجال لا يستعملون الآن الاعنة المرفوعة. فخيول عربتي لم تستعملها منذ خمسة عشر عاماً، وهي تعمل بجهد اقل مما لو كانت تستعملها. وفضلا عن ذلك، اننا لا يحق لنا ان نكون مصدر ضيق لمخلوقات الله دون مبرر معقول. نحن نطلقعليهم اسم حيوانات بكماء، وهي كذلك، لانها لاتستطيع ان تخبرنا بما تشعر، ولكنها تتألم اكثر لانها لاتستطيع النطق. ولكن يجب الا اؤخرك الآن. شكراً لك على تجربة طريقتي على حصانك الممتاز، واني على يقين انك ستجدها افضل كثيراً من السوط. طاب نهارك.

تم ربتت ربتة رقيقة اخرى على عنقي، وعبرت الطريق ولم ارها بعد ذلك.

وقال جيكس لنفسه! انها سيدة حقيقية. سالتزم بطريقتها. وقد تكلمت معي بمنتهى الادب. ساجرب خطتها

في صعود التل على اية حال.

واقول الحق انه ارخى العنان كثيراً. اما عند صعود تل فقد كان يطلق رأسي من العنان دائماً.

واستمرت الاحمال الثقيلة. ويمكن للطعام الجيد والراحة المعتدلة ان يزيدا قوة المرء تحت وطأة العمل المتواصل، ولكن لايمكن للحصان ان يتحمل الاثقال المفرطة، وتدهورت كثيراً بسبب ذلك، فاشتروا حصاناً فتياً بدلي.

ولا مناص من ذكر ما عانيت من شيء آخر. وقد سمعت الخيل تتحدث عن ذلك، ولكنني لم اكن قد خبرت ذلك الشر، الا وهو الاصطبل السيء الانارة. فقد كانت نافذة واحدة في الاصطبل، ونتيجة لذلك كله كانت الحظائر مظلمة تقريباً. وفضلا عن التأثير الذي انزله ذلك الوضع في معنوياتي، فقد اضعف بصري، وعندما كنت اخرج فجأة من الظلام الى نور النهار الساطع، كان ذلك يؤلم عيني. وكثيراً ما تعثرت بالعتبة، ولم يكن بوسعي رؤية دربي.

واعتقد انني لو بقيت مدة اطول، لغدوت اعمش، ولحلت بي كارثة عظيمة. وقد سمعت الناس يقولون ان الحصان الاعمى تماماً اكثر اماناً في السياقة من حصان قليل البصر، لان ذلك يجعل الخيل هيابة عموماً.

على انني سلمت من الاصابة بعاهة مستديمة في بصري،

وابتاعني صاحب عربة كبيرة.

٤٧
اوقات عصيبة

لن انسى، ما جييت، صاحبي الجديد. له عينان سوداوان، وانف اقنى، وفم مليء بالاسنان كفم كلب، وصوت اجش كأنه جرش عجلات عربة فوق حصى. اسمه نيكولا سكنر، واظنه الرجل نفسه الذي كان يسوق سام ذو الاسمال يسوق احدى عرباته.

وقد سمعت الناس يقولون: الا تصدق حتى ترى، ولكني اقول: لاتصدق حتى تجرب. فقد رأيت كثيراً في السابق، ولم اعرف حقاً حتى الآن البؤس المطلق في حياة حصان جر العربات.

وكان لدى سكنر مجموعة وضيعة من العربات مع مجموعة وضيعة من السواق. وكان قاسياً على الرجال، وكان الرجال قساة على الخيول. ولم نكن نتمتع براحة يوم الاحد في هذا المكان حتى في حرارة الصيف.

وكان احياناً، في صباح يوم من ايام الاحد، تستأجر جماعة من الاصدقاء عربة طوال النهار ـ اربعة منهم

يجلسون في الداخل، وخامس مع السائق. ويجب علي ان انقلهم عشرة اميال او خمسة عشر ميلاً الى الريف، ثم اعود بهم. ولن يترجل احد منهم لدى صعود تل من التلال، حتى ولو كان شديد الانحدار، او كان النهار شديد الحرارة ـ الا اذا خشي السائق اني قد لا استطيع الصعود. وكنت اعود احياناً محموماً، منهوكاً لا يعجبني ان امس الطعام. وكم اشتقت الى الجريش والنخالة مع الملح الذي اعتاد جيري ان يضعه فيه ويقدمه لنا في ليالي الطقس الحار، لكي نبرد ونرتاح. كنا في ذلك الوقت نتمتع براحة متواصلة ليلتين ونهاراً كاملاً، فنستعيد نشاطنا كالخيول الفتية في صباح الاثنين. اما هنا فلا راحة لنا. وكان سائقي قاسياً مثل سيده. لديه سوط قاس في طرفه شيء حاد يجرح احياناً. وقد يضربني تحت البطن او يقرع رأسي بالسوط. وكانت مثل هذه الاهانات تقتلع قلبي من جوفي بشكل رهيب؛ ومع ذلك كنت ابذل جهدي ولا اتلكأ. ولكن بلا جدوى، كما قالت شهباء المسكينة، لان الرجال اقوى.

عشت ايامي في شقاء شديد فتمنيت، مثل شهباء، ان اخر صريعاً اثناء عملي واخلص من بؤسي. وكادت امنيتي تتحقق ذات يوم.

ذهبت الى الموقف في الساعة الثامنة صباحاً، فكان

نصيبنا ان نأخذ مسافراً الى محطة السكة الحديد. وكانوا يتوقعون وصول قطار طويل، لذلك فان سائقي وقف وراء بعض العربات الخارجية انتهازاً لفرصة الحصول على اجرة للرجعة. كان القطار مزدحماً. ولما حجزت جميع العربات، جاء دورنا. وكانوا جماعة من اربعة انفار، رجل يتحدث بصخب مع امرأة، وولد صغير وفتاة، ومقدار كبير من الامتعة. صعدت الامرأة والولد في العربة، وجاءت الفتاة ونظرت الي عندما كان ابوها يشرف على تحميل الامتعة.

وقالت: ابي، اني متأكدة ان هذا الحصان المسكين لا يستطيع ان ينقلنا مع امتعتنا كل هذه المسافة، فهو ضعيف ومرهق. ارجوك انظر اليه.

فقال السائق: انه بخير، يا آنسة، وهو قوي.

واقترح الحمال الذي كان ينقل بعض الصناديق الثقيلة ان يستأجر الرجل عربة اخرى لوجود امتعة كثيرة جداً.

فقال الرجل الصاخب الكلام: ايستطيع حصانك ان ينقلنا ام لا يستطيع.

فاجابه: اجل، سيدي يستطيع ذلك بشكل جيد. انقل الصناديق ايها الرجل. فانه يستطيع ان ينقل اكثر من ذلك.

وساعده في حمل صندوق ثقيل جداً بحيث شعرت بالنوابض تهبط. فقالت الفتاة متوسلة: ابي، ارجوك يا آبي،

خذ عربة ثانية. انا متاكدة اننا مخطئون، وانا متاكدة انها قسوة شديدة.

فقال ابوها: هراء، يا گريس! اصعدي حالاً، ولا داعي لهذه الضجة كلها. شيء لطيف ان يفحص رجل الاعمال كل حصان عربة قبل ان يستأجره - الرجل يعرف شغله، طبعاً. ادخلي، والتزمي الصمت.

وكان على صديقتي ان تطيعه. وسحب صندوق بعد صندوق ورفعت ووضعت فوق العربة، او استقرت بجانب السائق. وانتهى اخيراً كل شيء وتأهبت للرحيل خارج المحطة، فهز اللجام كالمعتاد ولوح بالسوط وضرب.

كان الحمل ثقيلاً جداً، ولم اكن قد تناولت شيئاً من طعام او ارتحت منذ الصباح، ولكنني رحت ابذل قصارى جهدي، كما افعل دائماً، بالرغم من القسوة والظلم.

وسرت بكل جيد حتى وصلنا لودگيت، غير ان الحمل الثقيل وانهاكي قد بلغا حداً عسيراً، وجاهدت ان اواصل سفري، والسائق يستحثني بضربات متواصلة من اللجام والسوط، وفي لحظة واحدة - لا ادري كيف - زلقت ارجلي تحتي، فهويت ثقيلاً على جانبي فوق الارض. ويبدو ان المفاجأة وقوة السوط قد قطعا كل نفس عن جسمي. فكتب ملقى بلا حراك تماماً. لم اكن في الحقيقة املك اي طاقة

للحـركة وظننت انني ساموت في الحال. وسمعت نوعاً من الاضطراب والفوضى حولي، واصواتاً عالية غاضبة، وانزال الامتعة، كأن كل شيء في حلم.

وظننت انني سمعت الصوت المشفق، الحلو يقول: «اوه! هذا الحصان المسكين! انها غلطتنا!» وجاء شخص وارخى سير الرقبة في لجامي وفك السيرين الجانبيين اللذين شدا الطوق متوتراً على صدري. وقال احدهم: «مات. ولن ينهض مرة اخرى.» ثم سمعت الشرطة يوجهون الاوامر، ولكنني لم افتح عيني. فما كنت استطيع سوى ان استنشق نفساً بين حين وآخر. والقي شيء من الماء البارد على رأسي، وسكب شيء من شراب منبه في فمي، وغطيت بشيء ولا ادري كم بقيت مستلقيـاً هنـا، ولكنني وجدت ان الحياة تعود الي، ورجل حنون الصوت يربتني ويشجعني على النهوض.

وبعد اعطائي مزيداً من الشراب المنبه، وبعد محاولة او محـاولتـين وقفت متـرنحـاً، وقـادوني بلطف الى احـدى الاصـطبلات القريبة. ووضعوني في حظيرة مفروشة فرشاً جيداً بالقش، وقدم لي عصيدة دافئة، شربتها شاكراً.

وفي المسـاء استقرت صحتي بشكل كامل فقادوني الى اصـطبـلات «سكنر». حيث بذلوا جهدهم من اجلي. وجاء سكنر في الصباح بصحبة بيطار لمعاينتي.

فحصني بدقة قال: انها حالة اجهاد اكثر من كونها حالة مرضية، واذا اطلقته ستة اشهر لاصبح قادراً على العمل مرة أخرى، اما الآن فليس فيه مقدار ذرة من القوة.

فقال سكنر: اذن يجب ان يذهب الى الكلاب. فلست املك مراعي لتمريض خيول فيها - ولعله يتعافى او لعله لا يتعافى. هذا الامر لا يناسب مصلحتي. فخطتي ان اشغلها ما دامت قادرة على المسير، ثم ابيعها بأي ثمن تأتي به الى مشتري الحيوانات الاليفة المهزولة لاستعمالها سماداً او طعاماً للحيوانات.

فقال البيطار: اذا كان مصاباً بالربو، فالافضل قتله حالاً، ولكنه ليس مصاباً ولا مكسوراً. وسوف يقام مزاد علني للخيول بعد عشرة ايام، فاذا ارحته واطعمته جيداً، فسوف يتحسن ولعلك تحصل اكثر مما تبيعه الآن، على اية حال.

وبناء على تلك النصيحة، كما اظن، آمر سكنر راضياً باطعامي جيداً والعناية بي، ونفذ صبي الاصطبل الاوامر، لحسن حظي، بارادة حسنة افضل من اوامر سيده. عشرة ايام من الراحة التامة، ووفرة من الشوفان الجيد، والتبن، والجريش والنخالة مع بذر الكتان المغلي المخلوط بكل ذلك، كان له فعله في تحسن حالي افضل من اي شيء آخر يمكن القيام به. وكان الجريش المخلوط ببذر الكتان لذيذاً،

وبدأت افكر، بعد كل هذا، ان العيش افضل من الذهاب للكلاب. وبعد اثنتي عشر يوماً من الحادثة، اخذوني الى معرض البيع بالمزاد، على بعد اميال قليلة من لندن

وشعرت ان اي تغيير في مكاني الحالي ربد ان يكون تحسناً في احوالي؛ لذلك رفعت رأسي عالياً راجياً حياة افضل.

٤٨

الفلاح صالح وحفيده ويلي



الغيت نفسي طبعا في هذا المزاد، طبعا، بصحبة خيول منهارة فمنها الاعرج، ومنها المصاب بالربو ومنها المسن، ومنها ما انا متأكد انه جدير بطلقة الرحمة.

وبدا كثير من الباعة والمشترين من هم ليسوا افضل حالاً من البهائم التي كانوا يساومون عليها، منهم شيوخ فقراء يحاولون الحصول على حصان او مهر، لقاء باونات معدودات، يمكن ان يجر عربة خشب او فحم صغيرة، ومنهم فقراء يحاولون بيع حصان منهوك لقاء باونين او ثلاثة باونات بدلاً من ان يخسر الحيوان بقتله، ومنهم من بدا كأن الفقر والايام العصيبة قد اكسبته قسوة في كل شيء ومنهم من اود ان اخدمهم عن طيب خاطر بكل ما استطيع من قوة ـ اناس فقراء، ثيابهم رثة، رحماء، يمكن ان اثق بكلامهم واصواتهم.

واقبل شيخ يترنح. اعجب بي كثيراً واعجبت به ايضاً، ولكنني لم اكن قوياً ـ انه زمن القلق! ولاحظت رجلاً مقبلاً من الطرف الافضل للمعرض، وبدا عليه كأنه مزارع مهذب، ومعه صبي الى جانبه، كان عريض الظهر مدور المنكبين، لطيف الوجه، احمر الخدين، يعتمر قبعة عريضة الحافة، وعندما اقترب مني ومن زملائي القى نظرة مشفقة، ورأيت عينه تستقر علي فقد كنت حسن العرف والذيل، اللذين اضفيا علي منظراً حسناً، ونصبت اذني ونظرت اليه.

فقال: ويلي، هذا حصان، عزيز قوم ذل.

فقال الصبي: يا للمسكين! اتظن، يا جدي انه كان من خيل جر العربات؟ فاجاب المزارع وقد اقترب مني! اجل، يا

ولدي. لعله كان شيئـاً مذكـوراً عندما كان فتياً. انظر الى منخريه واذنيه، وشكل عنقه وكتفه. تبدو عليه معالم الاصالة.

ومـد يده وربتني بشيء من الحنان على عنقي، فمددت خطمي جواباً على لطفه، ومسد الصبي وجهي.

وقال: يا للمسكين! انظر اليه يا جدي انه يفهم اللطف. الا يمكن ان تشتريه وتعيد شبابه، كما فعلت مع الدعسوقة؟

فقال جده: يا ولدي العزيز، ليس بوسعي ان اجعل جميع الخيـل المسنة شابة، والدعسوقة فضلا عن ذلك، لم تكن كبيرة العمر ـ فقد ارهقت واسيئت معاملتها.

فقـال الصبي: حسنـاً يا جدي، انـا لا اعتقد ان هذا الحصان كبير العمر. انظر الى عرفه وذيله، ليتك تنظر في فمه، وتعـرف. وبالرغم انه نحيف جداً، فان عينيه غير غائرتين. مثل بعض الخيول المسنة.

وضحك الرجل وقال: بارك الله في الولد! انه عليم بالخيل مثل جده.

فقال الصبي: ولكن ياجدي انظر الى فمه، ثم اسأل عن سعره. انا متأكد انه سيستعيد شبابه في مروجنا.

وادلى الرجل الذي جلبني للبيع بقوله: سيدي ان الشاب الصغـير شخص عارف وفي الحقيقة ان هذا الحصان قد

انهكه العمل في جر العربات. وهو ليس مسناً. وقد سمعت البيطار يقول ان اطلاقة ستة شهور سيعيد قوته وعافيته، وانه غير مصاب بالربو. وقد توليت رعايته هذه الايام العشرة، ولم اصادف حيوانا اكثر منه لطفاً وعرفاناً بالجميل. انه يستحق ان يدفع عنه رجل مهذب خمسة باونات ويدعه ينل فرصته. وانا واثق ان قيمته ستبلغ عشرين باوناً في الربيع القادم.

ضحك العجوز ونظر الصبي اليه متلهفاً وقال: جدي، الم تقل ان المهر بيع بخمسة باونات اكثر ما كنت تتوقع؟ ولن تكون فقيراً اذا ما اشتريت هذا الحصان.

وراح الفلاح يتفحص متمهلاً قوائمي المتورمة والمتوترة، ثم نظر في فمي وقال: انه ثلاثة عشر لو اربعة عشر عاماً ارجوك ان تركضه في الخارج.

فقوست رقبتي النحيلة ورفعت ذنبي قليلاً وتطاولت بارجلي قدر استطاعتي، ولكنها متصلبة وتؤلم.

وعندما رجعت سأل الفلاح: ما اقل سعر تطلبه؟

فاجابه: خمسة باونات سيدي. وهذا اوطأ سعر يرضى به صاحبه.

فقال الفلاح الشيخ وهو يهز رأسه «انها مضاربة!» ولكنه في الوقت نفسه فتح محفظة نقوده متمهلاً وهو يقول «انه

مضـاربة حقيقية! هل لديك شغل آخر هنا؟» ثم راح يعد الجنيهات الذهب في يد الرجل.

فاجابه: لا، سيدي، يمكن ان اخذه الى الخان، اذا شئت.

فقال: حسناً تفضل، انني ذاهب الى هناك.

وتقدموا وانا اسير من خلفهم. ولم يكد الصبي يستطيع السيطرة على فرحه، وبدا الشيخ مبتهجاً بسعادة الصبي. واطعمت في الخـان طعاماً جيداً، ثم ركبني الى البيت احد خدم صاحبي الجديد، واطلقني في مرج فسيح في احد اركانه حظيرة.

وكان الذي احسن الي، السيد صالح، وهذا هو اسمه، قد امـربتقـديم التبن والشوفان لي في كل مساء وصباح، وان اطلق في المرج اثناء النهار.

وقال: وانت يا ويلي عليك ان تتولى الاشراف عليه انني اعهد به اليك.

وابتهج الصبي بمسؤوليته، وتولاها بكل جد. ولم يمر يوم لم يزرني فيه، وكان احيانا ينتقيني من بين الجياد الاخرى ويعطيني قطعة جزر او شيئاً طيباً، ويظل احياناً واقفاً الى جنبي وانـا اكـل الشـوفـان. كان يقبـل علي بكلام جميل ومـلاطفـة، فغـدوت مولعـاً به. واطلق علي اسم «الصديق الحميم» لانني اعتدت ان اقدم اليه في الحقل واتبعه في كل

مكان. وكان احياناً يأتي بجده الذي كان ينظر دائماً الى ارجلي.

ويقول: هذه غايتنا، يا ويلي، انه تحسن باطراد واظن اننا سنراه في افضل حال عند الربيع.

واخذت الراحة التامة والطعام الطيب، والعشب الناعم والتمرين اللطيف تظهر معالمها في حياتي وحيويتي. وقد ورثت عن امي قواماً ممتازاً ولم اجهد قط عندما كنت صغيراً، لذا فانني امتلك فرصة افضل من كثير من الخيول التي اشتغلت قبل ان تبلغ اوج قوتها. وتحسنت ارجلي اثناء الشتاء كثيراً فبدآت اشعر بشبابي مرة أخرى.

واقبل الربيع، وفي يوم من ايام آذار قررالسيد صالح ان يجربني بالمركبة الخفيفة ذات الاربع عجلات. وسررت للغاية وساقني هو وويلي بضعة اميال. ولم تعد ارجلي الآن متصلبة وقمت بالعمل براحة تامة.

وقال الشيخ: انه اخذ يعود الى شبابه يا ويلي! فيجب ان نكلفه بعمل بسيط الآن، وسيكون في اواسط الصيف ممتازاً مثل الدعسوقة. له فم جميل وخطى جيدة ـ ولا يمكن ان يكونا افضل من ذلك.

فقال ويلي! آه يا جدي! ما اعظم سعادتي انك اشتريته!

فقال الجد: وانا كذلك يا ولدي، ولكن يجب ان يشكرك هو

اكثـر ممـا يشكـرني. وعلينا الآن ان نبحث له عن مكان هادي،ء انيق، حيث يقدر حق قدره.

٤٩
مستقري الاخير



في يوم من ايام هذا الصيف نظفني السائس واعتنى بي عناية رائعة غير اعتيادية ففكرت ان تغيراً جديداً لابد ان يحصـل قريباً. فشذب خصلات الشعر في مؤخرة قوائمي

وقلم حوافري ومسحها بالقطران، وغرق ناصيتي. واظن ان العدة جرى تلميعها تلميعاً فائقاً. وبدا ويلي قلقاً. نصف مبتهج، عندما ركب العربة الخفيفة مع جده.

وقال الشيخ: اذا اعجبت السيدات به، فسيرضين به. ويرضى ويكون كل منهم مناسباً للآخر. وما علينا ألا التجربة.

وعلى بعد ميل او ميلين من القرية جئنا الى بيت واطيء جميل أمامه ساحة ثيل وشُجيرات، وطريق للعربة حتى الباب: ودق ويلي الجرس وسأل ان كانت الآنسة بلومفيلد او الآنسة ايلين موجودة في البيت، وعاد بعد عشر دقائق، تتبعه ثلاث سيدات، واحدة طويلة شاحبة، متلفعة بشال ابيض، وتستند الى سيدة اضغر عمراً ذات عينين سوداوين ووجه بَشِرٍ، اما الاخرى فقد كانت جليلة المنظر، هي الآنسة بلومفيلد. خرجن جميعاً والقين علي نظرة، سألن اسئلة. السيدة الصغرى - اقصد الآنسةايلين، اعجبت بي غاية الاعجاب. فقالت يقينا انها ستحبني، فقد كان لي وجه رائع. وقالت الشاحبة الهيفاء، ان ما يثير اعصابها الركوب (في عربة) يجرها حصان كبا يوماً، ولا يستبعد ان اعود فاكبو مرة اخرى. واذا ما حدث الامر، فانها لن تتغلب على خوفها من تلك الكبوة مطلقاً.

فقال السيد صالح: ترين سيداتي، ان كثير من خيول الدرجة الاولى قد تمزقت ركبها بسبب من اهمال راكبيها. دونما ذنب اجترحته الخيول نفسها، ومما ارى في هذا الجواد. اقول ان هذه هي حاله، غير اني لا اريد طبعاً، ان اكون عامل تأثير في رأيكن واذا وجدتن الميل في نفوسكن اليه، فيمكن اخذه على سبيل التجربة، وسيرى الحوذي لديكن رأيه فيه.

فقالت السيدة الجليلة: كنت لنا دائماً نعم الناصح الامين في خيلك. واني لاقبل نصحك، وان لم تجد اختي لاقنيا مانعاً، فاننا سنقبل عرضك على سبيل التجربة، مع وافر شكرنا. فاتفقوا ان ارسل لهن في اليوم التالي.

وجاء في الصباح شاب وسيم ليأخذني. بدا في البدء مستبشراً، غير انه لما رأى ركبتي قال بشيء من الخيبة. لم اكن اظن، سيدي، انك تنصح سيداتي بحصان مشوه مثل هذا! فقال صاحبي: الكريم يبقى كريماً. انت ستأخذه على سبيل التجربة، واني واثق انك ستحسن معاملته ايها الشاب. فان لم يكن اميناً شأن الجياد التي سبقت ان سقتها، فاعده الينا.

فاخذني الى البيت ووضعني في اصطبل مريح، واطعمني وتركني وحدي. وعندما جاء السائس في اليوم التالي قال وهو

ينظف وجهي: كأنها غرة «الادهم الجميل» تماماً وهو بعلوه ايضاً. عجبا اين هو الآن؟

ثم اتى بعد ذلك بقليل الى مكان في رقبتي حيث نزفت، وترك النزف في المكان ندبة، ثم طفق يتفحص بدني باهتمام شديد وهو يحدث نفسه.

«غـرة بيضاء في الجبين، رجل محجلة بالبياض، وندبة صغـيرة في هذا المكان» ثم تطلع في وسط ظهري - « وهذه البقعة الصغيرة من الشعر الابيض التي اعتاد ان يدعوها (قطعة النقد الفضية عند الادهم الجميل) فلا بد ان يكون هذا هو «الادهم الجميل»! يا جميل! أيا جميل! هل تعرفني؟ انا جو گرين الصغير، الذي كاد يقتلك!» ثم شرع يربتني ويربتني من فرط بهجته.

ليس بوسعي ان اقول اني تذكرته لانه غدا شاباً رائعاً له شارب اسود وصوت رجل، ولكني على يقين انه عرفني وانه جو گرين، وكنت به مسروراً. ورفعت خطمي اليه وحاولت ان اقول له انا كنا اصدقاء، ولم ار في حياتي انساناً بمثل هذا الانشراح.

وقـال: اجـربـك تجربة عادلة كيسة! هذا هو رأيي في الحقيقة واني لاعجب من الوغد الذي مزق ركبتك يا جميلي القـديم! لابـد انـك ذقت مرارة سوء المعـاملة في مكـان

ما .حسن، حسناً، ليس ذنبي انك لم تتمتع بوقتك! الا ليت جون مانلي حاضراً ليراك!

وفي عصر ذلك اليوم وضعني الى عربة تنزه واطئة وأتى بي الى الباب. الآنسة تود اختباري، وذهب جو گرين بصحبتها. الغيت في الحال انها سائقة بارعة، وبدت مسرورة بطريقة سيري وعدوي. وسمعت جو يحدثها عني، وانه واثق انني «الادهم الجميل» جواد سكواير گوردن.

وعندما خرجت الاختان الاخريان لتسمعا عن تصرفي. فاخبـرتهمـا بمـا سمعت تواً، وقالت: ساكتب الى السيدة گوردن، واخبرها ان جوادها المفضل آل الينا. ترى ما مدى بهجتها بذلك!

صرت اخرج بعد ذلك كل يوم طوال اسبوع او نحواً من ذلك، ولمـا تبينوا انني مأمون غاية الامان، جازفت الانسة لافينيا اخيراً بالخروج في العربة المفضلة الصغيرة. وقررن اخيراً الاحتفاظ بي ودعوتي باسمي القديم «الادهم الجميل».

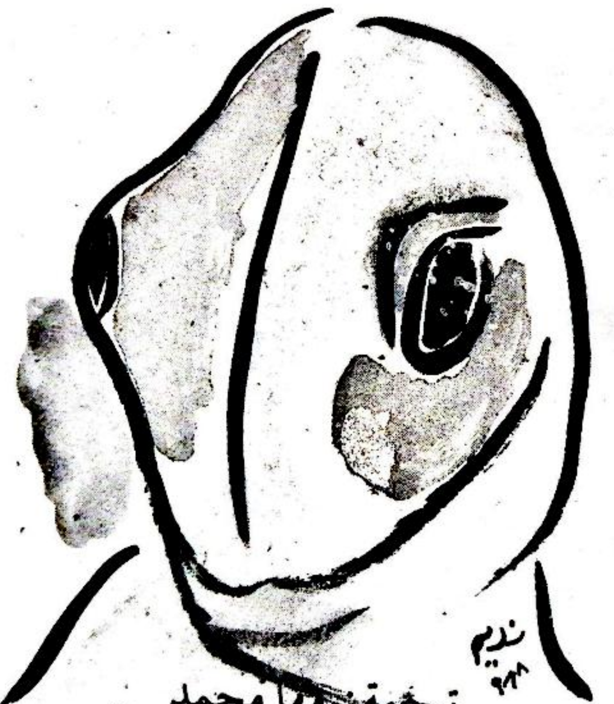
مضي علي سنـة كاملة في هذا المكان السعيد. وكان جو افضـل السواس واشدهم رحمة. وعملي مريح ويبعث على الانشراح واشعر ان قوتي ونشاطي قد عادت الي مرة اخرى.

وقـال السيد صالح في يوم من الايام: سيعيش عندكم

حتى يبلغ عشرين عاما ـ او ربما اكثر من ذلك.

ويـلي يحـدثني دائمـاً كلمـا استطاع الى ذلك سبيلا، ويعاملني كأني صديقه الخاص. وعاهدت سيداتي ان لا يبعنني ابـداً، لذا لم يعـد عندي ما اخشاه. هكذا تنتهي قصتي، وتزول كل متاعبي، واعيش بين اهلي. وكثيراً ما ارى قبـل يقـظتي تمـاماً واتخيل نفسي ما زالت في البستان في بيرتوبك، واقفاً بين صحبى القدامى تحت اشجار التفاح.

ساكن النجوم وقصص اخرى



ترجمة: مها محمد

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق (٥٢٤) ببغداد لسنة ١٩٨٩

دار الحرية للطباعة

فريق التوثيق
الألكتروني

دار ثقافة الاطفال

قسم النشر

روايات عالمية للفتيان

دار الحرية للطباعة